

يوسف السباعي



فديتك
يا بكي



فديتك يا بكي

N

8973

٤

فَرِيكَ يَا لَيْلَى

يوسف السباعي

فدريك يا ليلي

آثار على الرمال

الناصر
مكتبة مصر
٣ شارع كائن مسدق - الجيزة

الإهداء

إلى العزيز الذى لم أهد له بعد كتابا وهو أحق الأعزاء بالإهداء .
إلى قارئتى المجهولة .
وقارئى المجهول .
إلى صديقى الروح اللذين أوثقت الكتب عرى المحبة بيننا دون أن يرى
أحدنا الآخر .
أهدى كتابى هذا .
رمز صداقة روحية خالصة .

يوسف السباعى

الفصل الأول

رجل لا يدرى

ضباب كثيف فى أأحدود من الرمال .. كان يحاول دائما أن يشق طريقه فيه ، وساقاه يحس بهما متشاقلتان كأنهما قد شدتا إلى الأرض بأثقال تجعل السير ويدا عسيرا

وهو يحاول أن يدفع نفسه إلى الأمام دفعا لا يكاد ينزع قدمه الغائصة فى الرمال الناعمة حتى يدفعهما لكى تغوص فى الرمال مرة أخرى . ورغم كل ذلك فقد كان يجاهد فى التقدم جهاد المستميت غير عابىء بثقل قدميه أو بلين الرمال كان يريد الخلاص من ذلك الضباب المتكاثف الذى يكاد يكتم أنفاسه .. وكان به لهفة على أن يبصر ما وراء تلك الظلمات المعتمة .

إن هناك لا شك شيئا فى نهاية ذلك الأأحدود الضيق العميق ... شيئا يريد الوصول إليه ولو بشق الأنفس ... شيئا هاما حيويا يشعر أن حياته معلقة به .

ما هو ؟ ... وما كنهه ؟ . إن ذهنه لا يستطيع تحديده بالضبط . هذه المشقة التى يعانيتها وسط الرمال الثقيلة والضباب المعتم تستغرق كل تفكيره وتستنفد كل جهده .. فتخلط عليه المراتب ويروح منها ذهنه فى « دوامة » سريعة تمزج كل ما به وتتركه عاجزا حائرا .

— ٨ —

حسن ... ما عليه من بأس .. ليتقدم ... ويتقدم ... لا داعى
للتفكير .. كل ما عليه هو أن يثابر على السير ... وينتزع أقدامه
المنقلة بالحديد ... من الرمال المطبقة عليها فيخطو الخطوة تلو
الخطوة ... فى جهد ومشقة .. وجلد واستماتة .. إنه لابد فى
النهاية واصل .

ورفع يده فمسح بها قطرات تندى بها جبينه .

عرق ١١٩ ... أم رشاش ؟

ولكن من أين له الرشاش وسط هذه الرمال ١٩ إنه عرق .. لشد ما
أجهد نفسه فى السير .. ولكنه مع ذلك لن يتوقف .
وهكذا استمر فى السير .. بخطا بمجهد متناقلة .. فلا تفكير فى شىء
سوى أن يبلغ النهاية ويصل إلى ذلك الشىء الذى يريد الوصول إليه .
وفجأة توقف فى مكانه .

ما هذا ؟ .. لقد سمع صرخة .. أجل .. صرخة حادة شقت
مسامعه .. أترأه وأهما ١١٩

إنها تبدو وكأنها آتية من وراء الضباب .. مقبلة من نهاية الطريق ..
وكأنه بها صادرة من ذلك الشىء الذى يجد فى الوصول إليه .
إنه إذا إنسان .. بدليل أنه يصرخ .. إنه يريد الذهاب إلى إنسان ..
أجل .. أجل .. رجل ١٩ امرأة ١٩ لا يذكر .

ولكن لماذا يصرخ هذا الشىء الذى فى نهاية الطريق ؟ لعله فى ضيق
أو فى خطر ، وهو يريد أن يسعفه . إذا فهو يعرف أنه قادم إليه .. لم إذا
لا يكرر الصباح ١٩ لم لا يصيح مرة ثانية وثالثة حتى يبلغه ١٩ أ يكون
عاجزا عن الصباح ١٩ ألا يحتمل أن يكون قد أطبق عليه الخطر ١٩ أما
يجب إذا أن يثب الخطأ إليه ١٩ أجل .. يجب أن يسرع جاهدا . قاتل الله
هذه الرمال المنهالة تحت قدميه ... إنها تعوقه عن العدو .

- ٩ -

إلى متى هذا السير ؟ وما بال الغمة لا تنقشع ، والضباب لا يتبدد ،
والرمال لا تنقطع ! والطريق لا تبدو نهايته ؟

إلى متى كل هذا ؟ وماذا يجبره على السير .. أمن أجل صرخة فى
الهواء ؟ وصرخة من ؟ لا يدري ، بل ربما كانت مجرد وهم من صنع
الذهن المجهد والنفس المكدودة .

أف لكل هذا ؟ يجب عليه أن يكف عن هذا السير المضنى ... يجب
أن يتوقف أو يعود القهقري ... ولكن إلى أين ؟ إنه لا يعرف .. لا
يعرف شيئا عن كل ما حوله ... لا شيء سوى هذا الأخدود الممتد من
الرمال ، والضباب المحيط المتكاثف .

لا .. لا .. ليس أمامه سوى السير ... إن فيه على الأقل أملا فى
شيء ... أى شيء .

آه من ذلك الشيء لو يستطيع بلوغه !!

وعاود السير مرة أخرى ينقل قدميه فى إعياء ويبل شفثيه بطرف
لسانه ، ويمسح بكفه قطرات العرق المتصبية من جبينه .

ومرة أخرى أحس بقدمية تتسمران فى الأرض هذه المرة لا لبس
فيها ولا غموض ... لم تكن صرخة مبهمه كالمره السابقة .. بل
كان نداء واضحا مميزا ... كان نداء باسمه عاليا حادا يشق الفراغ المحيط
به .

من أين أتى ؟ .. من أمامه ؟ أين نهاية الطريق ؟
ما ذلك الشيء الذى يريد الوصول إليه ؟ لا يستطيع أن يحدد بالضبط
من أين أتى .. ولكنه مع ذلك يجزم بسماعه ... قد يكون أتيا من
أمامه .. أو .. من ورائه .

من وراء !!

إذا فهناك من يناديه من وراء !

من ؟ ... ولم ؟ وماذا يريد منه !

إيطارده ؟ ربما .. إذا فهو مطارِد .. من إنسان يعدو وراءه .
ويلاحقه .. إذا فهذا الشيء كامن وراءه لا أمامه .. وهو محد فى
النأى عنه لا فى بلوغه ... فى الفرار منه لا فى اللحاق به ...
ولكن لم يطارده ؟ ماذا يبغى منه ؟
وهنا تذكر أن يده اليسرى غير خالية ... إنه يحمل بها حقيبة
صغيرة .. آه .. تلك هى السبب .. إنها بغية المطاردة .. وغرض
الملاحق ..

وشدد عليها قبضته .. وأطبق عليها أصابعه .. حتى نفرت عروق
يده .

لن يمكنهم منها .. لن يستطيع أحد أن يأخذها منه .. لن يجسر
إنسان على الاستيلاء عليها أو فتحها .. أو معرفة ما بها .
ولكن ماذا بها ؟ لماذا يخشى عليها كل هذه الخشية ؟
ماذا بها ؟ .. ماذا بها ؟ ويحه !! إنه هو نفسه لا يعرف ماذا بها .
ليفتحها إذا ويرى ماذا بها .

لا ... لا ... إنه لا يجسر .. إن ما بها مخيف ، مخيف جدا .. ماذا
بها ؟ .. إنه يعرف .. لمن اللّه هذا الذهن المضطرب والذاكرة المشوشة .
آه .. لقد تذكر .

اللائم ... السفلة ... إنهم يريدون ما بها ... لكى يودوا به ...
ويقضوا عليه .

إن بها مستند إدانته ... بها أدلة جنايته ... أدلة حاسمة لا تقبل شكاً
ولا نقضاً ... بها آثار الجريمة ... وأكثر من هذا .. بها السلاح الذى
قتل به ضحيته .

إنه قاتل .. هارب يمعن فى الابتعاد عن جريمته وعن مطارديه ...
حاملاً معه آثاره وسلاحه .

- ١١ -

ولكن لم لا يقذف بها ويتخلص منها ١٩ لم يلصقها بنفسه ...
ويقيمها شاهدا على كل ما فعل ١٩.

ارمها بعيدا ... أيها الأحمق .

لا ... لا ... إنه لا يستطيع ... إن أصابعه تزداد بها تشبثا وعليها
إطباقا ... أترأى يخشى أن يعثروا عليها، ويعرفوا ما بها ١٩ ربما .. ولكن
هناك دافعا أقوى من هذا يدفعه إلى التشبث بها ... إنه يريد لها لنفسه ..
إنه يحس أنها جزء منه .

ولكن فيم وقوفه هكذا والمطارد لا بد في أعقابيه . اجر .. اجر ..
تقدم .. تقدم ... انج بنفسك ... وفر من أمامه .

ومرة أخرى عاود السير في استماتة واستيئاس .

كان يتحرك بالقوة الدافعة من خلفه .. قوة الخشية والخوف والرغبة
في الفرار ، بعد أن كان يتحرك بالقوة الجاذبة من أمامه ... قوة اللهفة
والشوق والرغبة في الوصول .

وعادت قدماء تدفعان في الرمال وتنزعان منها ... وشمل الضباب
المحيط ذهنه كما شمل جسده .. ولم يعد يفكر في غير شيء واحد ...
السير ... السير إلى الأمام ... السير قدما .

وأخيرا بدا له أنه قد وصل .

وصل ؟ .. إلى أين ؟ أنسى أنه مطارده هارب ١٩ وأن غرضه من هذا
السير المنهك الشاق ... ليس الوصول إلى شيء .. بل الفرار من شيء ١٩ ؟
ولكنه مع ذلك يعتقد أنه قد وصل .. إن هناك أصواتا تناديه ..
أصواتا رقيقة ناعمة ... والضباب يوشك أن ينقشع .. والرمل تزداد
صلابة تحت قدميه .. وساقية تشتدان والأثقال المعلقة بهما تخف شيئا
فشيئا .. والرياح تهب حاملة في طياتها نسمات رطبة ندية تبتد بها
الضباب المخيم .

أجل ... إنه يوشك أن يصل .. إنه ليس بهارب ولا قاتل .. يجب أن
يجد في السير ... لا خوفاً مما وراءه .. بل رغبة فيما أمامه .
وانطلق يعدو ... والأصوات المنبعثة من نهاية الطريق تزداد
وضوحاً .. إنها تهتف باسمه .. راجية مستعطفة .. ذائبة .
إنها تناديه في شوق ولهفة .. وهو أيضاً يحس لها ذلك الشوق وتلك
اللهفة .. ليعد .. ليعد ... إنه يوشك أن يبلغها .
إن الأصوات تزداد وضوحاً .. إنها تعلو ... تعلو .. ولم يعد هتافها
رجاءً واستعطافاً ، بل أضحى استغاثةً واستنجاداً . اقترَب ... اقترَب ..
إنها تريدك ... وإنها في حاجة إليك . أغشها .. أدركها .
إنه آت .. آت .. إنه يسابق الريح ... لحظة واحدة ويصل إليها ...
إن قوة خارقة تدفعه .. إنه لم يعد يحس بالرمال ولا بقدميه على
الرمال .. إنه لم يعد يجرى .. وإنما يطير .. ليس له أقدام ، بل أجنحة
... ولم يعد يحس إلا بالريح تلفح وجهه .
لحظات بعدها يصل .. ثوان .. بل أقل .
إنه آت .. آت ...

وفجأة .. وبعد أن قارب الوصول ... وبعد أن كادت الرمال تنتهي
والضباب ينقشع والنهية تبدو ... أحس بموجة رملية جبارة عاتية تبرز له
فجأة كالمارد فتنبض عليه ... وتصدمه صدمة عنيفة ... فيحاول
المقاومة ... ولا تلبث موجة أخرى أن تتلوها .. ثانية وثالثة ... وإذا
صراعه مع الرمال قد أضحى صراعاً مع الموج .. وثقل الساقين قد
أصاب الجسد كله ... ولم يعد يفيد في قهر الموج ضرب ذراعيه ولا
قرع ساقيه ... بل وجد نفسه يعلو بين برائن الموج في عنف ويهبط في
شدة .. وأنفاسه تتلاحق ... حتى يوشك أن يختنق .

- ١٣ -

والأصوات ما رالت تصيح به ... مستنحدة مستغيثة .. وهى تتباعد وراء الموج ... ضائعة بين صخبه ، متبددة فى ضجيجيه .. وقد أخذت تخفت شيئا فشيئا ... حتى صمتت تماما .

وأخيرا بدأت الأنواء تهبط وتبسط ... وتوالت عليه بخفة الموجة تلو الموجة ... وتضاءل الصراع وهذا ... وأضحت الريحات العنيفة من أسفل إلى أعلى بين طيات الأمواج العاتية ... هزات خفيفة لينة .. وتملكه استرخاء المستلقى فى راحة عقب جهد عنيف .. ولم يعد يحس من الصراع والضجة إلا بلمسات الموج المنتظمة تتوالى عليه فى رقة بين آونة وأخرى وكأنها جناح الطائرة يمسّه فى رفق .

ومضت برهة وهو من حاله تلك فى راحة تشبه الغيوبة ، لا يكاد يحس إلا بالهزة المنتظمة والمسة المتواترة .

أجل ... استمرت الهزة ... وتوالت المسة ... ولكن لا من موج سائر ولا من جناح طائر ... بل من أشياء أثبت وأكثر صلابة ... أشياء ملموسة محدودة ... غير مبهمة ولا مشوشة ، ولا مضطربة ولا موهومة .

لقد أضحت هزة الموج هزة مقعد وثير جلس عليه مسترخيا بجوار نافذة .. وأضحت مسة جناح الطائرة المتوالية المنتظمة أشياء ثمر من وراء زجاج النافذة مرورا خاطفا لا تكاد تقبل حتى تذهب ، ولا تكاد تظهر حتى تختفى .

إنها أشياء متحركة .. أشبه بالقوائم أو الأعمدة ... بل إنها أعمدة فعلا .. أعمدة « تلغراف » ... أو جذوع شجر ... أو خليط من هذا وذاك .

ولكن ما الذى يحركها ؟!

ويحه !! ما أغباه !! إنه هو الذى يتحرك ... أو هو الذى يجلس فى شىء متحرك ... أجل ... أجل .. هذا الحيز المحدود والمقاعد

- ١٤ -

المتراصة ، والنوافذ الزجاجية ، والرفوف الشبكية ذات الحجاب لابد أن تكون فى عربة قطار .

وبدا الصفيير يتصاعد حادا من القاطرة أشبه بصرخات الاستغاثة .
إذا فهو على سفر .. وكل ما مر به لا يعدو أن يكون أضغاث
أحلام . ولكن لماذا السفر ؟ إلى أين ؟ ومن أين ؟
أهو متجه إلى شىء ... أم هارب من شىء ؟
مرة ثانية لا يدري ... تماما كما كان لا يدري وهو يعدو فى الرمال
الثقيلة والضباب المعتم ... إلى أين ؟ ومن أين ؟
لا يدري ... لا يدري .

بل إنه لا يدري الفاصل بين الحلم والحقيقة ... واليقظة والغفوة ...
إن كل ما فى ذهنه مبهم مشوش مضطرب .
أين الأحلام من اليقظة ؟ وأين اليقظة من الأحلام ؟ متى يكون فى
حلم ، ومتى يكون يقظانا ؟ من هو ؟ وماذا يريد ؟ إلى أين يذهب ؟
ومن أين أتى ؟
أنه لا يدري ... لا يدري .

كل ما يدريه عن نفسه .. هو أنه لا يدري شيئا ، ولا يحس بشىء ..
إلا ذلك الحزن المبهم والخوف الغامض .
وبحركة لا إرادية أطبق قبضته اليسرى بشدة وعنف .
وأحس بشىء من الطمأنينة وهو يجد الشىء الذى أطبق عليه بيده ما
زال موجودا ... أجل .. كانت الحقيبة ما زالت فى موضعها ..
حمدا لله .. لن يستطيعوا أخذها منه .. ولن يستطيعوا رؤية ما بها ..
إنه يريد بها .. ويخشى مما بها .
إن بها حياته .. وفيها حتفه .

- ١٥ -

أهو قاتل حقا؟ من قتل؟ ومتى؟ وكيف؟ .. يجب عليه أن يهرب .. يجب أن يعدو .. يعدو .. بدل أن يجلس هكذا مسترخيا متخاذلا .

ومرة أخرى أحس أنه يوشك أن يخوض أحود الرمال .. ويغرق فى أمواج الضباب ... عندما وجد بدا تربت ساقه برفق .. وسمع صوتا رقيقا بجواره يقول له :

— لقد وصلنا .. إن القطار يدخل المحطة .. هيا بنا .

وجذبه الصوت مما أوشك أن يهوى إليه .. وتلفت إلى مصدره فوجد رجلا يجلس بجواره .. ميز فيه ذلك الوجه الباسم اللطيف الذى رافقه من أول السفر .. والذى رافقه أيضا قبل هذا .. بل يذكر أنه يرافقه دائما أينما حل .

إنه مطمئن إليه ... فوجهه يوحى بالثقة والطمأنينة.. وقد تذكر أنه قال له إنه صاحبه .. صاحبه ؟ من ؟! ... لقد نسى الاسم .. كما نسى كل شيء .. ولقد حاول أن يذكره بأشياء لم يستطع أن يذكرها .

لا يهم كل هذا .. المهم .. هو أن هذا الرفيق ... مبعث أمن وطمأنينة ... ولا يبدو منه ضرر ولا خطر .. وليس هناك ضرر فى أن يستمع إليه ويتبعه ما دام هو نفسه لا يدري .. إلى أين يذهب .. ولا ماذا يفعل .

فقط .. يجب أن يحرص على شيء واحد ... وهو الحقيقة ! يجب أن يطبق عليها جيدا ... يجب ألا يغفل عنها أبدا ... يجب ألا يسمح لأحد - أيا كان - أن يمسه أو يحاول فتحها أو الاستيلاء عليها .

وعاد يشدد القبض عليها وهو ينهض متبعا صاحبه ... وخرج من باب الديوان الذى كانا يجلسان فيه والذى قد خلا إلا منهما .. ودلفا من الممر الضيق حتى وصلا إلى باب العربة ثم هبطا إلى الرصيف وسارا

بين الجموع المتحركة إلى خارج المخططة .. وعبرا الباب الذى وقف عليه عامل التذاكر . وفى الخارج دلفا إلى إحدى عربات الأجرة ... وصاح صاحبه بالسائق :

— شارع ماسبيرو .

تحركت العربدة ومال هو إلى السوراء متكئا بظهره على ظهر المقعد وأطلق تنهيدة تحمل بعض الراحة والطمأنينة .. لقد كان فعلا يحس أنه أكثر طمأنينة وهو فى العربدة منه وهو سائر فى فناء المخططة وسط الجموع المتحركة وبين صياح باعة الصحف والجمالين . لقد كان المنظر مألوفا لديه ، ولكنه مع ذلك كان يشعر منه بكثير من قلق وخشية .

هذا الزحام ، وتلك الصيحات والنداءات كانت تخيفه وتقلقه .. كان يخشى أن يتسلل نحوه أحد هؤلاء المحيطين به فيخطف الحقيبة ويعدو بين الناس فاضحا أمره .. ولكن ما شأن الناس به ؟ وبحقيقته ؟ من يدرى .. ربما كان أحدهم يعرف .

يعرف ماذا ؟

يعرف أنه قاتل .

قاتل ؟ .. أهو قاتل حقا ؟

أجل .. أجل .. إنه قاتل .. يحس بعجب جريمته يتقل على روحه ويطبق على أنفاسه .

ولكن ليس هناك من يعرف جريمته غيره .. أو على الأقل هذا هو ما يخيل إليه .. ليس هناك من يتهمه بشيء ... كل من حوله ينظرون إليه نظرة طبيعية جدا .. أو على الأقل هذا هو ما يبدو منهم .

صاحبه مثلا .. هذا المخلوق الرقيق الجالس بجواره ... إنه يعامله معاملة إنسان شريف مهذب .. وليس بمجرم ولا قاتل . إنه قطعا .. لا يدرى .

أم هو نفسه الذى لا يدرى؟؟

من يدرى!؟

يدرى!؟ لا يدرى!! تلك هى مصيبته .. هذا الذهن المشوش المضطرب .. والنفس الضالة الحائرة .. الخائضة فى أبحر الرمال .. التائهة وسط الضباب .. الغارقة بين الأمواج .. المثقلة بالشعور بالوزر .. المذعورة .. الخائفة الوحلة .. التى لا يقر لها قرار .. والتى لا تفتأ تعدو أبدا ... هاربة من مجهول .. متلهفة على مجهول .

أنى له أن يدرى شيئا ... بعد كل هذا!؟

ولكن أخير له أن يدرى .. أم يظل متخبطا فى دياجير تلك!؟ لا .. لا يجب أن يدرى شيئا .

هذا الشخص الجالس بجواره مثلا قد أنبأه أنه صاحب قديم له ، عزيز عليه .. ومع ذلك هو لا يذكره .. أبدا .. ولقد أنبأه باسمه .. فنسيه .. كيف يخاطبه الآن!؟

لا ضرورة لمخاطبته .. إن أفضل شئ له أن يلوذ بأهداب الصمت .. هذا هو آمن الطرق .. إن خير ما يستر به حاله .. هو ألا يتكلم .. لا داعى لأن يدرى شيئا ... يكفى أنه جالس فى أمان ، ويكفى أن تكون قبضته مُشددة على الحقيقة .

وعاد يضم الحقيقة إليه جيدا ، ويشدد عليها قبضته .

وكانت السيارة تشق طريقها فى شارع الملكة .. وكان الوقت قبيل الغروب ووقفها المرور عند تقاطع شارع فؤاد بجوار مبنى الإسعاف . وتلفت حوله يستطلع حلية الأمر .. فيم وقفها؟ ... وما هذه العربات المتكاثرة حولها!؟ لماذا لا يسرون!؟ هل هناك شئ!؟ .

وعاودت العربة سيرها .. هذا الطريق يعرفه جيدا .. لقد سبق له أن مر به فيما مضى .. متى ؟ .. لا يذكر .. ولكنه يعرف هذه المباني ، وهذه الحوانيت .. هذا الجامع القائم على يمينه ليس بغريب عليه ... لا

.. ولا هذه المدخنة السوداء العالية ... ودارت العربدة جهة اليمين فى طريق أفضى إلى ساحة واسعة تشققها بضعة خطوط ترام وتقوم فى زاوية منها كنيسة ضخمة تعلوها القباب والأبراج .. هبطت الشمس من ورائها فصبغت قممها بلون الأرجوان .

هذا المنظر أيضا ليس بغريب على ناظره .. إنه يستطيع أن يجزم بأنها ليست المرة الأولى التى يمر فيها بهذا المكان .. ولكن متى كانت المرة الأولى .. منذ بعيد .. أم قريب ؟ لا شك منذ بعيد جدا .. والصورة فى ذهنه شاحبة باهتة .

وزاد انحراف السيارة يمينا وعبرت الساحة سائرة فى طريق قامت المباني على يمينه ، وعلى يساره امتد سور حصى منخفض حجز الطريق عن شاطئ النهر ، ومن ورائه من خلال الأشجار المتدللية فروعها .. بدت مياه النهر تترقق متألفة فى أشعة الشمس الهابطة .

واستراحت نفسه إلى المنظر الجميل المرسوم أمامه .. واستغرق فى تأمله ، ولكنه لم يلبث حتى أفاق على صوت رفيقه يصيح بالسائق :
- يمينك .. عند الباب القادم .

ووقفت العربدة وهبط صاحبه فنقد السائق أجره ، ولم يجد بدا من الهبوط وراءه ، وسارت العربدة ، ووقف الاثنان فى مدخل عمارة ، ورفع صاحبه بصره إلى أعلى ، ثم تلفت حوله كمن يبحث عن شىء .
عمن يبحث صاحبه ؟ . إنه لا يبدو على معرفة جيدة بالمكان فهو يتلفت تلفت الباحث الحائر .

ترى إلى أين هما ذاهبان ؟

إنه بالطبع لا يدرى .. كما لا يدرى دائما أى شىء عن كل شىء .
ولكن هذه المرة .. أليس من حقه أن يدرى ؟
إذا كان لم يدر فيما سبق .. أليس من الواجب أن يدرى الآن ؟ .

- ١٩ -

أجل .. أجل .. لابد أن يعرف إلى أين يذهب به صاحبه .. هذا أقل ما يجب معرفته .

وتقدم من صاحبه وقد رسم على شفتيه بسمه هادئة وسأله متأدبا :
- إلى أين نحن ذاهبان ؟

ومد صاحبه يده متأبطا بها ذراعه فى ود وصداقة ، وقال كأنما يذكره :

- إلى الدكتور محمود .. محمود توفيق .

الدكتور ؟ !! الدكتور محمود توفيق ؟ !! من هو ؟ إن صاحبه يذكره كأنما هو شخص معروف لديه .. وكأن حضورهما إليه كان أمرا معروفا سبق الاتفاق عليه .

ليس أمامه سوى الموافقة .. لا داعى للمناقشة ألينة .. هذه أشياء تبدو كأنه يجب أن يعرفها .. ومصيبته أنه لا يعرف ما يجب أن يعرفه مما لا غبار على عدم معرفته .. إنه لا يعرف شيئا أبدا .. ولذا فمن الخير أن يوافق فى هدوء ويسر .. وأن يقنع من الفهم والمعرفة بالصمت والسكوت .

وفى تلك اللحظة بدا « بواب » نوبى بجلباب أبيض ولفافة رأس بيضاء ، فأشار إليه صاحبه متسائلا :

- الدكتور توفيق فى أى دور ؟

- الدور الخامس شقة ثمة ٢٧ .

وتقدم البواب إلى المصعد ففتحه وتبعه الاثنان فدخلوا المصعد .

الدكتور توفيق ؟ .. من هو ؟ ولماذا يذهبان إليه ؟ لعل بصاحبه علة

لأنه هو نفسه لا يشكو من شىء .

وماله هو يتجشم كل هذه المشقة ... ما دام الأمر لا يعنيه !

إنها مسألة صداقة .. على أية حال لا ضير عليه من مرافقة صاحبه .

- ٢٠ -

ووقف المصعد ، وفتح صاحبه الباب .. ثم عبرا ممرا ضيقا إلى باب مفتوح علقت عليه لافتة زجاجية كتب عليها « دكتور محمود توفيق أخصائى الأمراض النفسانية » وفى صمت دلف صاحبه إلى الداخل .

أمراض نفسانية ؟

ويحه .. من منهما المصاب ؟ هو أم صاحبه ؟
هو الغريق التائه الشارد الذاهل الذى لا يذكر ولا يدرى ! أم صاحبه الذى قاده وتولى أمره حتى الآن ؟ حمدا لله . إنه لم يسأله شيئا حتى لا يفضح نفسه .

إنه يذكر الآن أنهما قد قاما برحلتهم هذه فى سبيل الذهاب إلى هذا الطبيب .. من أجله هو .. هو الضائع أبدا فى غيوبة من الرمال والأمواج .. هو الذى لا ينام ولا يستيقظ .. الذى لا يفرق بين السبات والصحو ، بل يحيا فى خليط من هذا وذاك .. شىء واحد هو الذى يجده ملموسا مجسدا فى سباته ويقظته .. هو هذه الحقيقة التى يشدد عليها قبضته ، والذى يشعر أن فيها حتفه ، ومنها حياته .

واستقبلهما رجل يرتدى معطفا أبيض قادهما إلى صالة رصت بها بعض المقاعد والأرائك ، وبدا فى مواجهتهما باب متسع يفضى إلى شرفة تطل على شارع « ماسبيرو » الموصل بين طريق الملكة و « كوبرى أبو العلا » .

وسألهما الرجل الانتظار حتى ينتهى الطبيب من زائر لديه .
ووقفا برهة يدوران ببصريهما بين الصور المعلقة فى الحائط تم سأله صاحبه :

- أنتظر هنا أم فى الشرفة ؟

وتجاوز ببصره باب الشرفة ورونا إلى الأفق البعيد حيث الماء المنبسط فى رجرجة خفيفة متألقة وقد اختلط لونه البنى بلون الشمس

الهابطة الذهبية الأرجوانية ، ولم يكن هناك وجه للموازنة بعد هذا بين الصالة والشرفة ، فقد أخذ المنظر بألبابه ، وأجاب صاحبه فى شبه رجاء :
— الشرفة أفضل .

وتقدما إلى الشرفة وحلس كل منهما فى مقعد مريح من القش ...
وعندما أطمأن إلى سلامة الحقيبة فى يده رنا يبصره وراء سور الشرفة الحديدى مطلقا تنهيدة راحة .

كان المنظر رائعا حقا ... الطريق لا يبدو منه إلا حافة ضيقة من الرصيف العريض الأقرب للشاطئ وقد صفت عليه أشجار الفيكس العريضة الورق ، الداكنة الخضرة ، المطلقة الفروع ، بلا تشذيب حتى لتكاد تتشابك وتتعانق .. وقد بدا وراء جذوعها السور الحجرى المنتظم الواطئ . وإلى الشجر والسور صفحة النهر العريض المنساب فى رفق .. المنبسط فى عنفوان وتودة ... وفى الناحية اليسرى بدت الكنيسة ذات القباب التى ينتهى عندها امتداد الطريق بجوار النهر ويسدأ انحرافه حولها ... وعلى النهر نفسه بدا كوبرى قصر النيل ، وعلى وجه أدق ، طرفه البعيد .. إذ حجب الطرف القريب الثكنات الحمراء والكنيسة البيضاء ، وفى الناحية اليمنى بدا « كوبرى أبو العلا » تنساب العربات والزام أسفل الهيكل الحديدى الممتد فوقه .. وفى الناحية الأخرى من الشاطئ بدا خليط من الفيكس والبانسيانس والجوكوراندنا قامت وراءها فى الناحية اليمنى العمارات العالية على الجانب الآخر من الطريق ... وفى الوسط انبسطت ساحة السباق وملاعب البولو فى نادى الجزيرة ، وبعض الأبنية الصغيرة المشيدة فيه ، وفى الناحية اليسرى بدا المتنزه القائم على حافة النيل وفى وسطه الجامع بمئذنته العالية الشماء .

وظل يقلب بصره بين الأشجار والمساحات الخضرة ومئذنه الجامع وقباب الكنيسة ، حتى استقر أخيرا فوق صفحة الماء المنبسطة إلا من تجعدات خفيفة تحدثها هبات النسيم .

وتعلق بصره فى التجعدات التى بدت كأمواج رقيقة ناعمة ، وبدأ يحسن أن التجعدات البادية على صفحة الماء قد أخذت تزداد شيئا فشيئا ، وأن النسمة الرقيقة التى كانت تهب على صفحة الماء أخذت تشتد وتقوى .

وبدأ النسيم يصفر حتى أضحى ريحا .. والتجعدات تعلو فتصبح موجا .. والصياح يتعالى من وراء الموج حتى صار هديرًا وزئيرًا . وزادت قبضته ضغطا على يد الحقيقة .

مرة أخرى بدأ الصراع ... إنهم لا شك يريدون الحقيقة ، يريدون أن يعرفوا ما بها ليقعوا به ... وارتفعت موجة عاتية فلطمته لطمه شديدة .. كان عليه فى هذه المرة أن يفر إلى الشاطئ .. إن المسألة ليست بالهينة ، بل تحتاج إلى جهد شديد ... هيا .. لا تنس ولا تكل .. ضع قدميك على الشاطئ .. أجل .. هكذا أمسك الرمال بكلتا يديك .. لا .. لا بل بيد واحدة .. إياك أن تفلت الحقيقة ! ها قد وصلت .. الرمال ثقيلة .. والضباب على الشاطئ معتم . ولكن عليك أن تبسّر ، عليك أن تعدو .. اعد .. أسرع .. انبسطت ساحة السباق وملاعب البولو فى نادى الجزيرة ، وبغض لا تقف .. انزع قدميك .

ودخل الممرض - « التومرجى » إلى الشرفة وقال داعيا الزائرين :
- تفضلا .

وتلفت صاحبه إليه وقال فى رقة وفى شبه اعتذار :

- أظن من الأفضل أن تنتظرنى .. سأحدثه برهة ثم أَدْعُوك .

لم يعبه بكلمة ، فقد كان منهمكا فى العدو ، وكان يعدو فى الرمال والضباب هاربا من شىء ، متلهفا على شىء .. كان لا يكاد يشعر بما حوله ، لا يرغب فى أكثر من أن يتركوه . وصمت لا يحدث أحدا ، ولا يحدثه أحد .

— ٢٣ —

وتبع صاحبه « التوموجى » إلى حجرة الطبيب ، فعبرا الصالة إلى ممر ضيق أفضى بهما إلى باب على يمينه .. طرقة « التوموجى » وسمع نداء رقيقا يعلو من وراءه :

— تفضل .

ودفع « التوموجى » الباب وأدخل الرجل ، ثم أغلق الباب وراءه . ومن خلف مكتب صغير نهض الطبيب يستقبله مرحبا وهز يده فى حرارة قائلا :

— أهلا بك .. كيف الحال ؟! مضت مدة لم نتقابل ؟

— سنتان على الأقل .

— كانت آخر مرة رأيتك فيها فى محاضرة الدكتور نصيف فى دار الحكمة .

— أجل .. أجل .. وأظننا تقابلنا بعد ذلك فى الأوبرا .

— كانت مقابلة خاطفة لا تحتسب .

— تفضل .. اجلس .. خيرا إن شاء الله .. أى ريح طيبة دفعت بك

إلينا ؟!

— ليست طيبة تماما ... إنها عاصفة بعض الشيء ، هذه أول مرة أحضر لك هنا .. عيادة لطيفة ، أنيقة ، وواجهة تشرف على منظر لطيف .. ولكن يبدو أن موقعها ليس « صقعا » .

— لا ضرورة للموقع « الصقع » ... المهم ... الزبون « الصقع » .. نحن لنا زبائننا الذين يبحثون عنا يا سيد زكى .

— الحال رائجة إذا ؟!

— جدا .. رزق الهبل — كما يقولون — على الجانين — لنى لم أحاول من قبل .. الاعتراف بطب النفس ، ولم يخطر لى على بال قط .. أن أطلب من أحد أخصائييه معونه جدية .

— على كل حال نحن فى الخدمة .. وعلى استعداد لتقديم كل معونة .

— ٢٤ —

— متشكر جدا .. هذا ما كنت أنتظره .

— حير أن شاء الله .. ماذا بك ؟

— بى أنا ؟

ولم يتمالك نفسه أن أطلق ضحكة خافتة قصيرة :

— لست أنا هذه المرة .. قد أحتاج إليك فى المرة القادمة ..

ثم صمت برهة وأردف قائلا :

— إنه صديق عزيز لدى .. عزيز كأخ .. أو أكثر من أخ .

— وأين هو ؟

— إنه يجلس فى الشرفة .. لقد بدا لى من الخير أن أراك أولا على

حدة ، وأن أحدثك عن كل ما أعرف ، مما أجد حرجا فى سرده

أمامه ، وأحذرك من بعض ما يجب الحذر منه ، حتى لا تضايقه عن غير قصد .

وضحك الدكتور توفيق وأجاب مطمئنا !!

— نحن لا نضايق هنا أحدا ... إن عملنا هو إن نذهب الضيق ، وأن

نريح المريض .

— أنا أعرف ذلك .. ولقد قلت إنك قد تفعل ما يضايقه عن غير

قصد .

— لا عن قصد ، ولا عن غير قصد .

— الظاهر أنك تريد أن تضايقنى أنا عن قصد .

وضحك توفيق وأجاب :

— أتم حديثك ، لن أضايقك بعد هذا .

— قلت إنى فضلت أن أراك على حدة حتى أسرد لك المسألة برمتها ،

وأذكر رأى كطبيب باطنى حاولت علاجه وأجريت عليه كشفا تاما ،
وفحصته فحصا دقيقا .

— وماذا وجدت به ؟

- لا شيء .. لا شيء أبدا .. سليم أربعة وعشرون قيراطا ، النبض منتظم ، والحرارة طبيعية .. والضغط عادى والقلب سليم .. و .. و .. الخ .

- إذا مم يشكو ؟

- هو نفسه لا يشكو من شيء .. ولا يتحدث عن شيء ..

- إذا ماذا به ؟

- ماذا به ؟

وأطرق برأسه برهة ثم أردف قائلا :

- إنه دائم الذهول والشرود ... دائم الصمت والفكر يبدو كأنه سيهبط فى أغوار عميقة بين آونة وأخرى .. أو يظل فى غيبوبة تنأى به بعيدا عنا وعلى وجهه سيماء ..

وقاطعه توفيق متسائلا :

- هل تعود تعاطى أى نوع من أنواع المخدرات ؟

ونفى زكى السؤال بشدة وبطريقة جازمة :

- لا .. لا .. ليس هو ذلك الشخص .. إنه لم يدخن فى حياته سيجارة واحدة .. أنه مخلوق مثالى .. إننى أعرفه تماما كما أعرف نفسى .. ولا شك أنك تعرفه أنت أيضا .. أو على الأقل تعرف اسمه .. إنه إبراهيم محسن الموسيقار المعروف .

- إبراهيم محسن !؟ طبعاً أعرفه .. إننى معجب جدا بموسيقاه .. بل إننى لا أكاد أقدر أحدا من الموسيقيين الشرقيين سواه .. إننى أعتقد أنه مخلوق مرهف حساس .. ولا شك أنه قد أصيب بصدمة عنيفة .

- ربما .. ولكن لا أحد يدري عنها شيئا إلا هو .. وهو ذاهل شارد لا يعى ولا يذكر ولا يتكلم .. أظن من الخير أن أقص عليك ما أعرفه عنه .. وما استطعت أن أحصل عليه من معلومات مما أدى إلى حالته تلك .

وبدا زكى يسرد حديثه قائلا :

الفصل الثانى

روح فى حقيقه

عرفته ونحن طالبان فى مدرسة الخديوى إسماعيل وكان اسمها وقتذاك كما تعرف « الثانوية الملكية » .

وكانت المعرفة عقب معركة حامية دارت بيننا فى « حارة اليهود » وهى إحدى دروب المدرسة ، وفى ركن قصى منها بجوار « أولى تالت » ، وراء معامل الطبيعة والكيمياء .. وضربته جيدا .. وضربنى جيدا .. وبعدها .. ومنذ ذلك اليوم نشأت بيننا صداقة يحسدنا عليها أحب الإخوة وأعز الأقرباء .

لقد أحببته جيدا ... ولى العذر .. فهو مخلوق .. لا يملك إنسان ، أيا كان ، إلا أن يحبه .

كان .. من يومه .. كما سمعته أنت فى موسيقاه .. رقيق النفس ، مرهف الحس ، ولم أكن كذلك بل كنت على نقبضة عداء كثير الحركة لا يستقر لى قرار ... ومع ذلك فقد علمنى كيف أستقر ، وكيف أجلس فى الفسح بجواره على أحد المقاعد لتتحدث ، أو كيف أسير دون أن أعدو أو أقفز .

ولست أريد أن أسرد عليك تاريخ حياته فلا أظن لدينا من الوقت ما يسمح لنا بسرد تفاصيله .. ثم إنى لا أجد فى ماضيه الشئ غير الطبيعى الذى قد تجد فيه ما يمكن أن تستند إليه فى تشخيص حالته .. فقد كان نموذجا للإنسان المستقيم الناجح المخطوظ .

ولكنى مع ذلك أحب أن أشغل من وقتك بضع لحظات فى وصف شخصيته ونفسيته وخلقه ، وهو ما قد تحتاج إليه أنت وما سيتعذر

— ٢٧ —

عليك الحصول عليه إلا منى .. أنا أقرب الناس إليه والذي أعرفه خيرا من نفسه .

كان أكثر ما يميزه عنا ونحن صبية هو إحساسه الدائم بالذنب .. والعجيب أنه لم يكن هناك ما يدعو لهذا الإحساس .. فذنوب « التلمذة » بطبيعتها من التفاهة بحيث لا يكاد يحس الإنسان بحملها .. وهو بالذات كان أقلنا ارتكابا لهذه الذنوب .. إن لم يكن عديم الذنوب .. ومع ذلك كنت لا أفتأ أرى القلق ينتابه بين آونة وأخرى .. لأشياء لا أظنها — لو كنت فاعلها — بتاركة فى نفسى أى أثر ، أو قل إنى ما كنت أستشعر فعلها قط .

مثلا .. أذكر ذات مرة أنه خرج من أحد الامتحانات حزينا مقطب الجبين ، فظننته قد أخطأ الإجابة ، وقلت له مازحا :

— لا تكتب .. فى الملحق متسع للجميع .. دعنا نشترك فيه معا .

— أى ملحق ؟

— ملحق اللغة الفرنسية .

— لمن .

— لك .

— أنا ؟ .. لقد أجبت عن جميع الأسئلة .

— إذا فما بالك حزينا ؟

— حزين من أجلك .

— من أجلى أنا ؟

— أجل .

— لم ؟

— لقد خمنت ثلاثة أرباع الأسئلة التى أتت فى الامتحان وذاكرتها

قبل الدخول بنصف ساعة .. ولو أننى قلتها لك لضمنت الإجابة الصائبة عنها .

ورغم إحساسى بشيء من الخذلان لم أملك إلا أن أجيبه ضاحكا :
- لا تحمل لى هما ... لقد أجبت إجابة .. أظننى أستطيع بها أن
أفصح .

- كنت أستطيع مساعدتك ... ولكننى لم أفعل ... لأننى انهمكت
فى استذكارها ولأننى خفت ألا تصدقنى وتضحك على .
وهكذا دائما كان يستشعر الذنب .. لا لأنه ارتكب شيئا بل لأنه
قصر فى فعل شيء .. فقد كان يتهم نفسه دائما بأنه كان يستطيع أن
يفعل ... ولم يفعل .

ومثل آخر .. أذكره الآن جيدا كأنما حصل بالأمس ، كنا قد تأخرنا
فى الخروج من المدرسة ذات يوم ... حيث كنا نشاهد بعض الألعاب
التي يقوم بها فريق « الجيميناستيك » على الأجهزة ، وعند خروجنا من
البوابة وجدنا ازدحاما فى الشارع وشاهدنا عربة الإسعاف وقد تكاكا
حولها الناس ووجدنا الشيخ فضل البواب يصرخ باكيا وعلمنا أن ابنه
كان جالسا أمام باب المدرسة ، وتركه الرجل بضع دقائق ليقضى حاجة
فعدا الطفل إلى الشارع لاهيا عند ما تصادف مرور عربة مسرعة صدمته
صدمة كسرت ساقه .

ومن الطبيعى أن تترك أمثال هذه الحوادث ألما فى النفوس ، ولكن من
غير الطبيعى أن يروح الإنسان محملا نفسه بلا أدنى مناسبة عبء
مسئوليتها وذنب وقوعها .

لقد تأثرت أنا ... وحزنت بعض الحزن على عمى فضل وابن
فضل .. وهكذا فعل كل من شاهد الحادثة .. ولكن إبراهيم لم يكن
ليأخذها كما أخذناها ، يمثل هذه السهولة ، بل كان لا بد له أن يحشر
نفسه بين أبطالها ويزج بشخصيته بين مرتكبيها والمستولين عنها .

وعلمت فى اليوم التالى أنه لم ينم فى ليلته إلا لاما وأنه بكى بكاء
حارا ، وسألته فى شيء من الغيظ :

- ٢٩ -

- ومالك أنت ؟

- مالى أنا ؟ لقد كنت أستطيع منع الحوادث .

- كيف ؟

- لو لم أقف لمشاهدة اللعب .. وخرجت فى موعدى لرأيت الطفل وهو يعدو فى الشارع ولاستطعت إنقاذه .

- كلنا إذن مستولون عن الحادثة .. بل كل إنسان لا بد أن يكون مسئولاً عن حادثة ما .. فما من حادثة تقع إلا كان يستطيع منعها إنسان .. كن عاقلاً وكف عن هذا السخف .

وغيره .. وغيره .. لقد كان دائماً يحس أنه مقصر فى حق سواه وأنه كان يستطيع أن يفعل خيراً .. ولو فعله ، فإنه نادماً لأنه كان يستطيع أن يفعل خيراً منه .

ذلك هو الشيء الذى يمكن أن أعتبره فيه غير طبيعى .. والذى أعتقد أنه لازمه فى كل أدوار حياته بعد ذلك . وأنا نفسى أستطيع إرجاعه إلى تجسّد الخير فى نفسه وإلى يقظة شديدة فى ضميره تجعله شديد الحساسية بمتاعب الناس وآلامهم .. شديد الرغبة فى مشاركتهم إياها ، أو رفع حملها عنهم .

ولا شك أنى عندما أصفه بأنه شىء غير طبيعى .. أقصد أنه غير طبيعى بالنسبة للناس .

ولكنه قد يكون طبيعياً بالنسبة له وبالنسبة لطريقة تكوين نفسه وخلقه .

فقد كان ذا نفس رقيقة مرهقة .. نفس فنان مفرط فى الحساسية . كان فناناً موهوباً ذا أذن موسيقية سريعة الالتقاط ، وكنت أعجب له كيف يقف فى الطريق فجأة ليلتقط نغمة عابرة ويبدو لى أنه يترنج من فرط النشوة ، وكنا إذا ما خرجنا فى المظاهرات أجده قد تسلسل من بيننا ، ليذهب إلى أحد محال الأسطوانات فيسرق السمع . بحانا ...

أو إلى معهد الموسيقى حيث يقبع فى أحد أركانه ليسمع دون أن يحس به أحد .

كانت الموسيقى تجرى فى دمه .. ولم تجد المحاولات التى بذلها أهله فى إبعاده عنها ، وفى فرضهم رقابة شديدة عليه تجعله يسير فى طريق التلمذة المحدود .. لينتهى به الأمر إلى مهنة محترمة .. طبيب مثلاً .. أو محام .. أو مدرس .. أو إلخ ..

وقد سار فى الطريق المرسوم .. سار يجسده وليس بروحه .. ولم يكن فى دروسه بالمفرط فى الذكاء ولا بالمفرط فى الغباء .. كان طالباً ممتازاً فى بعض العلوم أذكر منها العربية .. لا سيما الإنشاء والمحفوظات التى كان يجيد إلقاءها وكان ضعيفاً فى بعض آخر ، وأذكر منها الإنجليزية ، والميكانيكا .

أقول أنه سار فى طريق الدراسة بجسده .. أما روحه فقد كانت هائمة فى الموسيقى والألحان والغناء .. وأذكر أنه بدأ ينتج ألحانه سرا وهو مازال طالباً .

ولم يكن فى خلقه على طبيته واستقامته ، نبياً .. بل كان مثلنا يكذب أحياناً ويقصر فى واجباته أحياناً .. وكان مثلنا أيضاً .. يحب : الأكل .. واللهو .. والمزاح ... والفتيات ، وكانت له مغامراته التى قد تخفى على الجميع إلا على .. وكانت له .. ماذا أيضاً ؟ كل شئ .. كبقية البشر العاديين .

ولكنه كان معتدلاً .. معتدلاً .. معتدلاً فى كل شئ .. طبعاً عدا ذلك الشئ الذى قلت لك عنه فى أول الأمر وهو معاونته غيره .. وحب الموسيقى ، ولم يكن يدخن ولا يشرب الخمر ولا يتعاطى أى نوع من المخدرات .. ولم يحاول أن يرجع ذلك إلى طبيعته الخيرة .. بل إلى رغبته عن فعل ما لا لزوم لفعله ، وعما يجد فى نفسه حاجة ملحة إليه .

ويمثل هذا التركيب فى خلقه والتكوين فى نفسه جرت حياته : تلميذ فى الظاهر ، وفنان فى الباطن .. لا تغلر من نجاح وسقوط وأفراح وأتراح ، حتى حصلنا على « البكالوريا » معا ، وكان ثمرجه من القسم الأدبى وتخرجى من القسم العلمى .

وفى ذلك الصيف الذى حصلنا فيه على الشهادة التى كانت لدينا بمثابة جواز مرور إلى طبقة الرجال ... والتى كانت تنقلنا من تلميذ ثانوى إلى طالب فى الجامعة بينه وبين الوظيفة « فركة كعب » .. فى ذلك الصيف نفسه توفيت والدته .

ولا شك أنها كانت صدمة قاسية عليه .. فقد حزن على فقدانها حزنا شديدا .. وأحس وأبوه لغيبها لوعة أليمة .. فقد خلفت وراءها فراغا لم يستطع أحد بعدها أن يشغله .

ومع ذلك فقد مرت الوفاة كما تمر كل وفاة .. فما أظنها كانت بالحدث الفريد فى نوعه .. برغم أنه تلقاها وقتذاك على أنها كذلك .
مرت ليلة المأتم وهو محطم منهار متداع .. ولم يخل الأمر طبعاً كعادته من أن يستشعر من موتها نوعاً من التقصير برغم أنه لم يفارقها خلال مرضها لحظة واحدة ... وأنه سهر على ثمريضها ، فلم يغمض له جفن الليالى الثلاث السابقة للوفاة .. ولكنه مع ذلك لم يعدم مبرراً لاتهام نفسه بالتقصير .. ولم يعدم سبباً يعلل به مسئوليته فى وفاتها .

وعاونه ما استطعت على الصبر والتجلىد ... وتوالت الأسابيع والأشهر وهى تقرض بأنياب النسيان كتل الحزن الجاثمة التى بدت فى أول الأمر جامدة لا تتفتت .. خالدة لا تتبدد .. حتى أصبحت فى النهاية ذكرى نصيبها استمطار الرحمة واستنزال الغفران .

والتحق بكلية الآداب والتحقت بكلية الطب .. وسار كل منا فى طريقه ولكن الصداقة بيننا لم تهن ، والرابطة القوية من الحب والإعلاء لم

تضعف .. بلبقى كل منا على وفائه لصاحبه ولهفته عليه برغم تباعد فرص اللقاء ولا سيما فى أوقات الشدة المدرسية أعنى قبيل الامتحانات . وعاش مع أبيه (الذى كان وقتذاك يشغل وظيفة كبيرة قارب الخروج منها بحكم السن) وتالتهما فى الدار « مدهولى » الطباخ .. أو تالتهما كليهما .. فقد كان به من الكلاب شبه كبير .. من ناحية الوفاء والأمانة . وفى تلك الفترة بدأ تحرره من قيود « التلمذة » ولم يعد يأبه كثيرا لأخفاء ميوله ، وبدأ نبوغه يظهر للملأ واحتل فى عالم الموسيقى مكانا مرموقا .

ومرت دراسته العليا دون حادث يذكر .. أعنى حادثا له أثر عميق يتصل بموضوعنا .. فما أظن حياته فترة ذاك قد شابها غير الشوائب العادية التى تشوب حياة فنان فى طريقه إلى المجد .

أظنه أحب بضع مرات .. ففتاة من الجامعة أحبها بحق الزمالة ، وفتاة بجوار مسكنه أحبها بحق الجيرة .. وفتاة معجبة أحبته ثم هجرته فوضع لها بضعة ألحان .. وأذكر أنها لوعته وأقضت مضجعه فترة من الزمن لابس بها .. ولكنه ما لبث أن أفاق .

وغير هذا لا أذكر شيئا ذا بال .. اللهم إلا احالة والده على المعاش وقضاء وقته ما بين الدار فى القاهرة وبضعة الأفدنة التى يملكها فى القليوبية والتى تولى زراعتها لحسابه منذ أن أحيل إلى المعاش .

وتخرج بعد أربع سنوات لم يرسب فيها سنة واحدة ، بل كان تفوقه فى دراسته العليا — رغم اشتغاله بالموسيقى — واضحا ، ووجد نفسه أخيرا قد ألقى من فوق كتفه حمل الدراسة الذى طالما أثقل كاهله ، وأضحى كما يريده والده .. رجلا محترما ذا شهادة عالية .. وبدأ بعد ذلك يفرغ تماما .. لألحانه وموسيقاه ... أو على حد قوله .. يعيش لنفسه .

- ٣٣ -

ولم تكد تمر بضعة أشهر حتى فقد والده . وكانت صدمته هذه المرة أخف بعض الشيء من صدمته الأولى بوفاة والدته .. أولا لأن الوفاة حدثت بعد مرض طال بضعة أشهر حتى باتت متوقعة بين آونة وأخرى ، وفقدت وقع المفاجأة التي كانت لوفاة الوالدة ، وثانيا - كما يبدو لي - أنه كان يجب والدته أكثر من والده .. فقد كان بالأخير نوع من الأنانية والانتواء .. أضعفت من قوة الصلة التي كانت يجب أن تكون بين الاثنين .

ولست أعنى بقولى هذا طبعاً أنه لم يحزن أو أنه لم يحاول كعادته أن يدخل فى روع نفسه وفى روعنا مدى تقصيره فى العناية به ومدى مسئوليته فى وفاته ، وأنه لو لم يفشل فى الحصول على دواء معين لما حانت منية أبيه بتلك السرعة ولا استطاع أن يمد فى أجله .

ولم أناقشه كثيراً فى أوهامه تلك .. فقد تعودتها منه فى كل تافهة تمر بنا فما بالك بوفاة والده ؟!

ومرت الوفاة ، دون أن تحدث فى حياته تغييراً يذكر .. فقد كان بطبيعته أميل إلى الاستقرار ، عزوفاً عن التغير والتنقل .. فاستمر قاطناً نفس الدار وهى « فيلا » متوسطة كائنة فى حدائق القبة .. مشرفة على المزارع القائمة على أطرافها . كان أبوه قد تولى بناءها على قطعة أرض يملكها ، واستمر محتفظاً بالخدم ولا سيما « مدبولى » الطباخ العجوز ، الذى احتل فى الدار مركز المسعول الأول وكان له بمثابة الأب والأم وولى الأمر .

وعاد إبراهيم إلى تأجير الأرض التى ورثها عن أبيه بعد أن كان أبوه قد تولى زراعتها لحسابه إذ لم يكن لديه وقت ولا دراية بمثل هذه المشاكل واكتفى من الأرض ببضع مئات من الجنيهات تدرها عليه فى كل موسم زراعى يبددها فى معاونة نفسه على الحياة للتفرغ للموسيقى

(فديتك يا ليلى)

والألحان ومعاناة الناس ومعاناة ضميره على الاستراحة من خوفه الدائم من التقصير فى معاونة الناس .

وأظن هذا كل ما يمكن ذكره باختصار عن حياته وعين بحلقه ... وأظننى استطعت أن أرسم لك الإطار الذى أستطيع أن أضع فيه الحادثة المباشرة التى نتجت عنها حالته تلك .

بقيت مسألة هامة وهى الناحية النسائية فى حياته سواء أكانت عاطفية أم جنسية ، إنه لم يتزوج حتى الآن ، وأنا أعرف إن رأيه كان دائما ألا يتزوج ، يحض إرادته .. أو على حد قوله .. إنه لن يلقى بنفسه إلى التهلكة بيديه .. أما إذا دفعته يد أخرى فليس أمامه ألا أن يتقبلها صاغرا .

ولسبت أشك أن مبعث إعراضه عن التقييد بالزواج هو أنه لم يشعر قط بالحاجة إليه ، فهو لم يحس بنقص فى أى مطلب له سواء أكان لقلبه أم لجسده .. فهو ما يسمونه بالرجل الحسن المنظر . فإذا أضفنا إلى حسن منظره لطف معشره وخفة ظله ودماثة خلقه وشهرته كموسيقار وجدنا أنه لم يكن من المستغرب أن تكون حياته دائما مليئة بأثنى تقدم له فى يسر وبلا مقابل وبلا قيد ما يغنيه تماما عن زوجة تقيده وتطبق على أنفاسه .

ولا أظنه ارتبط بإحداهن ارتباطا طويلا .. بل كان يبدو لى فى بعض الأحيان أنه يجب فى وقت واحد ثلاثة أو أكثر ، ولأ أظنه كذلك خدع إحداهن أو خلطها ، بل كان - حتى بعد انتهاء العلاقة الوثيقة التى قد تربطه بإحداهن - يستمر على علاقة طيبة معها .

مفهوم ؟ .. هل استطعت أن أصفه جيدا من هذا الناحية ؟ أخشى لا .. وأخاف أن أكون أبديته فى صورة زير نساء .. وهو لا شك يتناقض تمام التناقض مع الصورة التى رسمتها له قبل أن أتحدث عنه فى هذه الناحية .

ولا شك أيضا أنك قد تتساءل عن موقف ضميره الوحاز اليقظ الكاره لشقاء غيره ، التواق إلى إسعاده ومعاونته .

ألم يكن أنسب لهذا الضمير أن يهدأ إلى واحدة وينطوى وإياها فى حياة هادئة يستطيع خلالها أن يقدم يد العون والسعادة للزوجة والأولاد ١٩ . حسن .. قد يكون هذا صحيحا .. ولكن تذكر أننى قلت إنه لم يخدع إحداهن أو يخذلها ، بل كان معهن دائما صريحا قويا .. وكان يقول إنه يبادلهن المتعة ، وأنه يسعدهن جميعا ، وأنه يعاونهن بطريقته الخاصة على الحصول على أكبر قدر من الهناء ، ولن يسىء إلى غرضه أنه هو نفسه يفيد المتعة ويحصل على السعادة .

ذلك كان تعليله .. وقد يكون غير مقبول .. ككل تعليل للذنب لا يعدم أن يجد فيه صاحبه ما يبرر به ذنبه .

ولكن لم نسميه ذنبا ، وتلك هى طبيعة الرجال ؟ .. ورفقة النساء دائما أشد شيوعا وأكثر متعة من زواجهن .. ولا سيما لفنان قد يعتبر نفسه ملكا مشاعا أكثر منه ملكا خاصا لمخلوق معين ، ويشد أن حريته ووقته أثمن من أن يضيعهما تحت رحمة زوجة . وأنه يجب أن يعيش كالعصفور حرا طليقا يهتف على كل غصن ويغرد على كل فنن .

وهو - كما قلت لك - ليس نبيا .. بل هو مثلنا تماما .. ميل إلى المعصيات .. يكذب ويهمل ويفسق .. ولكن الفارق بيننا وبينه أننا نرتكب تلك الأشياء فى سهولة وبغير أن نعبأ كثيرا بوقعها على غيرنا ما دام وقعها على غيره ، وقبل أن يتأكد تماما من أنها إذا لم تفد غيره فهى على الأقل لن تضره .. وبعد ذلك كله لا يجد هناك ما يمنع ضميره من الوحز والتحرك .

وثمة مبررات أخرى - غير الرغبة فى التحرر من القيود - لاستساغته حياة الحرية تلك .. واكتفائه من الزوجة بالحبيبات والرفيقات .. وهو استقرار فى حياته المنزلية وراحة هيأها له العم « مدهولى »

- ٣٦ -

الطيب ، المحنك ، الماهر ، الذى أقام له من نفسه أما وأبا وجعله لا يشعر قط بالمضايقات التى يقاسيها الأعزب ، بل كان يجد كل مطالبه فى الحياة من مأكّل طيب ، وملبس نظيف ، ومضجع هادئ مريح ، بلا أى جهد بل بغير إحساس بأن هذه الأشياء تتطلب جهدا ، فقد كان يجدها معدة متوفرة بلا سؤال ولا تفكير .

ومبرر آخر هو انهماكه فى الدراسة الموسيقية ومحاولته إنجاز عمل ضخم كان ينو - على حد قوله - أن يحدث به عند ظهوره ضجة كبرى .
وأخيرا .. وهو أقوى المبررات وأشدّها .. والذى اعتقد قطعا أنه هو السبب الحقيقى .. ما يسميه هو ويقول عنه .. الافتقار إلى اليد الدافعة .. أى إلى المرأة التى يشغف بها حبا .. والتى تطير لبه .. وتذهب عنه صوابه .. والتى تقذف به إلى التهلكة بدفعة من أصبعها .. والتى كان يدعو الله من قلبه .. ألا تصادفه قط .. حتى يظل متمتعا بجزيرته .
أظننى أستطيع أن أبدا بعد ذلك بسرد الحادثة المباشرة .. وأنا واثق أنك تعرفه جيدا ، وتفهم أى نوع من الناس هو ، وأنتك تستطيع أن تقول تصرفاته وأعماله التأويل الصحيح .

بدأت الواقعة فى أواخر الشتاء من شهر ونصف شهر أو شهرين .
عندما التقيت بإبراهيم .. لقاء مصادفة .. لم يكن أحد منا يتوقعه .. وكان قد مضى على ما يقرب من شهرين لم ألقه .. فلقيته على وحشة وشوق ، وعلمت منه أنه قد عزم على أن يعتكف فى مكان ناء لا يرى فيه أحدا ولا يراه أحد حتى يتمكن من وضع « أوبرا » جديدة .. فقلت له :

- ولم لا تعتكف فى بيتك ؟

- لا .. لا .. لا فائدة .. حاولت أن أقبع فيه فلم أستطع .. أنا أعرف نفسى جيدا .. أنى أريد مكانا خاليا غير مطروق أسجن نفسى فيه .

— ٣٧ —

- أظن « قره ميدان » .. هو خير ما يصلح لك ؟
— قره ميدان .. حر .
— إذا طره .. أظنه « طراوة » ؟ . ويمكنك أن تحجز فيه حجرة بحرية .
— لا داعى للتعجل .. فأنا وأنتق أنهم سيضعوننى فيه بعد إخراج الأوبرا .
— إذا إلى أين تنوى الذهاب . أيها المعتكف الكبير ؟
— قد أذهب إلى مطروح .. أو الغردقة .. أو أى منفى مشابه .
وهنا خطر لى خاطر وجدت فيه خير . حل له فقلت هاتفا :
— اسمع .. مالك تذهب بعيدا ... المنفى أمامك معد جاهز لا يكلفك مليما واحدا .
— ماذا تقصد ؟
— أقصد بيتى فى الإسكندرية .
— بيت السيوف ؟
— أجل .. إنه خال الآن ولن أذهب إليه قبل ثلاثة اشهر .
— والله فكرة .. ولكن ... ؟
— لكن ماذا ؟ لن نجد مكانا نائيا منعزلا مثله .. تستطيع أن تمكث فيه كأهل الكهف .. وأؤكد لك أنه لن يسأل عنك إنسان ..
وسيمنحك ما شئت من هدوء وخلو بال وشاعرية .. إنه أصلح مكان لنزول الوحى على أمثالك . أظنك لن تجد معتكفا خيرا منه . ألدريك اعترض ؟
— لدى اعتراض واحد .. أنت تعرفه .
— ما هو ؟
— البعوض .. أتذكر الليلة التى قضيتها عندك فى الصيف الماضى ..
إنى لم أنم لحظة واحدة .

- طبعا لأنه لم يكن هناك استعداد لنومك .. لقد نمت بلا ناموسية ..
لأنه لم تكن هناك واحدة خالية .

- والبيت حر .

- حر ١٩ لا تكن أحمق .. لقد نمت فى العام الماضى فى حجرة
الاستقبال القبلية .. وكان الوقت عز الصيف .. أما هذا العام فالوقت
ربيع وتستطيع أن ترتع فى حجرات البيت كما تشاء .. أؤكد لك أنك
ستحتاج إلى التدثر بالأغطية .

وهكذا استطعت إقناعه بالاعتكاف فى بيتى الخالى . والواقع أنى
كانت محقا فى إصرارى على إقناعه بالذهاب . فقد كان البيت نموذجاً له .
فأنا أعرفه جيدا .. وأعرف ولعه بمثل ذلك المكان الكائن فيه البيت
وبالمناظر المحيطة به .

سأصف لك البيت وصفا سريعا عاجلا . أنت تعرف السيوف ؟ لا
تعرفها ؟ إنها النقطة الكائنة فى مدخل الإسكندرية من ناحية الطريق
الزراعى قبل فيكتوريا مباشرة .. أتعرف طريق أبو قير الذى تقوم على
جانبه النخيلات ويسير موازيا للترعة المتفرعة من المحمودية إلى الرأس
الأسود .. قبل أن تصل إلى تقاطع طريق أبو قير والطريق الواصل إلى
فيكتوريا القائمة عنده نقطة المرور الكائنة بجوار الكوبرى .. قبل أن تصل
إلى هذه النقطة وأنت سائر على الطريق الزراعى القادم من القاهرة ..
تجد مصرفا موازيا للترعة ولطريق أبو قير ولا يبعد عنهما أكثر من مائتى
ياردة .. حيث تقع بين الاثنين أرض الأوقاف الزراعية الممتدة حتى الرأس
الأسود . إذا اتجهت يمينك بجذاء المصرف ورأيت طريقا غير مرصوف
يسمى طريق النخيل قام على جوانبه بعض النخيل الذابل وأشجار
الكافور الجافة ، فإذا سرت فى الطريق بجوار المصرف مخلقا بضعة بيوت
متفرقة على الطريق ، وجدت بيتا فخما أنيقا لمستشار نرى متقاعد
يجاوره بيت هو آخر البيوت القائمة فى الطريق ، ولا يبدو بعده سوى

أرض فضاء مقسمة للبناء تنتهى بأراض زراعية تبدو فى أفقها بضعة دور صغيرة .

هذا البيت الذى يجاور البيت الكبير هو البيت المقصود .. أو بلغة العرب بيت القصيد . ومن العبث أن تحاول رؤيته من الخارج فقد تكاثفت أشجار الجازورينا والكافور المحيطة به وتشابكت فروعها وتلاحمت أوراقها حتى أخفته تماما عن الأبصار وأقامت من نفسها غطاء أشبه « بالمكبة » لم تترك خارجها غير السور الخشبي والجاراج ، فإذا تجاوزت باب الحديقة الخشبي فى شارع جانبي وجدت البيت قائما أمامك وسط حديقة متكاثفة معشوشبة أشبه بالقلاع الخشنة رمادية اللون قائم النوافذ قد أحيطت نوافذه السفلية بخواجر ذات قضبان حديدية غليظة ، ويبدو فى مدخله المواجه لباب الحديقة بضع درجات تفضى إلى الباب ، وفى الناحية الأخرى تبدو شرفة كبيرة ذات حاجز حجري واطى وقد دس أسفلها كوم من حطب الكافور الجاف وأصص مكسورة وأحجار وأتربة لم يحاول أحد إزالتها منذ أن غادرته قاطنته الأولى وهى إنجليزية عمجوز .

والبيت من الداخل يبدأ بدهليز ضيق يفضى إلى « صالة » صغيرة تطل على الشرفة السابق وصفها ، وقد وضع على يمين الداخل بيانو ضخم قديم وعلى يساره بضعة مقاعد .. وفى المواجهة سلم رخامى يتجه إلى اليسار يودى إلى الدور الثانى الذى احتوى على غرف النوم والحمام ، وعلى اليمين غرفة الاستقبال ، ثم حجرة الطعام ذات المدفأة الكبيرة ثم المطبخ .

ذلك هو ما يحضر فى ذهنى من تفاصيل البيت ، ويبدو لى أن التفاصيل نفسها ليست بذات أهمية بقدر منظر البيت والجو المحيط به .

إن البيت أشبه بقلعة فى غابة .. والعين لا تبصر حوله إلا أراضى واسعة تتناثر فيها بضع دور مميزة بالحدائق المحيطة بها والنباتات المتسلقة على جدرانها وأسقفها الحمراء المائلة الجمالون .

وأسفل البيت يجرى المصرف الذى يحد الحقول الخضراء المترامية الأطراف الزاخرة بأعواد القصب التى تتماوج أطرافها فى مهب الريح ، ووراء كل ذلك حشد قائم من التخيلات كأنها حراس الأفق .

ذلك هو البيت الذى استقر به صاحبنا ليغرق فى موسيقاه ويضع مجموعة من ألحانه الجديدة ، نموذجاً لمحتكف ومثلاً لمهبط وحى ، لا يكاد يزعجه فيه طارئ ولا عابر ، ولا يؤنس وحدته رفيق ولا سامر .. اللهم إلا خادمة الأمين وولى أمره وطباخه « مدبولى » .

ولست أدرى كيف مرت به الأيام وقتذاك .. ولكنى أعرف بصفة عامة من بضع رسائل قصيرة تبادلناها ، أنه كان راضياً عن البيت وعن حياته فيه كل الرضاء ، وأنه لم تشب صفو أوقاته شائبة كدر ولا ضيق ، وكنت أعتقد أنه مستغرق فى وحدته ، منهمك فى ألحانه ، وأنه يعيش فى البيت النائي أشبه بناسك فى صومعة .. حتى وصلتني منه رسالة ذات يوم تنبئني بطريقة يسيرة عابرة .. بأنه خطب .

ولا أكتمك القول أن دهشتى من النبأ كانت شديدة ، فقد كانت خطبته ، وهو فى وحدته تلك ، آخر ما يخطر لى على بال ، ومع ذلك فقد أخذت الدهشة تنبذ تدريجياً ، بعد شئ من التفكير استطعت أن استنبط به الطريقة التى يحتمل أن تكون قد تمت بها الخطبة .

كانت الخطبة ابنة الجار الذى يقطن البيت الكبير المحاور لبيتى .. ولست أشك — برغم أنه لم يحدثنى عن شئ من التفاصيل — أن المسألة ، اتخذت صورة حب سريع جارف ملتهب اشعلته الجيرة والوحدة وفرط الحساسية ، فأقدم فى غمرة خبه على خطبتها .

على أية حال لم يكن فى الخطبة شىء يسبب الانزعاج ، بل على النقيض ، كانت — بعد زوال الدهشة المفاجئة — أبعث على الرضاء والغبطة .. فقد كانت الفتاة .. فيما أعتقد — فتاة طيبة الأصل والخلق ، وكان جدها الذى يقطن معه رجلاً طيباً موفوراً الثراء ، ذا مركز محترم ، إذ كان كما قلت مستشاراً سابقاً .

وأرسلت إليه أهنته وأعتب عليه مفاجاته لى وإتمامه الخطبة بهذه الطريقة الخاطفة التى لم تتح لى مشاركتى فرحته وقلت له إنى محتفظ بحقى فى الاحتفال بها عندما نلتقى .

ومرت بعد ذلك أيام أخرى شغلتنى عنه مشاغل الحياة ، حتى وصلتني منذ بضعة أيام برقية من خادمه يسألنى الحضور حالا .

وكان للبرقية وقع شديد الأثر على نفسى ، وذهبت بى الظنون أسوأ المذاهب ، وأوجست منها أشد المخاوف ، ولم أملك سوى الإسراع لأعرف جلية الأمر .

وبعد نصف ساعة كنت أجلس فى أول قطار يذهب إلى الإسكندرية . وكنت شارد الذهن خلال الطريق وأخذت أوطن النفس على قبول شر النتائج ، ولكنى لم أكد أصل إلى البيت وأقترّب من الحديقة حتى بلغت مسامعى أصوات موسيقى لا تخطيء مصدرها أذنائى .

لقد كانت موسيقاه ... هو .

وأحسست بالطمأنينة تعاودنى ، والسكينة تملأ نفسى .. وحثشت الخطأ متجها إلى الشرفة المطلّة على الحديقة والتى لم يكن بابها مغلقاً ، ودفعته فانفتح أمامى ، ووجدت إبراهيم جالسا أمام البيانو منهمكا فى العزف .

وأحسست من رؤيته سليما بفرحة لقاء الغائب الميثوس من لقائه .. فما شككت لحظة من البرقية التى وصلتني أنى فقدته أو أوشك أن أفقده .

والا .. فما الداعى لتلك البرقية المبكرة التي تدعونى إلى الحضور العاجل ؟

أجل .. لعنة الله على الطباخ الغبى .. ماذا اتراه يقصد بعمله هذا ؟
أى من دفعه إلى إهداء تلك البرقية المزعجة لى ؟
ووقفت خلف إبراهيم ووضعت يدى على كتفه محاولا مفاجأته .
وبدا لى أنه قد فوجئ فعلا ، بل كانت مفاجأته أشد كثيرا مما كنت أتوقع حتى أضحي الحال مفاجأة لى أنا .
لقد أحسست به ينتفض تحت يدى ، ثم يلتفت بحذر وخشية كأنه مجرم هارب وقع فجأة تحت قبضة مطارديه .

وأدهشنى نظرات عينيه عندما وقعت على . فقد كانت نظرات ذعر وخيفة .. لم يكن بها أقل ترحيب أو أبتهاج بل إدراك ومعرفة .
كان ينظر إلى من فوق كتفه نظرة شاردة ذاهلة وجلة خائفة . وما لبث أن انتفض كعصفور بلله القطر ، وأخذ يتسلل من تحت يدى مغادرا مقعده أمام البياتو وهو ينظر إلى نفس النظر وقد أطبق بإحدى يديه على حقيبة صغيرة حتى اختفى فى الحجرة المقابلة .

ووقفت أرقبه وهو يحتفى عن ناظرى فاغرا فاه ، مشدوه النظرات ، معقود اللسان ، وأنا مطبق الشفتين .. لا أكاد أجسر على النطق .

لم أحاول تخيته أو الاستفسار عما به .. فقد كانت نظرته وفراره منى صدمة شديدة الوقع على .. ووقفت برهة حائرا أرقب الباب الذى اختفى وراءه .. محاولا أن أتمالك نفسى وأستعيد ثبات أعصابى .. وهممت باللاحاق به لكى أعرف منه حقيقة الأمر عندما بدا « الطباخ » على باب الممر المؤدى إلى المطبخ .

ولم يكد يصبرنى الرجل حتى اندفع إلى وفى وجهه ما يشبه البكاء والاستغاثة .. وتشبث بى تشبث غريق فى عجلة نجاة وهتف بى :

— الحقنا يا سيدى .

— ماذا حدث ؟

— سيدى إبراهيم .

— ما له ؟

— لا أعرف .. ولا هو يعرف .. ولا أحد يعرف أبدا .

— أخبرنى بالضبط عما حدث .

— لا شيء أبدا .. لقد كان سليما أربعة وعشرين قيراطا .. لم يشك من شيء مطلقا .. وفى صباح الأمس عاد من الخارج مطبقا على الحقيبة التى رأيته يطبق عليها ، وقد بدت عليه حالة الذهول والشروء .. وهو لا يميز أحدا .. ولا يرى أحدا ولا يفعل إلا الصمت والحملقة والشروء .. وبين آونة وأخرى تصيبه نوبات تجعله فى أزمة شديدة يبدو عليه خلالها الألم والإجهاذ .. وقد ظننت بما به عارضا طارئا نتيجة إجهاد وحاولت أن أهده وأريحه ، وأروح عنه بالمزاح كما تعودت أن أفعل ، ولكنه لم يلتفت إلى ولم يسمعى .. بل كان ينظر إلى كأنه لا يرانى .. وخشيت أن يكون قد أصيب بالجنون ، ولم أدر ماذا أفعل .. وأخيرا لم أربدا من الاستغاثة بك .. فأنا أعلم حبك له ، ومعزته فى نفسك ، أرجوك يا سيدى أن تنقذه مما به .. إنها « عين أصابته » ! .

وهكذا ظل الرجل يكرر أنها عين أصابته .. وعبثا حاولت أن أعرف منه أكثر من ذلك ، وعبثا أيضا حاولت أن أعرف من إبراهيم شيئا ، فما رأيته منه أكثر مما رأيته منه أول ما أبصرته ، ولا عرفت منه أكثر مما عرفت من خادمه .. شروء وذهول وأزمة عصبية تصيبه بين آونة وأخرى تجعله يذهب بعيدا فى أغوار سحابة ويبدو كأنه يفاوم ويقاوم حتى يصيبه الكلال .. وخلال كل ذلك .. لا تخف وطأة يده على الحقيبة قيد أنملة .. بل هو يقبض عليها كأن بها روحه .

الفصل الثالث

جمرة فى الماء

وصمت زكى ، وطرق توفيق برأسه وأخذ ينقر بقلم فى يده نقرات منتظمة على زجاج المكتب .. وطال الصمت وبدا كأن كلا منهما ينتظر أن يبدأ صاحبه الحديث ، وأخيرا تحدث توفيق قائلا :

— وبعد ؟

— هذا كل ما فى الأمر .. وكل ما وسعنى أن أفعله بعد أن يمست من إدراك علته وفهم ما به ، هو أن آتى به إليك .. ولقد قصصت كل ما يعيه ذهنى عنه لأنى واثق أنك لن تستطيع أن تعرف منه أو من سواه أكثر مما قلت لك .

— لقد قلت الكثير ... إنى لأكاد أعرفه الآن معرفتك له .. ولكن أخشى أن تكون قد تركته ينتظر طويلا .. كان يجب علينا أن نرجئ شرحك إلى فرصة أخرى ... حتى لا تدعه يضيق بوحده .

— لا عليك .. ليس أحب إليه من الوحدة .. إنه لا يكاد يشعر بما حوله ... بل إنه فى وحدته أكثر أمنا وطمأنينة .. ما دامت الحقيقة مستقرة تحت إبطه أو فى يده .

— عجيب أمر هذه الحقيقة .. أليست هناك أقل فكرة عما بها ؟

— أبدا .

— ولا الخادم ؟

- ولا الخادم ... وأرجو إلا تحاول أنت مجرد مسها أو إعارتها أدنى اهتمام . لا تلق إليها بالا قط .. فهي أكثر ما به حساسية .. تجاهلها تماما كأنك لا تراها .

- مفهوم ... مفهوم ... دعه يدخل ... فليس من الحكمة أو الذوق أن نطيل انتظاره أكثر من هذا ، دعه يتفضل .

وكان إبراهيم مستندا بظهره إلى المقعد ... وقد مد ساقيه وأخذ ينعم بشيء من الاسترخاء المريح ... كان يحس بفرط حاجته إليه عقب تلك الأشواط المتلاحقة من العدو بين الرمال الثقيلة والأمواج المتلاطمة ... والهروب واللاحاق والإغاثة والصراع .

لقد أحب جلسته تلك ... بخضرتها المتزامية وفخيلها المتناثر ، وأشجارها المتكاثفة ، وأبنيتها الشاخنة ، ومائها المنبسط العريض ... وزرقة سمائها المشوبة ينتف من السحب البيضاء المتلاحقة ... وترك عينيه الشاردتين تستقران فى هدوء على حافة الأفق بين أطراف النخيل ومداخل الدور ، وأرغى أعصابه المكدودة المتوترة ... وبسط أعضائه المنهكة المشدودة ... عدا ذراعا تركه يشد الحقيبة كأنه عين الثعلب الساهرة .

وانطلقت من صدره زفرة ... أعلن بها رضائه النسبى عن جلسته تلك ... وأبدى بها أطمئنانه إلى راحته .

ونعم براحته فزة ... ليس يدرى أقصرت أم طالت ... عندما أحس بكف توضع برفق على كتفه ... فكانت بمثابة الإنذار بانتهاء حالة الاسترخاء ... فتوترت الأعصاب ، وشدت العضلات ... وزاد ذراع الحقيبة إطباقا عليها ، ورفع بصره إلى صاحب الكف المنذرة فأبصر وجه صاحبه .

— ٤٦ —

أين كان ؟ ... لقد كاد ينساه . بل لقد نسي أنه هو الذى أتى إلى هنا . هنا ١١٩ ما هنا ؟

أف لهذه الذاكرة المعتمدة التى لا يبصر من خلالها قيد شعرة ؟
 أيسأل ؟ . لا . لا داعى أبدا . ليس هناك خير من الصمت
 والانتظار .. لابد أن صاحبه سيقول شيئا ، يعلم منه شيئا ... بمنحه
 بصيصا من ضوء يكشف له هذه الظلمات المتكاثفة .
 وتحدث صاحبه فعلا ... ولكن ليس كثيرا ... لقد قال :
 — هيا ! .

هيا ... هيا ! ليس عليه سوى الاستجابة .
 ونهض فى صمت يتبع صاحبه ، ولم يطل بهما السير كثيرا .
 بضع خطوات فقط ثم عبر بابا أدى إلى حجرة صغيرة أسدلت على
 نوافذها الستائر واستبدل فيها نور النهار بمصباح كهربائى هادئ الضوء
 وضع فى ركن الحجرة .

وبنظرة سريعة عابرة حذرة استطاع أن يلم بمحتويات الغرفة .
 لم يكن بها شئ غير عادى .. بضعة مقاعد جلدية وبضع صور زيتية
 صغيرة معلقة على الحائط بها أشجار وبحر وسماء وأشياء أخرى من التى
 ترسم دائما فى هذه الصور الزيتية ، ودولاب وضعت به بضعة كتب ضخمة
 ومنضدة رصت الأزهار فى إناء فوقها ، وأريكة أو فراش لا يدرى .

هذا ما قد وقع عليه بصره عند أول خطوة خطاها فى داخل الحجرة ،
 ولكنه لم يكذب يخطو خطوة أخرى حتى لمح على يساره مكتبا نهض من
 وراءه رجل دقيق التقاطيع أميل إلى القصر والنحافة ، وقد وضع على
 عينيه منظارا ، وارتسمت على وجهه ابتسامة رقيقة ، ومد يده وهو
 يقول مرحبا :

— أهلا ... أهلا ... تفضل يا أستاذ .

وأخذ فى أول وهلة بمراى الرجل . فتوقف وشد ذراعه فوق الحقيبة ، ولكن سيماء الرجل مطمئنة وابتسامته العذبة الرقيقة... بددت حذره وأضاعت مخاوفه ، وجعلته يشعر أنه ليس هناك ما يوجب الخشية ويدعو إلى الحذر .

ومد يده فشدها على اليد الممدودة فوق المكتب ، وعاد الرجل الرقيق الخاشية يرحب به :

— أهلا ... وسهلا ... تفضل يا أستاذ إبراهيم .

إذا فهو يعرفه ... ويعرف أن اسمه إبراهيم ... ولكن هل هو حقا إبراهيم ؟ طبعاً ... لابد أن يكون كذلك ، وإلا لما دعاه الرجل كذلك !

إبراهيم .. أم غير إبراهيم !! ليس عليه إلا أن يكون كذلك ... وليس أمامه إلا أن يجلس على هذا المقعد المريح الذى يعرضه عليه الرجل . وهبط إلى المقعد الجلدى الكبير وقد رسم على شفوية ابتسامة يرد بها على ابتسامة الرجل الرقيق ... وأمامه جلس صاحبه . واستمر الرجل فى حديثه .

— فرصة سعيدة جدا يا أستاذ إبراهيم .. لقد كنت أتوق إلى لقائك من قبل ... حتى أعير لك عن أعجائى المتناهى بألحانك الرائعة . أنا أحب الموسيقى من صغرى ... ولى أذن موسيقية حساسة صادقة الحكم أستطيع بها أن أميز اللحن الطيب الأصيل من اللحن الزائف الردىء . ولقد أحسست وأنا أسمع لك أول ألحانك ... وأظن ذلك منذ خمس سنوات ... أنك فنان موهوب عبقرى ... وأنه سيكون لك شأن كبير فى عالم الموسيقى ... ولقد تتبعت ألحانك دائما ، وكنت فى كل مرة أود أن أنقل لك رأيى ... ولكن الظروف لم تتح لى الفرصة ، وأظنك تستطيع أن تقدر بعد كل هذا مدى السعادة التى أشعر بها وأنا ألقاك أخيرا .

كل هذا له هو ؟ لقد ارتاح للرجل من أول نظرة .. ولكنه لم يتوقع قط أن يكون له في نفسه مثل هذا القدر ... والرجل يبدو في قوله مخلصا غير منافق .

ولم يعرف بماذا يجيب لقد تملكه ارتباك واضطراب مشوب بالرضاء والغبطة . ولم يملك ردا على ذلك سوى أن يطاطى رأسه ويتمتم كلاما غير مفهوم لأحد ... ولا له هو نفسه .
ولم يكد ينتهى من هذه التمتمة غير المفهومة حتى وجد صاحبه ينهض قائلا :

— عن إذنكم دقيقة واحدة .

ثم يتحرك مغادرا الغرفة .

وأحس بشيء من الخوف وهو يجد صاحبه قد خلفه وحده مع الرجل الغريب ، وهم بالنهوض وراءه ، ولكن ابتسامة رقيقة من الرجل ألزمته مقعده ، ولم يملك سوى أن يمنحه ابتسامة مشابهة ردا له على ابتسامته .

ووضع الرجل يده على جرس أمامه بالمكتب وهو يقول :

— أظن ليس هناك ما يمنع من مشاركتى فى فنجان من القهوة ؟!

ودخل رجل يرتدى « مريلة » بيضاء ، ولم يجب هو بشيء ... أو لم يحس فى نفسه الرغبة أو القدرة على المعارضة فى شيء .. إن خير ما يفعل هو الموافقة والاستسلام .

وأمر الرجل بالقهوة ، وانطلق الآخر ليحضرها . ثم عرض عليه علبة سجائر فhez رأسه رافضا .. وبعد أن أشعل سيجارة لنفسه عاود حديثه :

— كان يجب أن نلتقى قبل الآن ... إني أعشق الموسيقى . أحس أنها

جزء من غذاء الإنسان كالماء والهواء ... أليس كذلك ؟

هذا كلام طيب ... إنه هو أيضا يعتقد ذلك . ولكن ليس به رغبة كبيرة فى الحديث ... إن عقدة لسانه لم تفك بعد .

— ٤٩ —

ولم يملك سوى أن أشار برأسه موافقة منه على السؤال .
واستمر الرجل فى حديثه دون أن يثقل عليه بطلب الإجابة :
— كنت أمس الأول فى الأوبرا .. أشاهد الفرقة الإيطالية التى تعمل
بها.. سمعت بضع قطع رائعة .. ألم تسمعها ؟
هذه لم يذكر أنه سمعها ، ولا سمع غيرها ، وبهزة من رأسه يمنة ويسرة
أجاب عن السؤال .

وعاود الرجل الحديث :
— يجب أن تسمعها ، ستعجبك جدا ... وشيء آخر أنصحبك أن
تشاهده ... « فيلم » عن حياة شوبان يعرض الآن فى سينيما ...
سينيما ... لست أذكر الآن .
وهو أيضا لا يذكر ، ولكن الفارق بينهما أن الرجل لا يذكر السينيما
فقط .. أما هو فلا يذكر شيئا أبدا .
وتجاوز الرجل عن السينيما التى لا تذكر ، كما يتجاوز هو عن كل
شيء لا يذكره ... وعاود الحديث :

— كنت بالأمس أسمع الإذاعة فسمعت مصادفة إحدى السمفونيات
لبيتهوفن وعلمت أنهم يذيعون سمفونية لأعلام الموسيقى يوم الأربعاء من
كل أسبوع فصصمت ألا تفوتنى بعد ذلك . ولم تكذب تنتهى السمفونية
حتى تبعها دور من موسيقانا الشرقية القديمة لزكى مراد هو « يا للى
جرحت القلب داويه » ... وأؤكد لك أنه أطربنى جدا ... إننى أحب
كل أنواع الموسيقى ... ما دام اللحن جيدا ... وإن مقياس جودة اللحن
هو الأثر الذى يتركه فى النفس ... وهو نفس مقياس جودة أى عمل
فنى .. ولذلك فإننى لا أجد هناك معنى لتقديم العمل الفنى لنفس لا
تملك وعيا فنيا ... ولذلك يجب تنمية الوعى الفنى فى النفوس حتى يجد
العمل الفنى التربة الخصبة التى ينتج فيها ثمرته .. ويبدو لى أن خير ما
فعلت أنت هو تنمية هذا الوعى ... إننى لا أعتبرك مجرد موسيقى ، بل

أعتبرك صاحب الرسالة ... لقد غرست فى نفوس العامة القدرة على استساغة نوع من الموسيقى العالمية كانت تنفر منه لأنها لا تدرك قيمته ... لأن وعيها الفنى كان محدودا ... وإدراكها كان لا يتعدى الموسيقى المتكررة المعادة ذات الليالى والآهات .. وهو شئ قد يكون له قيمته الفنية كلون من ألوان الموسيقى ووجه من وجوهها ولكنه ليس كل شئ ... ومن الخطأ أن يقصر إدراكها الفنى إلا عن فهم واستساغة هذا اللون بالذات ... ويبدو لى أنك قد أدركت هذا النقص وبدأت تعمل على علاجه .. فعندما أتبع موسيقاك أستطيع أن أجد بها نوعا من تربية الرعى الفنى لعامتنا ، وأجد انتقالا تدريجيا بموسيقانا من المحيط الشرقى الضيق إلى الأفق العالمى المتسع .

عجيب هذا الكلام !

وأحس إبراهيم بأنه ينصب إلى الرجل فى لطفة .. ويتبع حديثه تتبع المشوق المدرك الواعى ... الصافى الذهن ، السريع الفهم ، الحاضر الذاكرة .

هذا الكلام قد بدد الكثير من السحب التى كانت تحيط به وأذهب الكثير من الخوف والحذر مما حوله .

وبدأت أعصابه المشدودة ... تهدأ وتسترخى وابتسم للرجل وهو يحس بوئاق من الصداقة والثقة يقرب بين أحدهما والآخر .

وابتسم الرجل وهو يتم حديثه فى لهجة تشعر السامع بصدق صاحبها :

— كان آخر ما سمعت لك ، هو لحنك « ساعة غروب » ولقد ترك بنفسى أثرا عجيبا ... عجيبا جدا ... لا أظن لحننا ترك بها نفس الأثر .. كان له شئ يجعلنى أميل إلى ذرف الدمع ... لست أدرى لم ولا علام ! ولكنى كنت أحس وأنا أسمع كأن شيئا عزيزا يتسرب من يدى ولا أملك حفظه أو منع تسربه ... كنت أحس كأن شيئا مضيئا فى حياتنا

تهب عليه وعلينا ريح تورشك أن تخمد ذبالته وشغن لا نستطيع لها صدا ..
كنت أحس .. بحياة تتزعزع وروحا تخمد ... كنت أكاد أبصر أمامي
الشمس الغاربة .

وهنا تحدث إبراهيم ... لأول مرة .. بلا جهد ... ولا مشقة ولا
تكلف ... وانفرجت أساريه وانبسطت عقدة لسانه ... وأحس كأنما
قد خلف وراءه أكواما من القيود والأنقال والسحب والأكام والرمال
والأمواج ، وأنه بات وحده حرا طليقا .. قال ببساطة وحرارة :

- أنا أيضا كنت أحس ساعة وضعه بنفس إحساسك ، وليس أحب
إلى نفسي من أن أعرف أنه استطاع أن ينقل إليك مشاعري نقلا صادقا
خالصا ... لقد صدر اللحن من قلبي ، فليس عجيبا أن يستقر في قلبك ،
وإذا كنت قد أبصرت من خلال أنغامه شمسا غاربة .. فأنا أيضا قد
وضعت وأمامي الشمس تهبط وراء الأفق .. كان الوقت ساعة غروب ...
والشمس قد صبغت البحر بلون الدماء ... وأخذ قرصها الأحمر
يتوارى وراء الأفق كأنه جهرة تنطفئ في الماء مخلفة وراءها رمادا من
السحب .

أجل .. أجل . إنه يذكر المنظر جيدا .. يذكره بكل تفاصيله ودقائقه
بغير غموض ولا إبهام ... وبغير تلك السحب المعتمة التي تعود أن يراها
تتكاثف في ذاكرته وتلفها في ظلمة غاشية تخجب كل ما بها .

وسادت فترة صمت استعاد خلالها تلك الفترة إلى ذاكرته ، وقد
أطرق برأسه وأطلق من صدره زفرة هادئة مريحة .

وأخذ الدكتور يلقي عليه نظرة فاحصة وبوده لو يستشف ما في
ذهنه ، وانتظر أن يعاود الحديث ليلقي بكلماته بعض الضوء على المتأهة
التي يضرب فيها .

وطال الصمت ، واضطر توفيق أن يقول شيئا يخرج به من تخيلات
فسأله في رقة :

- ٥٢ -

- لا بد أن المنظر أرهف مشاعرك ؟

ورفع إبراهيم رأسه وأحاب فى يسر :

- جدا ... لقد كان منظرا عجيبا .

. - أتذكر أين ؟

- فى الشاطئ .. على صخرة نائية فى سيدى بشر ... كنت أجلس

وحيدا فى المرة الأولى .

- والمرة الثانية ؟

- الثانية !!

ولم يدم صمته أكثر من ثوان ، ثم انطلق فى الحديث كأنما يناجى

نفسه :

- كانت معى ، كنا نجلس متجاورين على صخرة متسabee ، والمنظر الرائع قد امتد أمامنا ، والنسيم قد رق ، والموج قد انبسط ، والجمرة القانية تنزلق فى الماء ، وهى قد استندت برأسها إلى كتفى ، وهمست فى أذنى : « وددت لو أسمعتنى شيئا » ، وكنت أحمل فى جيبى نايبا صغيرا ، وجذبتة ببطء من جيبى ، ثم أخذت أنشد لها « ساعة غروب » ، وعندما انتهيت ، التفت إليها فإذا بالدموع تنساب من مآقيها ، وإذا بها تخفى وجهها فى صدرى ، وكأنما العبرات تنساب فى همساتها : « أخشى أن أفقدك ، كنت أحس وأنا أسمعك أنك تذهب بعيدا ، بعيدا وأنى أناديك فلا تجيبينى إلا صدى صرخاتى تردد بين الصخور » ، وضحكت وقلت لها : « لا تخشى شيئا ، أنه تأثير اللحن الذى وضعته فى ساعة يأس ووحدة ، ولو كنت معى وقتذاك لكان شيئا آخر ، ولسميته ساعة شروق ، لشمس لا مغرب لها ، شمس باقية إلى الأبد ، كما سأتبقى إلى جوارك » وأفعمها حديثى بالأمل ، فغاضت عبرتها وفاضت بسماتها ، ولقد كنت فى حديثى ساعتذاك مخلصا لها

— ٥٣ —

مؤمنا بحبها ، ولم أكن أظن أنى سأقضى عنها قط ، كنت واثقا أن شمس
حبنا ، لا مغرب لها ، ولكن يبدو لى أن كل شمس مآلها إلى الغروب .
ومرة أخرى عاود صمته ، وخشى توفيق أن يُنمَح بعيدا ولم يجد بدا
من أن يجذب عنانه بكلمتين ليعيده إلى الطريق فقال :

— وكل غروب مآله إلى شروق جديد .

— إلا هذا ، فهو غروب بلا شروق .

— أى شىء يدعوك إلى هذا اليأس ؟ ما من ظلمة يأس إلا وراءها
بارقة أمل .

— لقد أطفأت ييدى كل البوارق ، لقد انتهى كل شىء ، لا فائدة
هناك .

أجل ، لا فائدة ، إنه يذكر الآن أنه قطع كل حبال الرجاء ، يذكر
ساعة أن ذهب إليها وأنبأها أن كل شىء بينهما قد انتهى .

وعاد يردد :

— أجل ... لقد قطعت ييدى كل علاقة بيننا .

وأحس توفيق أنه قد وضع يده على شىء ، وأنه قد أمسك بطرف
الخيوط ، وتركه برهة ليتمالك أنفاسه ، ثم عاد يستحثه :

— كيف قطعتها ؟ ماذا حدث بينكما ؟ لقد خيل إلى من حديثك
أنكما كنتما خطيبين سعيدين ؟

— أجل كنا كذلك ، ولكن ...

وفجأة فتح الباب وأطل الخادم برأسه حاملا بين يديه فنجانى
القهوة .

وفوجئ إبراهيم بدفعة الباب وراءه فتوترت أعصابه وشدت عضلاته
وأطبق بذراعه على الحقيبة ، وتلاحقت أنفاسه وهو ينظر بخذر إلى القادم
خلفه . .

ماذا يريد ؟ لماذا استدرجوه إلى هنا ؟ ومن هذا الجالس أمامه ذو العوينات ، ما له يخلق به هكذا ؟ وتدفقت السحب فى ذهنه ، وبدأت المطاردة ، وبدأ العدو فى الرمال ، وضل الذهن وضاعت الذاكرة ، وأخذ العرق يتصبب من جبينه .

وأدرك توفيق أن طرف الخيط قد ضاع مرة أخرى ، واعتصر جبينه بيده ثم نظر إلى الخادم فى يأس وقال :

— إنها غلطتى أنا ، كان يجب أن أذكر مسألة القهوة هذه .. على أية حال .. اذهب الآن وادع الدكتور زكى .

وبعد لحظة عاد زكى فأشار إليه توفيق بالجلوس ، فأخذ جلسة على المقعد الجلدى الآخر .

ثم حول بصره إلى إبراهيم وسأل :

— ماذا به ؟

وأجاب توفيق بهدوء وقد ثمالك نفسه :

— لا شيء ... أصابته النوبة التى حدثتني عنها .

— ولكن ... هل عرفت منه شيئا ؟

— بعض الشيء ... لقد جلوت عن ذهنه بعض صدمه . وانطلق يتحدث بطلاقة واطمئنان ، حتى دخل ذلك الأحقق يحمل القهوة .

— خسارة ... ولكن لم لا تحاول مرة أخرى ؟

— لا أظن هناك فائدة ... يجب عليه أن يستريح الآن . على أية حال

لقد عرفت شيئا هاما ، أعتقد أنه يضع لنا أساسا لحالته تلك ، وبمحننا سببا طبيعيا لما أصابه .

— ما هو ؟

ونظر توفيق إلى إبراهيم فإذا به مازال بعيدا ، وقد بدا عليه الإرهاق والتوتر ، ثم حول بصره إلى زكى قائلا :

- ٥٥ -

- لقد فك خطبته ، لقد أنهى هوكل شيء على حد قوله . إن المسألة صدمة عاطفية أعقبها انهيار فى الأعصاب .

- ولكن ما السبب ؟

- السبب أنه لا شك مخبئ فى ذهنه الشارد وذاكرته المعتمدة ، إنه أمامك ، اثبت عنه إذا شئت .

- ولكن ، ألا يمكنك معرفته ؟

- بل يجب علينا معرفته ، وبغير معرفته لن نستطيع علاجه ، لابد من جلسة أخرى وثالثة ورابعة ، حتى نحلو خبيثة نفسه ... المسألة تحتاج إلى وقت .. هذه ليست عملية جراحية يا أستاذ زكى .

- أجل أجل ! ولكن مع ذلك أخشى ألا تستطيع .. أخشى أن تزداد حالته سوءا .

- اطمئن ، لا أظن هناك ما يدعو لمخاوفك ، ثم إنه ليس أمامنا سوى ذلك ، إن حالته تختم عدم إرهاقه .

وأطرق زكى برهة ثم رفع رأسه فجأة قائلا :

- ألا تظن أن خطيبته تستطيع معاونتنا فى شيء ؟

- يتوقف ذلك على رغبتها فى المعاونة ، وعلى نوع مشاعرها نحوه الآن ، وعلى طبيعة ما حدث بينهما ، وعلى أية حال لست أرى ضررا من سماعها على حدة إذا استطعت إحضارها .

- سأحاول ، سأبذل كل جهدى ، وأعتقد أنها لن تغيب رجاءنا ، فمهما يكن قد أساء إليها فلا أظنها ترفض معاونتنا فى شفائه ، إنها مسألة إنسانية ، إنها ...

ولم يتم حديثه فقد قطعه زفرة من إبراهيم أحس فيها كأنه ينفذ عبئا يثمن على صدره ، والتفت الاثنان إليه فإذا به قد غاد من رحلته الشاقة المضنية ، ومد زكى يده فربت بها ذراعه وقال مخاطبا توفيق :

- أظننا نستطيع الانصراف الآن ، لقد أضعنا الكثير من وقتك .

- ٥٦ -

— أبدا ، لقد أُنحت لى فرصة كنت أحلم بها ، وما أعظم سرورى لو
استطعت أن أقضى مع الأستاذ وقتنا أطول .

ونهض زكى وهو يقول :

— إن شاء الله نكرر الزيارة ... إن إبراهيم لا شك سعيد بمعرفتك .
ولم يكن يبدو على إبراهيم شىء من السعادة ... كان منهما
مكدودا عقب المطاردة والصراع الذى انتهى منهما . ونظر إلى الاثنين
فى حيرة .. ولم يملك سوى النهوض والشد على اليد التى امتدت
لمصافحته والتمتمة بالكلمات غير المفهومة التى تعود أن ينقذ بها نفسه
كلما أصابه حرج ، وكلما أعياه الفهم .

وقال زكى وهو يحيى الرجل الآخر :

— سأصل بك تليفونيا لأنبئك بالنتيجة ... السلام عليكم .
ودلف الاثنان من الباب ... وبعد لحظة كانت إحدى عربات الأجرة
تعود بهما إلى مسكن إبراهيم فى الحقائق .
كان إبراهيم مازال مطبقا على الحقيبة وصور الطريق تتتابع على بصره
من وراء نافذة العربة .

وكان زكى قد استغرق بدوره فى التفكير ... لقد بدا له إحضار
الخطيبة مسألة هينة فى مبدأ الامر ... كأنما لم يكن عليه إلا أن يشير
إليها بالحضور فتدفع إليه .. ولكنه عندما استغرق فى التفكير وقلب
الأمر على وجوه وجد أن المسألة متعذرة إن لم تكن مستحيلة .

إنه لا يعرفها ولا تشرف بمعرفة جدها .. ومن العسير عليه أن يذهب
لدعوة فتاة لم يسبق له معرفتها للحضور إلى طبيب لكى تعترف له بما لا
يمكن أن يسمى بأقل من مأساة حب هى أحد طرفيها .

أنها قطعا غير ملزمة بذلك .. ثم من يدري أنها ليست فى مثل حاله
من الضيق واليأس ... أو من يدري أنها ليست غاضبة لا تطيق ذكر
اسمه .. إن الأسوأ لا بد أن يكون فى الانتظار ... فالقطيعة واقعة ...

وهى لا بد أن تكون ناجحة عن خطأ من أحد الطرفين : إما هو وإما هى .
فإذا كانت هى فمعنى ذلك أنها لا تريده مع سبق الإصرار ... وإذا كان
هو فقد أصابها بصدمة جعلته يفقد الكثير من موقعه فى نفسها .

وهكذا ظلت الافتراضات تلف فى رأسه وتدور ... حتى جعلته يندم
على هذا العرض ويتهم نفسه بالسخف لمجرد التفكير فيه ... ويقدر سعة
صدر الدكتور توفيق لأنه تقبله منه دون أن يسفه آراءه .

على أية حال .. المسألة « ملحوظة » إنه لم يتورط فى شيء بعد ...
ليس عليه سوى الانتظار حتى الغد ، ثم يدق التليفون لتوفيق لينبئه أنه لم
يستطع إحضارها ... هذا كل ما فى الأمر .

ولكن لم لا يحاول ؟ .. ماذا يخشى ؟ ... هبها صدته .. هبها ثارت
وغضبت .. أى ضرر فى ذلك ؟! إن النتيجة لن تسوء فى حالة الرفض
أكثر مما هو كائن ... وإذا قبلت وإذا ذهبت ... وقالت شيئاً ... فربما
يكون ذا فائدة .. مهما ضللت فهى خير من لا شيء .

ووقفت العربة أمام باب البيت وهبط الاثنان ، وتقدم إبراهيم بسهولة
واطمئنان .. أن المكان محبوب إلى نفسه ليس عليه منه خوف ولا حرج .
وكان مدبولى فى الانتظار فقد تركهما فى الحطة واتجه لإعداد البيت
وكانت على سيمائه الطيبة علائم التساؤل واللهفة وتقدم يقود سيده إلى
حجرته .. ثم تركه وأقبل على زكى متسائلاً :

- خير يا سيدى ؟

- خير يا مدبولى ... لقد استطاع الدكتور أن يحدّثه .

- الحمد لله ... وماذا قال له ؟

- قال أنه فك الخطبة ، وأنهى كل شيء .

- لا حول ولا قوة إلا بالله . إذا فهذا هو السبب .. كان يجب أن
أخبره ... ولكن لم يخطر ببالى مطلقاً أنه يمكن أن يفك الخطبة ...

- ٥٨ -

اللّٰه يسامحك يا ست راجية... اللّٰه يسامحك ... ولكن فك الخطبة يحدث .
كل هذا ؟

- لا بد أن تكون قد حدثت أشياء قبل فك الخطبة ... مشاكل أدت
إليه .

- عجيبة !!؟

- أى شىء عجيب فى ذلك !؟

- المسألة كلها عجيبة ... أنا أعرف أنه يحب الست راجية وأعرف
أنها تحبه .. وأنها ليست من صاحبات المشاكل ... إنها طيبة جدا ...
وتحبه جدا .

- متأكد ؟

- متأكد فقط .. أستطيع أن أقسم على هذه النعمة ، (ورفع رغيفا
إلى جبينه) .

ولكن زكى قاطعة :

- لا داعى للقسمة ... على أية حال هذا شىء فى مصلحتنا .. هذا
يسهل المسألة كثيرا .

- أى مسألة ؟

ولم يجب زكى .. بل أخذ يحدق فى مذبولى وقد شرد ذهنه .
أجل !! لماذا لا يستعين بمذبولى !؟ أنه يبدو من حديثه أنه على معرفة
بها ، وهو لا شك قد رآها وحدثها كثيرا ... وهو رجل طيب محبوب ...
وستقبل ... « راجية » رجاءه قبولاً حسناً .

ولكن هل يستطيع إفهامها ؟ ... إنه على شىء من الغباوة .. ولكن
لو ألح زكى فى إفهامه فلا شك أنه سيفهم وسيحاول إفهامها .

ثم .. ليس هناك سواء .. إنه الوسيلة الوحيدة .. ولا بد من تجربتها .

- اسمع .. يا ..

- خادملك .

— ٥٩ —

— يا مدبولى .. هناك مسألة هامة .. يتوقف عليها شفاء سيدك إلى حد كبير .. وأعتقد أنك خير من يستطيع أداؤها .

— أنا ؟

— أجل أنت .

— أنا يا سيدى لا أفهم كثيرا فى الطب .. إن والدتى كانت « داية » .. وأبى كان « حلاق صحة » .. ولكن أؤكد لك أنهما لم يورثانى — عليهما رحمة الله — أى شىء من معلوماتهما الطبية .

— لسنا نريد منك خدمة طبية .. كل ما نريده منك هو أن تقنع « راجية » بالحضور إلى الطبيب للتحدث معه .

— أنا ؟ .. أحضر راجية ؟ .. لا .. لا .. بعد ما حدث لا أجرؤ على الدخول .

— ما هذا الصياح ؟ .. أجنون أنت ؟ .. أهذا هو الإخلاص لسيدك ؟ .. أتخاف من فتاة ؟

— أنا لا أخاف منها .. إذا كان عليها هى فلانى على استعداد لكى أطير إليها حالا .. إنها طيبة جدا ، كالسكرة .

— إذا ممن تخاف ؟

— جدتها — يا سيدى — أعوذ بالله .

— ماذا سيفعل بك ؟

— لو ذهبت قبل الغداء .. قد يأكلنى .

— إلى هذا الحد ؟

— وأكثر .

— إذا اذهب إليها بعد الغداء .

— اسمع يا سيدى ... ليس هذا وقت مزاح .

— أنا لا أمزح .. لا بد لك أن تذهب .. إن المسألة حقيقة ذات فائدة

كبيرة فى علاج سيدك .

- ٦٠ -

- إذا أذهب والأمر لله ... ولكنى سأبلغ الأمر أولا إلى « سيدة » .

- سيدة ؟ ... من تكون سيدة ؟

- خادمة راجية .

- لا .. لا .. يا مدبول أريد أن تبلغها شخصيا .. أريد منك أن

تحاول التأثير عليها بنفسك .

- إنى أستطيع التأثير على « سيدة » أكثر مما أؤثر عليها .. أن بيننا

علاقات طيبة .. وسيدة بدورها تستطيع التأثير على سيدتها أكثر مما يؤثر

عليها أى شخص آخر .. ثم هى تحب سيدى إبراهيم وهى ليست بمجرد

خادمة .. إنها فى حكم المربية .

- إذا كنت واثقا من هذا .. فافعله .. المهم هو أن تقنع راجية

بالحضور إلى الطبيب .. وعندما تصل إلى القاهرة دعها تحدثنى فى

التليفون حتى أصطحبها إلى هناك .

- إن شاء الله .. ربنا يسهل .

وهم مدبول بالانصراف ، ولكنه التفت فجأة وسأل متداركا :

- ولكن .. من سيمكث مع سيدى ؟

- سأمكث معه أنا .. وسأرسل فى أحضار خادمنى محمود حتى

تخضر .. لا تحمل له هما ... كل ما عليك هو أن تحقق مهمتك وتسرع

العودة .

- حاضر .. حالا .. حالا .. سأحاول أن ألحق بأول قطار .

الفصل الرابع

ما فى القلب باق

واندفع الرجل الطيب الأمين إلى مطبخه يهرول بجسده الممتلئ وبطنه البارز وأمسك بمعطف أبيض علق فوق مشجب فى المطبخ فلدس فيه جسده ثم قذف بالطربوش على رأسه ، وأخذ يتلفت حوله فى حيرة كأن هناك شيئا هاما يحاول تذكره .. وأخيرا اندفع إلى الباب ورفع يده إلى أعلى وجذب عصاه المعلقة خلفه وانطلق إلى الخارج .

وفى أول قطار إلى الإسكندرية ألقى الرجل نفسه فوق المقعد وتنفس الصعداء ، ولم يكد جسده يحس الراحة والاستقرار حتى انطلق ذهنه يفكر فيما هو مقدم عليه .

من كان يصدق أن سيده العاقل الرزين يحدث له هذا ؟ حقيقة إنه كان أحيانا يأتي بتصرفات لا تعجبه كثيرا .. وحقيقة أنه كان كثير الشرود والذهول .. دعوبا على الوحدة والتنتنة والدندنة .. ولكن هذا لم يكن قط ليودى به إلى ذلك المصير .

أكان يخطر له ببال أن إبراهيم .. الذى رباه كابنه .. بعد عشرة الأعوام الطوال .. لا يعرفه .. سبحانه الله !

وما سر هذه الحقيبة التى يحتضنها ليل نهار ١٩ لا بد أن بها شيئا هاما .. لو استطاع أن يعرف ما بها ١١ ولكنه لا يمكنه منها .. إنه يحتضنها ليل نهار .. حتى فى نومه لا يتركها لحظة .

ومسألة فك خطبته هذه .. عجيبة جدا .. إنها لا شك كانت مفاجأة .. فهو يعرف أن العلاقات كانت على أطيبها ويعتقد أن الزواج كان يوشك أن يتم قريبا .

ماذا حدث يا ترى ؟ هل فعلت راجية شيئا ؟ لا يظن مطلقا .. إنها فتاة طيبة كاملة .. ولكن من يدري .. « ياما تحت الساهى دواهى » ، وسبحان علام الغيوب .

ترى هل ستقبل المجيء إلى القاهرة ؟ . كيف ستلقاه بعدما حدث ١٩ وهل علمت ما حدث لإبراهيم ١٩

أجل . لا شك أن « سيدة » أنبأتها .. فقد استطاع هو أن يخبر « سيدة » بالنبا فى كلمات خاطفة قبل العودة إلى مصر ، ولكن لم تخبره « سيدة » عن نبا فك الخطبة .

ربما لم تكن لديها فرصة ، أو ربما لم تخبرها « راجية » . ولكن هل تخفى « راجية » عنها نبا كهذا ؟

هذه كلها أحاجى وألغاز .. أعيا ذهنه التفكير فيها والخبط فى معمياتها .

يجب أن يريح ذهنه ، بعد لحظات سيلتقى بسيدة ، وسيعرف منها الكثير .

وأغمض الرجل عينيه ، ولم يدر أنام أم لم ينام ، ولكنه فتح عينيه على حركة فى القطار وأبصر ملامح الإسكندرية تقترب فى بطء بمزارع الموز والبرج العالى فى يمينه والأبنية تزداد وضوحا فى خط الأفق .

وفى طريقه إلى السيوف ، كان يحس ، فوق كل مشاعر القلق والضيق والخوف التى تتنازع نفسه ، شعورا بالراحة قد يصل إلى حد النشوة .

عجبا !! لم كل هذا ؟ أمن أجل سيدة ؟ .
ولم لا ؟ إنها لطيفة طيبة ، بنت حلال ، وبها كل مايعجبه ، حقيقة أن بها شيئا من سلاطة اللسان ، وقلة الأدب ، ولكنها سلاطة بخنفة دم ، وقلة أدب بظرف ولطف ، أم ترى المسألة كلها لا تزيد على « عين الرضا » .

على أية حال ، هو يحبها ، ويظن أنها تحبه ، أو على الأقل تحب شتمه ومضايقته ، وهو نوع من الحب على أية حال .

ولكن ما هذا السخف الذى يشغل ذهنه به ؟ أهذا وقته ؟ فى مثل هذه المآزق والأزمات يفكر عجوز مثله فى هذا العبث ؟
إنه سيلقاها جادا عابسا .

ولكن أهى سترد له جده وعبوسه ؟ أم يستطيع هو أن يحتفظ أمامها بجده وعبوسه ، وهى المهزار الضاحكة حتى فى أشد أوقات الضيق والحرج ؟

على أية حال ، سيؤدى هو واجبه ، فيجد ويعبس ، وتفعل هى ما تشاء ، لا بد أن يلبس ثوب الوقار حتى تنتزعه هى عنه .
ووصل إلى البيت . وبدأت أولى المشاكل .

كيف يتصل بـ « سيدة » ؟
أن لدية الطريقة العادية التى يتصل بها دائما وهى قرع نافذة مطبخها بالحصى من نافذة مطبخه .

ولكن مثل هذه الطريقة كانت تستعمل فى أيام السراء عندما كان المزاح مستحبا واللهو مرغوبا .

أما الآن ، فالمسألة جد ، والوسيلة لا بد أن تكون جدا ، إذا يذهب إلى الباب ويدق الجرس ، ثم يقول إنه يريد أن يقابل سيدة .

وإذا أطل الجدد ؟

يا ساتر يا رب . فال الله ولا فالك يا مدبولي !

ماذا يقول له ؟ يقول إنه أتى لمقابلة سيدة ؟ لمه ؟ للمعاذلة ؟ أم لكى تقنع سيدتها بالحضور إلى القاهرة ؟

من أجل ماذا ؟ هل يعرف الجدد فك الخطبة ؟ وهل يعرف ما أصاب إبراهيم ؟

كل هذه مشكلات تواجهه إذا ما ذهب بالطريق الطبيعى ودق الجرس .

أما بالحصى ، وقرع النافذة ، فالطريق آمن .

وأمسك مدبولي بحصاه وقذف بها النافذة وهو يردد :

« لا تدخلوا البيوت من أبوابها ، إن نوافذها آمن كثيرا » .

ولم تمض لحظة حتى فتحت النافذة وأطلت سيدة ، ولم تكذ تراه حتى ضربت صدرها بيدها وباليده الأخرى أصلحت « أوية » المنديل الذى عصبت به رأسها .

— مدبولي « ينيلك » . متى حضرت ؟ ألم تسافر صباح اليوم ؟

ولم يكن مدبولي يعتبر لفظة « ينيلك » داخلة ضمن ألفاظ السباب فقد كانت تخرج من فم « سيدة » ببساطة التحية ، كأنها « سعيدة » أو « سلام عليكم » ولذلك فقد أجاب بتؤدة وأدب :

— سعيدة مباركة ؟ لقد أتيت حالا ، منذ دقيقة واحدة .

— ولم أتيت ؟ وكيف حال سيدى إبراهيم ؟

— أتيت من أجله ، إن حالته كما هى ، لقد عرف الدكتور منه أنه فك خطبته ، هل تصدقين ذلك ؟

وأطرقت « سيدة » برأسها ، ورأى مذبولى على سيمائها علامات
حزن شديد ، وأطلقت من صدرها تنهيدة حارة وأجأت :
— علمت منها ذلك الصباح .. عندما أنبأتها بسفركم المفاجئ وما
حل بسيدك ، وكانت على حال من الحزن واليأس مروعة . ولقد حاولت
عشنا أن أعرف ما بها ، فقد أغلقت عليها حجرتها ورفضت .. حتى أن
تجيبني أنا ، وعندما أنبأتها بما حدث اليوم ، كادت تجن ، وقالت لا بد
أن هناك سرا .

— معها حق ، أنا نفسى أوشك أن أجن ، ما السر ؟ ما السبب ؟
وكيف يحدث كل هذا فى هذه الفترة القصيرة ، يومين أو ثلاثة ؟ إنها
« عين أصابته » كما قلت ألف مرة ؟ أو من يدرى ؟ ربما يكون
سحرا ، أنا دهش ، أنا مذهول .

— ولكن ما الذى أتى بك الآن ؟
— إنى أتيت لأقابلك من أجله ، إنك تستطيعين أن تودى له خدمة
جلیلة .

— أنا ؟ كيف ؟

— اسمعى أولا . اهبطى إلى الحديقة ، واقتربى من السور ، فالحديث
العلنى من النوافذ غير مستحب فى مثل هذه الأمور ، وأخشى أن
يسمعنى سيدك الكبير أو سيدتك .

وهبط الاثنان واقتربا من ناحية منخفضة من السور الفاصل بين
الحديقتين وهمس مذبولى :

— أين سيدتك ؟

— فى الناحية الأخرى من الحديقة .

— اسمعى يا سيدة ، هل تستطيعين إقناعها بالذهاب إلى القاهرة .

— لمه ؟

— الدكتور يريد أن يتحدث إليها علنه يعرف شيئا عن سبب الحالة .

(فديتك يا لیلی)

- ٦٦ -

ووجعت « سيدة » برهة ، وقبل أن تحيب أجاب صوت راجية ، وقد ظهرت فى الحديقة من وراء إحدى الخمالل وبدت عليها دهشة شديدة :

- الله ! مدبولى !! ألم تسافروا ؟

- سافرنا فى الصباح وحضرت أنا الآن .

- لمه .

- والله ، يا سيدتى ، كنت أريد شيئا .

ثم صمت مترددا .

واقتربت « راجية » من السور ، وانتظرت أن يتم مدبولى حديثه ، فلما يتست قالت له فى شيء من نفاد الصبر والضيق :

- ماذا تريد ! انطق .

- أريد .. لقد قلت لسيدة . اسألها .

وفى شيء من التوسل اقتربت منها سيدة وقالت :

- كان يريد منك الذهاب إلى القاهرة لأن الدكتور الذى يعالج

سيدى إبراهيم يريد أن يقابلك .

- يقابلنى أنا ؟

وهز مدبولى رأسه بالإيجاب ، وعادت راجية تتساءل :

- ولكن لماذا ؟ ماذا أستطيع أن أفعل أنا ؟

- إنه يريد أن يتحدث معك ، وقد قال لصديقه الدكتور زكى إنك

تستطيعين أن تفعلنى شيئا كثيرا من أجله .

- أنا ؟

وصمتت ، وبدت عليها الحيرة والحزن واليأس ، وقالت سيدة فى

لهجة متوسلة :

- لماذا لا تذهبين يا سيدتى ؟

- بعد كل ما حدث ؟

- ٦٧ -

- أجل ، ألا يحدث أن يكون ما حدث نتيجة للأزمة التي يمر بها ؟
يجب أن تعاونيه يا سيدتي .

واستمر لإطراق راجية ثم همست أخيرا :

- وهبي أنى قبلت الذهاب .. كيف أقنع جدى بالسفر ؟

- جرى أن تقنعيه بأية وسيلة .

- لا أظن المسألة سهلة إلى هذا الحد .

- قولى له ...

ولم تتم « سيدة » قولها فقد انطلقت صيحة من داخل الدار تنادى
راجية ، وكانت صيحة الجد .

وأصاب الثلاثة الارتباك ، وهتفت سيدة :

- اصعدى إليه يا سيدتي ، وحاولى ، عسى أن يوفقك الله .

واختفى مدبولى .. واندفعت الاثنتان إلى الداخل .

وبعد لحظة كانت راجية تقف أمام جدها مطرقة ، ورفع الجد

عينيه عن رسالة أتم قراءتها ، ثم خلع نظاره وقال فى لهجة
مقتضبة :

- سنذهب باكر إلى القاهرة .

هكذا ، مرة واحدة ، القاهرة ، القاهرة .

ولم تصدق راجية أذنيها ، وهمت أن تقفز إليه لتعانقه ، ولكنها

تصنعت الشبات وقلة الاكثارات وتساءلت فى صوت خافت .

- لماذا ؟

- أختى « زينب » مريضة وقد أرسلت « رقية » ابنتها هذه الرسالة

اليوم .

ثم مد يده إليها بالرسالة ، وتناولتها راجية ومرت بعينيها على

سطورها مرا سريعا ، لم تستطع أن تميز سوى كلمات قلائل ، ثم

خفضت يدها بالرسالة ، ولم تحب ، وقال الجد :

— ٦٨ —

- سنأخذ « ذيزل » الظهر .
ودون أن تدري وجدت نفسها تتساءل :
— ولماذا لا نأخذ قطار الصباح ؟
— لدى موعد فى الإسكندرية لابد أن أنتهى منه .
— أمرك .
— على أية حال ، الظهر من الصباح قريب ، جهزى الحقائق
واعملى حسابك أننا سنمر على العزة فى عودتنا .
— حاضر .
وانتهى الحديث ، وعادت راجية إلى حجرتها لتجد سيدة فى
انتظارها وهى تسألها متلهفة :
— ماذا قلت له ؟
— لم أقل شيئا .
— كيف ؟
— لقد قال هو كل شىء .
— ألم تحاولى إقناعه ؟
— أقنعه بماذا ؟
— بالسفر .
— طبعا لم أحاول إقناعه .
— لماذا ؟
— لأنه هو الذى أقنعتنى بالسفر ، لقد أنبأنى من تلقاء نفسه
أننا سنذهب فى الغد إلى القاهرة لزيارة أخته زينب لأنها
مریضة .
وتنهدت سيدة ورفعت يديها إلى السماء وهتفت : « يا مديبر
الكون » ، وبعد لحظة كان الحصى يطرق نافذة مديولى ، وكانت سيدة
تهتف به :

— ٦٩ —

- انتهينا ، سنسافر ظهر الغد .
- هكذا بسرعة ؟ . من الذى أقنعه ؟
- أقنعه ربنا ، أصاب أخته بداء عجل بسفره ، وصدق من قال :
مصائب قوم ..
- بشرك الله بالخير ... هذا أحلى مرض سمعت عنه .
- ومتى ستسافر أنت ؟
- الليلة .
- ولم لا تبقى إلى الغد ؟
- خير البر عاجله ، ومن الأفضل أن أعود الليلة حتى أنبئ سيدى زكى بالأمر لكي يعمل ترتيبه مع الدكتور .
- وكيف تقابله سيدتى ؟
- سأعطيك رقم تليفونه فى البيت والعيادة ، ودعها تتصل به بمجرد وصولها .
- وأملأها أرقام التليفون ثم ودعها واحتفى .
- وعادت سيدة إلى راجية فوجدتها ساهمة شاردة ، وقد أسندت رأسها على كفها ، وربت كتفها قائلة فى خشية :
- مالك يا سيدتى راجية ؟! أعدل جدك عن السفر ؟
- لا .
- إذا فعلام الحزن ، ما دمنا سنسافر إلى مصر فى الغد ؟
- وأى فائدة فى السفر إلى مصر ؟
- ستلتقين بالدكتور وتعاونيه فى علاج إبراهيم .
- وهيبه شفى .. ماذا أرتجى منه وقد قطع كل شىء بيننا ؟
- لا تئسسى هكذا يا سيدتى ، عندما يفيق إلى نفسه لابد أن يعود كل شىء إلى ما كان عليه .
- لا أعتقد .

- ٧٠ -

- على أية حال ، لا أظنك تكرهين شفاءه .
- ولهذا سأذهب وسأفعل كل ما أستطيع .. إذا كان هو قد تخلى
عنى ، فلن أتخلى عنه .
- وإذا لم يتخلى عنه فلن يتخلى عنك الله . أن هناك ربا يا سيدتى ،
علمه فوق علمنا ، وتدبيره فوق تدبيرنا ، وإرادته فوق إرادتنا .. كل ما
علينا أن نفعل الخير ونمضى فى طريقنا .
- أجل .. صدقت يا سيدة .. نفعل الخير .. ونمضى فى الطريق ،
لكى يدمى الشوك أقدامنا .
ثم أطلقت تنهيدة يأس ومست بكفيها بشائر دمع توشك أن
تهطل .

وفى اليوم التالى دق التلفون فى عيادة الدكتور زكى قبيل الغروب ،
فرفع السماعة .. وهو يتمنى أن تكون هى المتحدثة ... ولم تنيب أمله
وحملت الأسلاك إلى أذنيه صوتها الرقيق تسأله :
- أستطيع أن أتحدث إلى الدكتور زكى ؟
- أنا الدكتور زكى .
- مساء الخير يا دكتور .. أنا راجية .
- أهلا وسهلا .. راجية هانم .. مساء الخير ، حمدا لله على السلامة ،
أنا متأسف جدا على ما قد أكون سببته لك من انزعاج ، ولكن
لم يدفعنى إلى ما فعلت إلا لثقتى بأنك سترحبين بمعاونتنا وأن أمر إبراهيم
يهمك كما يهمنا .
- بالطبع يا دكتور ، أنى سأفعل من أجله كل ما أستطيع .
- وهذا ما كنت أتوقع ... متى تستطيعين الذهاب إلى الدكتور
توفيق ؟

— ٧١ —

- وقتما تشاء .
- أيمن اليوم ! لقد أنباته عندما علمت أنك ستحضرين ، إننا قد نزوره اليوم أو غدا .
- أظن من الخير أن نوجهها إلى الغد .
- كما تشائين ، لا تضايقي نفسك .. كان يجب أن أعرف أنك مازلت متعبة من السفر .
- ليست مسألة تعب ... ولكنى لا أجد من اللائق أن أترك عمتي المريضة في أول يوم .
- معك حق ... لنوجهها إلى الغد .
- صباحا ؟ .
- كما تشائين .
- في أى ساعة ؟
- العاشرة ؟
- أجل .
- حسن جدا .. أتفضلين أن نلتقى في مكان ... ثم نذهب معا أم نلتقى في العيادة مباشرة ؟
- أين العيادة ؟
- شارع ماسبيرو ... الشارع الموصل بين كوبرى « أبو العلا » وشارع الملكة .
- أعرفه جيدا .. من أى ناحية في الشارع ؟
- من الناحية الأقرب إلى شارع الملكة هي أول عمارة بيضاء عالية رقم ٣٧ بجوار إدارة شركة التزام .. أتعرفينها ؟
- أجل .. إننى أعرفها تماما ... وأستطيع أن آتى إليها مباشرة ، فالمسافة بينها وبين بيت عمى ليست بالبعيدة . إن البيت فى الزمالك . ولن يستغرق الوصول إليها أكثر من خمس دقائق فى السيارة .

— ٧٢ —

- إذا اتفقنا ... سأكون هناك في الساعة العاشرة .
- وأنا سأحضر في نفس الساعة .
- الشقة رقم ٢٧ الدور الخامس عيادة الدكتور توفيق عبد الله ، وعسى ألا يعوقك عائق .
- سأحضر أن شاء الله .
- مرة أخرى أكرر الاعتذار عن إزعاجك .. إنني أعتقد أنني السبب الأول في كل ما حدث .. إنني أنا الذي ألقيت به إلى هناك . كان يجب أن أكون جارا أقل ضررا .
- هذا قضاء الله ولا راد لقضائه .
- صدقت .. أشكرك جدا على تكرمك بالحديث .
- العفو ... لا شكر على واجب .
- ووحيد زكي أن الحديث قد طال ، وانتظر أن تكون هي البادئة .
- بختامه وبإلقاء تحية الوداع ... ووجد أنه قد قال كل كلمات الشكر والأسف ولم يعد في جعبته شيء .
- ولكنها هي ، كان في جعبتها شيء .. لم تلق به بعد .. كان يبدو في لهجتها التردد كأنما تريد أن تسأله شيئا .
- وبعد فترة صمت قالت :
- كنت أود أسأل عن شيء يا دكتور .
- تفضلي ... سلى ما تشائين .
- هل .. هل ...
- واستطاع هو أن يخمن .. ولكنه لم يجسر على التصريح بالإجابة قبل أن تتم سؤاها ، وأخيرا أتمته :
- أيمكن موجودا ؟
- لا .. ولكن إذا كنت ترغين .
- لا .. لا ... لست أرغب شيئا ... أني أسأل فقط .

— ٧٣ —

— لقد نصح الدكتور بأن تأتي على حدة فهو لا يستطيع أن يضمن
وقع لقاءك عليه .. ولذلك فضل الحذر .

— معه حق ... هذا أفضل .. أفضل كثيرا .

لقد كانت تتوق إلى لقائه .. لكنها مع ذلك تعذره .. إنها تخشى منه
المجهول الذى توشتك أن تلقاه فيه .

إنها تجزع من أن تبصره على حالته الأخيرة .. كيف أصبح ..
وكيف يبدو .

ووجدت أن السماعه ما زالت فى يدها .. وأن الطرف الآخر مازال
ينتظر منها أن تستدعى ذهنها الشارد .. لكى تصرفه إلى حاله .

وأصابها الارتباك وتمتعت معتذرة :

— طيب يا دكتور .. سنلتقى فى الغد إن شاء الله .

— إن شاء الله .

— تمسى على خير .

— وأنت من أهله .

ووضع كلاهما السماعه .

وكان فى ذهن كل منهما عن الآخر صورة قديمة باهتة من اللمحات
العابرة البعيدة التى كان يبصر بها كل منهما صاحبه فى فترات الصيف
الماضية .

أما صورتها فكانت أقرب إلى الطفولة .. كان يذكرها بمجرد صبية
رقيقة ، دقيقة .

أما صورته .. فكانت نحيفة طويلة جادة .. لا تلتفت يمنة ولا يسرة ،
يميزها شعر غزير حالك ، وحركات سريعة وثابة .

— ٧٤ —

والتقيا في الصباح ... وعندما ألقت عليه النظرة الأولى لم تجد به كثير اختلاف عن الصورة القديمة التي رسمتها في ذهنها لجارهم الدكتور كما كانت تسميه .

أما هو .. فقد كان الفارق الذي وجدته ، أكبر من أن يكتم في نفسه آثاره ، فارتسمت الدهشة على وجهه .

لم تعد طفلة ولا صبية وإن كانت الرقة والدقة لا تفارقانها بل حددت نوع جمالها ، فأبدتها فتاة بديعة التكوين ، رائعة السيماء ولكن في رقة ودقة .. وليس فورة طاغية تحس من خطواتها وهي مقبلة عليك أحاسيسك بنسمة مرطبة عطرة تيل روحك وتندى فؤادك ... أكثر مما تحس بلفحة أنوثة حارة تثير أعصابك وتلهب نفسك .. لقد كان جمالا ينزل على النفس بردا وسلاما .

وتصافح الاثنان ولم يكن لديهما الكثير مما بقولانه ، وكان الدكتور توفيق في الانتظار ، فأشار إلى باب حجرتة قائلا :

— أظننا من الأفضل ألا نضيع وقنا ، فأنا أعرف أنك لا تملكين وقتك تماما ، تفضلي .

— تفضل أنت .

وتقدم زكى وطرق الباب ثم دفعه وأشار إليها بالدخول . دخلت راجية الحجرة ودارت عينها دورة سريعة في محتوياتها ، ثم استقرتا على الرجل الواقف خلف المكتب مفتت الثغر ، باش الوجه ، باسطا يده بالسلام .

وشدت على يده وهي تشعر أن هذا الرجل مطمئن ، مريح . وشد هو على يدها وقد أحس بما سبق أن شبهناه ، بنسمة رطبة عطرة ، تيل الفؤاد وتندى الروح .

- ٧٥ -

وجلس الثلاثة ، واستطاع توفيق ، أن يبدد بسرعة سحب الحرج والتكلف التى توشك أن تحميم عليهم ، وأن يفرض بطلاوة حديثه نوعا من الالفة الطبيعية غير المفتعلة .

ولم تعرف راجية ، أكانت تلك قدرة يمتاز بها الدكتور توفيق وحده ، أم أنها ميزة من مزايا الأطباء النفسانيين ، وضرورة من ضرورات عملهم .

على أية حال ، لقد ملأها الرجل ثقة واطمئنانا ، وأزال من نفسها كل شعور بالقلق والحذر .

كان متحدثا فى غير ثرثرة .. كان يعرف كيف يفك عقدة الصمت . ويحرى الحديث سلسا طليا فى سهولة ويسر دون أن يشعر أنه يقصد ذلك ، بل بما تحس أن كل ما يقوله ضرورة من ضرورات الموقف .

وعندما انتهى الحديث عن التحيات ، والجو والإسكندرية ، والسيوف ، وغيرها من توافه الأمور ، ومقدماته ، بدأ الرجل يطرق الموضوع وكأنه لا يطرقه ، بل هو يصله بما سبقه كأنه ما زال يتمم حديثه عن الجو .

واستطرد الرجل يقول:

— على أية حال ، أنا أحب الإسكندرية فى الشتاء ، إنها لطيفة وهادئة ، وليست بها رطوبة الصيف ولا ضجة المصطافين .

وأجابت راجية :

— معك حق ، إنها — باستثناء أيام الزوايح والأمطار — ولا سيما فى شهرى أكتوبر ونوفمبر تكون رائعة ، والبحر أملس كالزيت ، ولكن هدوءها ، ولا سيما فى منطقة السيوف يكون مملا مزعجا فى بعض الأحيان .

— وكيف تقتلين الملل ؟

- ٧٦ -

- بأشياء كثيرة ، الرسم والموسيقى .
- أتحيين الموسيقى ؟
- وبدأت تحس أنها توشك أن تنزلق فى الفخ ، ولكن سؤال الرجل كان برىء المظهر فلم تملك إلا إجابته :
- أجل ، أحبها .
- أنا أيضا أحب الموسيقى ، أى نوع تفضلين ؟ الكلاسيك .
- أنا أحب الموسيقى الجيدة ، أيا كان نوعها ، الموسيقى التى تصل إلى قرارة نفسى ، بغض النظر عن نوعها .
- ذلك هو رأى بالضبط .. وذلك هو ما قلت لإبراهيم .
- أنى أحترمه وأحبه لأن كل موسيقاه ممتازة ، لم أسمع له لحنا واحدا ، لم يطربنى ، ما رأيك أنت ؟
- ولم تحب راجية ، ولم يد عليه أنه يحاول أن يستدرجها إلى شىء ، واستطرد ليقول دون أن ينتظر إجابتها :
- لقد حدثه عن آخر لحن سمعته له وهو «ساعة غروب» فحدثنى كذلك كيف وضعه ، وكيف عزفه لك فى ساعة غروب .. ووصف لى أثره عليك ، وكيف قال لك لو كنت معى لكان لحنا آخر ولسميته « ساعة شروق » .
- وهتفت راجية فى تأثر شديد :
- أحقا قال ذلك ؟
- وأدركت بعد سؤالها أن إرادتها قد خانتها ، وأنها كان يجب أن تكون أكثر ثباتا من ذلك ، ونقلت بصرها بين الرجلين ، والتقى بصرها بأحدهما ، أما الآخر ذو العيونات فقد كان مطرقا برأسه .
- وكانما أحس زكى أن وجوده قد يزيد فى حرج الفتاة ، وأنه قد يعرقل عمل صاحبه ، وأن خيرا له لو ترك الغرفة لأمر ما .

ولم يكن الانسحاب بالأمر الصعب ، ولا سيما فى لحظة الصمت الحرج التى أعقبت سؤالها المتلهف فنهض فى هدوء قائلا :
- أسمحان لى ، بضع دقائق .

ثم غادر الغرفة قبل أن يسمع ردهما .
ومرة أخرى أوشكت سحب الحرج والتكلف أن تخيم عليهما ، ولكن توفيق وجد أن من الخير أن يبدأ عمله فائحه رأسا إلى الموضوع :
- اسمعى يا راجية ، سأحدثك بمنتهى الصراحة ، وأرجو أن تعتبرينى فى حديثى مجرد صديق ، إنى لا أباهر عملى كطبيب ولكن كإنسان ... فانزعى من ذهنك أنى طبيب . ولست مكلفة بأن تقول لى شيئا لا يعجبك أو تجدين حرجا فى قوله ، لأنك حرة فى كل ما تقولين ، وأنا بالطبع لا حق لى فى استجوابك ، ولكنها مجرد مساعدة تتطوعين بها لإنقاذ شخص نرغب جميعا فى إنقاذه ... ولكن قبل أن نبدأ الحديث أحب أن أوجه لك سؤالا خاصا أرجو منك أن تجيبى عليه بمنتهى الصراحة و « البساطة » لأنى أعتقد أن عليه تتوقف قيمة المعاونة التى يمكن أن ننظرها منك ، وعليه كذلك يتوقف مدى الجهد الذى يمكن أن أطلبه منك وأمل أن توديه لى ، ومدى الصراحة التى يمكن أن تتحدث بها بلا حرج ولا مضايقة ، أفهميننى ؟ .

وأحست راجية كأن الرجل قد سلط عليها ضوءا كشافا أو أنه وضعها على قطعة من الزجاج وأخذ يفحصها بالمجهر . وأحست بأنفاسها تتلاحق وأخذت أصابعها تضغط على جانب المقعد ، ثم رفعت بصرها فواجهت عينيه اللتين اترقبانها من وراء المنظار ، وأحست منهما الثقة والطمأنينة وداخلها إيمان بأن صاحبهما لا يملك أن يهب سوى العون والمساعدة ، ورويدا رويدا بدأ التوتر فى أعصابها يتراخى والحرج يتبدد .

وعاد الرجل يسأل فى رقة :

— ٧٨ —

— ما رأيك ؟
ودون أن ترفع إليه بصرها أجابت :
— سل ما تشاء .
— فهمت من حديث إبراهيم أنك تحبينه ، أو على وجه أدق ، كنت تحبينه ، فهل ما زلت تحملين له هذا الحب ؟
وأجابت بهزة رأسها دون أن تنفرج شفتها .
وعاد هو يواصل أسئلته .
— رغم ما حدث ؟
وانفرجت شفتها عن إجابة قصيرة بما يشبه الهمس :
— أجل ، رغم ما حدث .
— ألم تؤثر فعلته في نفسك .
— أثرت بالطبع ، ولكن ما في القلب باق كما هو .
— أأستطيع أن أومن برغبتك القوية في معاونته ؟
— سأفعل من أجله كل ما أستطيع .
— رغم أن شفاءه قد لا يكون ذا نفع لديك .. أعنى ، أن ...
— أفهم جيدا ما تعنى ، وأنا أريد معاونته من أجل نفسه ، لا من أجل

نفسى .

— حسن جدا .. هذا هو ما كنت أود أن أعرفه ، وبهذه الطريقة ، نستطيع أن نعمل على أساس متين من الرغبة المشتركة والثقة المتبادلة .. لكي نحقق هدفا واحدا . أليس كذلك ؟
— أجل .. إننى على أتم استعداد لبذل كل جهد تطلبه فى سبيله .

— أنا لا أريد جهدا ، كل ما أريد هو أن تستريحى فى مقعدك .
وتحدثى .. حدثينى عن كل شىء .. تكلمى بإسهاب . قولى ما شئت

من التفاصيل والدقائق ، والتفاهات والسخافات ، دون أن تخشى المضايقة أو الإثقال .. فلانى مستمع جيد ، وأنا أحد فى التفاصيل التى قد تبدو تافهة أشياء قيمة قد توصلنا إلى نتائج لا نتوقعها ، حدثينى عن كل خصام حدث بينكما ، وعن كل ما كان يضايقه ، وعما تظنينه أدى إلى الانفصال .

وهزت راحية رأسها فى حيرة ، ثم رفعت كفيها وأجابت :
- إن التفكير فى هذا قد يودى بى إلى الجنون ، إنى لا أذكر أنى فعلت قط ما يضايقه ، لا أذكر شيئا أبدا أبدا .

- إذا ، دعينا من هذا ، حدثينى من البداية ... قصى على القصة من أولها ، كيف التقيتما ١٩ وكيف تطور الأمر بينكما ؟

وأحست راحية أن الرجل دفع فى نفسها رغبة فى الحديث . إنها هى نفسها فى حاجة إلى علاج . إنها فى حالة جفاف ومرارة قد تضيعها الذكرى المحيرة . إن بها حنيناً إلى ماضٍ جميل . إن بها شوقاً إلى لحظات مضية .. ومضت فى حياتها كالمح البرق .. أعقبتها ظلمة كثيفة موحشة .

ما أحب أن تغمض عينيها ، وتحيا بذهنها فى ذكرياتها الحلوة ، البائدة .

أطلقت من صدرها زفرة حملتها مرارة الحاضر .. ثم ألقت برأسها على مؤخر المقعد ، وأرخت جسدها وأغمضت عينيها ، وأغفت كل حواسها ، إلا من ذهن ينطلق فى ربوع الماضى ، ولسان يهمس بما يراه .

الفصل الخامس

بلا رجاء

قبل أن أقص عليك كيف التقينا وكيف توثقت عرى المحبة بيننا ، أود أن أعطيك لمحة سريعة عمن أكون وكيف كنت أحيا قبل أن ألتقى به ... كنا نعيش فى بيتنا فى السيوف أنا و جدى فى شبه عزلة عن العالم ، فقد فقدت أبوى وأنا طفلة صغيرة .

ووجد فى جدى عزاء عن ابنته الراحلة إذ كنت شديدة الشبه بأمى . فضمنى إلى كنفه وتولى رعايتى وتربيتى .. حتى بت كل شئ لديه فى دنياه الخالية .

ولقد نشأت بطبيعة خلقى مرهفة الحس ، مباله إلى الموسيقى والرسم ، ولكن جدى كان يكره تلك الفنون وكان يراها عبثا لا طائل تحتها ولا فائدة منه . وإنها أشبه بالمخدر ، الذى يصرف الإنسان عن حياة الجسد والعمل ... ولكى يضمن مستقبلى بدأ هو ينسج خيوطه ويبنيه حجرا حجرا .. فاختار لى زوجى المقبل وهو « ابن خالتي » عبد الرحمن حفيده الآخر وشريكى فى إرث ثروته العريضة وأراضيه الممتدة وأملاكه الواسعة ، ولقد علمه التعليم الذى يكفل له إدارة كل ذلك الثراء العريض وعودة الحياة الجادة الجافة وساعدته طبيعته على قبول تلك الحياة .. فلقد كان جادا ، جافا ، ماديا ، لا يعرف سوى الأرقام والحسابات والأرض والمال والطعام ، وهكذا ضمن جدى المحافظة على ممتلكاته ونحن بيننا .

وفى وسط هذا الجو المادى الجاف نشأت أشبه بزهرة رقيقة بين الصخور الصلدة .. يذينى صوت رقيق .. وتنشيني نغمة حلوة ،

وتؤرقنى لفظة قاسية . ولم أملك إلا أن أخلق لنفسى وسط تلك الصحراء الجافة واحة صغيرة أتفياً بظلالها وأنهل نعيمها ، وأن أشيد لروحى وسط ذلك العالم المتجهم الصارم ، عالماً صغيراً حلوا كائناً فى غرفتى المطلة على الحديقة المتكاثفة الأشجار الرحبة الأرجاء .

وحاشاى أن أزعم أن هناك من كان يعتمد القسوة على ، بل الأمر على النقيض ، لقد كان الكل يعينى ولكن بطريقتهم الجافة ، وكان الكل يحاول إسعادى ولكن بوسائلهم التى لم تكن تعمل إلى أى نوع من السعادة . بل إنى أعتقد أن ذلك الجو الصارم الجاف الذى أحاطنى به جدى لم يكن فى حد ذاته إلا دليلاً على حبه إياى ومحاولته أن يخطئى بسياج يصد عنى شرور الحياة ومفاسدها حتى يضمن لى ما يتوهمه من مستقبل سعيد .

مخلوقة واحدة هى التى كنت أجدها تستطيع فهمى ، وفهم تفكيرى .. ولا تهمنى بالجنون إذا شرد ذهنى عند وقوفى لأرقب الغروب ، أو دمعت عينائى وأنا أستمع إلى هديل بلبل أو نوح حمامة ، تلك هى « دادتى سيدة » التى قامت على تربيتى منذ طفولتى ، والتى كانت أما أشبه منها مربية .. وكانت تتسلل من مخدعها لتجلس إلى وأنا أسترق السمع فى سكون الليل إلى الراديو وهو يعمل إلى النغمات الهادئة اللطيفة ، وكانت وحدها التى تجلس لتحديثنى عن أبى وعن أمى . ولم أكن أعرف الحب بعد ، أو كنت أعرفه مجرد شعور أتوق إليه وأحتزنه لفارس أحلام لم يبد فى الأفق بعد .

كنت أحب مجهولاً أتوهمه ، وأتوهم فيه رقة الأزهار المتناثرة حولى وعذوبة الموسيقى المنبعثة فى أذنى ، وجمال الشروق أو الغروب الممتد أمام ناظرى .

ولم أحاول قط أن أربط بين زوجى المنتظر الذى أعده لى جدى وبين فارس أحلامى الذى أعدده لنفسى ، إذ لم يكن هناك بينهما أقل شبه ولا

أدنى صلة .

ورويدا ، رويدا بدأت أوهامى عن فارس أحلامى تتركز فى مخلوق لم أره ، ولكنى كنت أتخيله من بين ألحانه العجيبة التى يُمثلها لى سكون الليل . كنت دائما أكثر ميلا إلى الموسيقى الغربية حتى سمعت موسيقاه فإذا هى تشدنى فى رقة وحنان ، كأنها صدر يضمنى أو يد تربت على كتفى . وهكذا بدأ العشق .. عشق فى الهواء .. لمخلوق لم ألقه ولا أتوقع أن ألقاه . مخلوق لا أعرف شيئا من سماته وإن كنت قد رسمتها فى ذهنى من ألحانه التى سمعتها .

و ذات ليلة .. ليلة من الليالى الفاتنة .. ذات القمر المطل من ثنايا السحب ، والنسيم الرطب الذى يحمل بين نفحاته شذى الأزهار وكأنها أنفاس عذبة عطرة ، جلست فى الشرفة فإذا الألمان السحرية تتسرب إلى أذنى خلال النسيم .

ولم أكن قد أدركت مفتاح الراديو . ولكنى اعتقدت أن « سيدة » قد أدارته وتسلفت من الحجرة فحمدت لها فعلتها .

وصمت اللحن وطال صمته فظننت بالجهاز عطلا ، ونهضت لإصلاحه فوجدته مغلقا وخيل إلى أنها قد أغلقته ، فأدركته ثانية ولكنى لم أسمع سوى نشرات الأخبار .

وأغلق الجهاز وعدت إلى موضعى بالشرفة ، ومرة ثانية حملت إلى الريح الألمان العجيبة ، وأصابتنى رجفة .. ونهضت لأرى الجهاز فإذا هو مغلق وإذا اللحن ما زال يسرى . وخرجت إلى الشرفة فإذا هو يأتى إلى متخللا الأشجار من ناحية البيت المجاور .

و كنت أعرف أن البيت مهجور طوال الشتاء ، ولم يمل به أحد بعد ، ولكنى تذكرت أن عربة وقفت أمامه بالأمس واستطعت أن ألمح بعض الأضواء تتسرب من النوافذ .

- ٨٣ -

وعجبت أن يكون لساكنيه تلك الموسيقى العجيبة وظننتها آتية من إحدى الموجات الاخرى للإذاعة وحاولت أن أضبط الجهاز على الموجة المخصوصة ولكن عبثا .

وأخذت أنصت عندما سمعت فجأة صوتا مزعجا يقطع على متعة الاستماع ويصيح قائلا :

- العشاء جاهز يا أستاذ ، تفضل للأكل وكفى « تنتنه » .

وتوقفت « التنتنه » وسمعت صوتا آخر يجيب فى لهفة ضاحكة :

- حاضر ياعم مدبولى .. « نترك التنتنه » .

وتمنيت أن أضرب « عم مدبولى » هذا .. وأن أصبح بالآخر استمر

فى « التنتنه » ولكن الحياء عقد لسانى ، وقعت فى مجلسى أحملق فى الظلمات .

ومرت الليلة بعد الليلة وأنا أسمع الصوت العجيب دون أن أعرف

صاحبه ، وحاولت عبثا أن أميز شكله خلال النهار . وأخيرا لم أجد بدا

إلا الاستعانة بـ « سيدة » فأرسلتها تنسم الأخبار عليها تعرف شيئا .

والتقت سيدة بمدبولى ولم يصعب عليها بلباقتها أن تعرف ما تريده

عن جارنا الجديد عازف الموسيقى .

وأنت إالى تحمل الأنباء ... وكانت عجبا .. من تظنه ؟

لقد كان صاحب اللحن نفسه هو فارس أحلامى .. وحبیب الروح

الذى كنت أختزن له مشاعرى وأكنز حبى .

ولا أظن من السهل أن تتصور وقع المفاجأة علىّ عندما أبصر الأمنية

التي ظننتها حلما مستحيلا .. والمخلوق الذى ظننته وهما لا يتحقق ، قد

بات منى قاب قوسين أو أدنى .

لقد سمعته ليلتذاك وأنا من نشوتى فى شبه غيبوبة ، وأصدقك القول

إنى لم أذق النوم من فرحتى إلا لما .. وعندما أقبل الصباح كنت قد عقدت النية على أن أراه بأى ثمن .

وعلمت أنه يقضى معظم وقته معتكفا فى حجرته يضع ألحانه ، ويؤلف موسيقاه ، وأنه يجلس أمام البيانو الصغير المواجهة للنافذة التى تطل على الحديقة ، وأنتى لو اعتليت السور الفاصل بين البيتين المواجه للنافذة ، لاستطعت أن أبصره جيدا وهو منهمك فى عزفه دون أن يرانى ودون أن ألفت إلى نظر أحد .

وهكذا لم أكد أسمع العزف يبدأ حتى أدركت أن الفرصة قد حانت ، وهبطت متسللة إلى الحديقة وبدأت أتسلق السور كاللصوص حتى وقفت على حافته وأخذت أزيح فروع الشجر المتكاثفة القائمة بين الحديقتين حتى استطعت أن أجد لى منفذا يطل على النافذة ، ثم أمد عنقى بين الفروع ، وكان اللحن مستمرا على أشده ولم أشك فى أنه جالس أمام البيانو ، وقد انهمك فى العزف ، وشعرت بنشوة شديدة عندما أيقنت أنى أوشك أن أراه .. ووقع بصرى على النافذة ، ثم تخللها إلى الداخل واستقرت عينائى على « البيانو » ، ولكنه كان خاليا . وفى نفس اللحظة التى شعرت فيها بخيبة الأمل والدهشة سمعت صوتا مفاجئا من أسفل السور يهتف بى :

— ضبظتلك ، أيتها السارقة .

ونظرت إلى أسفل ، ولدهشتى الشديدة ، وجدته هو ، أجل هو ، هو ، كما رسمته فى أوهامى وأحلامي . وكانت مفاجأة شديدة الوقع علىّ ، ولا سيما أن العزف كان مستمرا ، وهممت بالتراجع والفرار عندما زلت قدمى وارتطمت بحجر واه فى السور فانزلقت من عال وهويت من السور إلى داخل الحديقة . والتوت قدمى ، وانتابنى من الالتواء ألم شديد ، وصرخت صرخة مكتومة ، ولم أملك أن بكيت .

وأقبل هو على منزعجا وأمسك بقدمي يدلکها فی رفق وأنا أنا لم
وأأأوه ، وهو يعتذر فی لهجة مستعطفة نادمة .

وفی نفس الوقت كان العزف مازال مستمرا .

ولم أتمالك رغم ألمی أن أتساءل فی دهشة :

— من الذى يعزف إذا ؟

— لا بد أنه مدبولى .

— مدبولى ؟ إذا لست أنت ؟

— لا ، لست أنا .

— إنى أتکلم جادة .

— وأنا أيضا أتکلم جادا .

— ولكن كيف لا تكون أنت الذى تعزف ؟

— لأنه لا يمكننى أن أكون واقفا أمامك ، وفی الوقت نفسه أعزف

فی الداخل . وعلى أية حال ليس هذا وقت تحقيق ، لا بد أن أدخلک

الآن حتى أربط قدمک .. أنا متأسف جدا لأنى تسببت لك فى ما

حدث ، ولكن عذرى أنى أستيقظ كل صباح لأعد الورد فى الحديقة

فأجده ناقصا ، فلما لقيتک واقفة فوق السور قلت لا بد أن تكونى سارقة

الورد .

وبسرعة ، وقبل أن أفکر فی الرد علیه حملنى بين يديه وأسرع إلى

الداخل .

ولم أكد أستقر فى الحجرة حتى وقع بصرى .. على السبب فى كل

ما حدث . وقع بصرى على مسجل صوتى يذيع اللحن الذى سمعته .

ونظرت إليه وقلت فى عجب :

— أهذا آخر لحن لك ؟

— لى أنا ؟ . أتعرفين من أنا ؟

— طبعا أعرف .

— ٨٦ —

— أواقئة أنت ؟

— أنى أعرفك ، وأعرف كل لحن وضعته . أنا حقيقة سارقة . لكنى
لست سارقة ورد ، أنا سارقة ألحان ، إنى كل ليلة أسترق السمع إليك .
وكان يبدو عليه مزيج من الدهشة المصحوب بالألم لما سبب لى .
وأخيرا انتهى من ربط قدمى .

وأخذت أفكر كيف أعود إلى المنزل . أومن المعقول أن يحملنى إليه
كما فعل عندما أدخلنى إلى داره ؟ ماذا يفعل جدى لو وقع بصره على
هذا المنظر ؟ بل ماذا يفعل لو عرف أنى هنا أجلس هذه الجلسة ؟
وتبددت نشوة اللقاء وغلبنى الارتباك والخوف وقلت :

— إنى لا بد أن أعود إلى البيت .

— انتظرى على الأقل حتى تستريح قدمك .

— لا أستطيع .

— وله .

— لا بد أن يكون جدى قد استيقظ الآن وأن تكون « سيدة » قد

جهزت الإفطار وهو لا بد سائل عنى .

— إذا انتظرى حتى أحملك إلى هنالك .

— تحملنى ؟ .. مستحيل .

— وما وجه الاستحالة ؟

— ماذا يقول جدى ؟

— لن يقول شيئا إنك كابنتى .

وألمنى منه قوله إننى كابنته ، وكرهت أن يرى أنى صغيرة وصحت

به :

— أنا كبيرة ، إن عمرى ست عشرة سنة .

— ستة عشر عاما ، مرة واحدة ، أنت كأمى إذا ؟

— أتمرح ، فى وسط هذه المشكلة التى أوقعتنى فيها، ماذا ترانى فاعلة ؟

— ٨٧ —

- قلت لك أحملك .. أو على الأقل أسندك .. فلم يرق لك هذا .
- أمعقول أن أعود إلى البيت وأنت تحملنى أو تسندنى ؟
- سأوصلك حتى الباب وهناك تسندك الخادمة .
- باب ١١؟ ... أتريدنى أدخل من الباب وأمشى فى الطريق ؟
- إذا من أين ستعودين ؟
- كما أتيت .
- أتعودين من السور مرة أخرى ؟
- أجل . حتى لا يرانى أحد .
- ولكن كيف أحملك وأقفز بك فوق السور ١؟ انتظرى ، لقد وجدت فكرة هائلة ؟
- ثم صاح ينادى مدهولى ، ولكنى أمسكت به وقلت له إنى لا أريد أن يعرف أحد ما حدث خشية أن تصل القصة إلى مسامع جدى .
- وأقبل مدهولى فأمره بالوقوف فى الخارج .
- وهمس إلى :
- لا بد أن يساعدنا أحد إذا كنت مصرة على أن تعودى من السور .

- أنى لا أريد أن يعرف أحد .
- اصبرى إذا .
- ثم هتف بالرجل الواقف فى الخارج :
- مدهولى .. أغمض عينيك .
- وأجاب مدهولى .
- أغمض عينى ؟ أنا ؟
- نعم أنت .
- له ١؟
- قلت لك أغمض عينيك .

— أنا أغمض عيني ؟ لماذا أتسوى أن تلعب معي « استغماية » ..
وحياة والدك يا أستاذ ليس لدى وقت للعب معك ، أنت رجل « فائق
ورائق » لا عمل لك سوى « التنتنة » ، ولكن أنا عندى أعمال كثيرة .
— أغمض عينيك ولا تكن لوحا . أغمض عينيك .
— أهو حكم قراقوش .. أمرنا لله .. أغمضت عيني .. ماذا تريد بعد
ذلك ؟

— استمر مغمضا .
— « خلاص » ؟
— قلت لك انتظر .. لا تفتح عينيك حتى أمرك .
— حاضر ، لن أفتح عيني حتى أرى آخرتها معك .
ثم أخذ يهمس إلى :
— الآن سأسير به إلى السور وهو مغمض العينين . ثم أوقفه على السور
وأناولك إياه ، وأقفر أنا فى حديقة بيتك وأناولك منه . وعندما أعود تنادين
أنت عليهم ، وكأن قدمك التوت وأنت فى الحديقة . ما رأيك ؟
— مسألة فيها مغامرة ، ولكن ربنا يستر ، ليس أمامنا من حيلة
سواها .

وخرج هو إلى مدبولى فوجده واقفا فى الخارج وهو مغمض نصف
إغماضة فصاح به :
— ما عسى أن أصنع معك ؟ أنت لا تغمضهما جيدا ، لا أريدك أن
ترى شيئا أبدا ... أسمع ؟ أم ترى من الخير أن أربطهما لك .. أنا
أعرفك رجلا غشاشا .
ثم ربط عينيه بمنديل ، وقاده إلى السور ورفع على مقعد إلى حافته ،
ثم تركه وعاد إلى فحملنى بين يديه ووصل إلى السور فرفعنى إلى مدبولى
وهو على السور معصوب العينين فاغر الفم من فرط الدهشة .
وهمس إبراهيم وهو يرفعنى بين يديه :

— ٨٩ —

— مدبولى . خذ .

— آخذ ؟. آخذ ماذا ؟

— مد يدك وتناول ما سأعطيه لك . واحتفظ به برهة حتى آخذه منك ثانية .

ومد مدبولى كفه ، ولكن إبراهيم صاح به فى حلق :

— مد يدك الاثنتين ، ونحن قليلا .

وفعل مدبولى ، كما طلب منه ، وعندما استقررت بين ذراعيه هتف فى دهشة :

— يا نهار اسود ، ما هذا ؟ قتل ؟

— صه ، أيها الحمار ، أمسك به جيدا وإلا سقط منك .

— ولكن .. أنا ..

وقفز إبراهيم بسرعة إلى الناحية الأخرى من السور وصاح بمدبولى .

— هات ، مد يدك ، اخفضهما قليلا ، أجل هكذا .

واستقررت مرة ثانية بين يدى إبراهيم الذى الخنى ووضعنى برفق على الأرض وتلفت حولى فى حذر وخشية وقلت له :

— عد أنت بسرعة لتلا يراك أحد .

وفى غمضة عين كان قد قفز فوق السور واستقر فى الناحية الأخرى من الحديقة .

وكانت الحوادث تجرى بسرعة وبطريقة مضحكة أنستنى آلام قدمى ، بل لا أكذبك إذا قلت إن المغامرة بعثت فى نفسى نشوة لذيدة وأنا أبصر فارس الأحلام ، العاقل الرزين ، يحملنى ويتوأتب فوق الأسوار .

وكنت أستقر فى رقتى فوق الحشائش كما تركنى إبراهيم وأنا أرقب مدبولى معصوب العينين يقلب كفه وشفتيه فى دهشة وهو يتمتم « أصحاب العقول فى راحة » عندما أبصرت بـ « سيدة » تبدو قادمة

- ٩٠ -

من وراء البيت . ولم تكذبصبرنى راقدة حتى صاحبت منزعجة :

- سيدتى راجية ، مالك ؟ كفى الله الشر ؟

- التوت قدمى وأنا سائرة .

ولكن قبل أن تستقر الإجابة فى أذنيها وقع بصرها على مدبولى فوق
السور فضربت صدرها بكفها صائحة فى دهشة :

- مدبولى « ينيلك » ما الذى تفعله فوق السور ؟

وأجاب مدبولى فى سهولة :

- أَلعب « استغماية » .

- تلعب استغماية وأنت فى هذه السن وفوق أسوار الناس ؟

إلهى « تنسخط » .

ومد مدبولى يده لينزع العصاة عن عينيه . ويبدو أنه لم يكن يدرك
حتى هذه الساعة أنه واقف على السور فقد نظر حوله فى فزع ثم هوى
داخل الحديقة ، قريبا منى . ولطمت يده ساقى فصحت متألة .

وعلى صوت صياحى وصياحه ، صاح صوت ثالث ، هو آخر ما كنا
نود أن يصيح وهو صوت جدى ، إذ بدا فى الشرفة وأطل على المنظر
العجيب ، منظرى ومدبولى طريحى الأرض .

صاح جدى غاضبا :

- ما شاء الله . ماذا يفعل هنا هذا الرجل ؟

وهمست سيدة فى حرج وخشية :

- انهض يا مدبولى ، وكفى مصائب .

ونهض مدبولى متعثرا والجد يصيح به :

- انطق . ماذا أتى بك إلى هنا ؟

- أنا ، أنا ، كنت فوق السور .

- فوق السور ! وماذا تفعل فوق السور ؟

- أ .. أشم الهواء .

— ٩١ —

وتداركت سيدة الأمر فقالت للجد :

— كان يقص فروع الشجر فوق السور ، فزلت قدمه وسقط عندنا .
خذ بالك مرة أخرى يا حاج . الظاهر أن نظره ضعيف .

وصاح مدبولى مرتكبا :

— أجل ، أجل ، ضعيف جدا ، السلام عليكم .

وهم بالعودة قافزا على السور فنهره الجد بقوله :

— اخرج من الباب ، أيها الأحمق ، إن ما تفعل لا يفعله سوى
الصوص .

— حاضر ، لا مؤاخذه .

وهرول الرجل متجها إلى الباب .

واشخت سيدة فوقى تفحص قدمى وتحاول معاونتى على النهوض .
وبعد لحظات كنت أستقر على الفراش وحدى يربت رجلى ثم
يأمرنى أن أستريح ولا أحركها .

ولم يكد جدى يغادر الحجرة وسيدة تخلو بى حتى نظرت إلى نظرة
اتهام وهمست :

— هذا الكلام لا يدخل عقلى أبدا .

— ما هو ؟

— التواء قدمك . كل يوم تسيرين فى الحديقة فى أمان الله دون أن
تلتوى قدمك .

— قضاء ، وقدر .

— كلام فارغ ، لا بد أن هناك شيئا ، هل تريدن أن أصدق أن هذا
الأحمق قد وقف على السور معصوب العينين لكى يلعب « استغماية »
كما قال لى ، أو لكى يشم الهواء كما قال لسيدى ، المسألة لا بد أن
يكون فيها سر .

— اسمعى يا سيدة ، أتريدن الحقيقة ؟

— ٩٢ —

— طبعاً ، إذا لم أعرف أنا الحقيقة فمن يعرفها ؟ من الذى يعرف
خباياك وأسرارك فى هذا البيت سوى ؟!
— الحقيقة يا سيدة أنى قفرت فوق السور لمشاهدته وهو يعزف على
« البيانو » فسقطت .

— هكذا !! إذا فهذا السر فى حيرتك منذ بضعة أيام وانتقالك من
النافذة إلى الشرفة ، ومن الشرفة إلى النافذة . أوقد هداً بالك الآن بعد أن
رأيت ؟ أو قد استزحت ؟

— طبعاً . لقد كنت أتمنى رؤيته منذ أكثر من عام .
— وماذا رأيت ؟! رأيت به شيئاً أكثر مما بسواه من الناس ؟
— أكثر كثيراً . كنت دائماً أ تخيله فى صورة رائعة ولكن ما رأيته فيه
كان أروع . لا تستطيعين أن تتصورى مقدار رفته ولطفه ، هل تصدقين
أنه حملنى إلى حجرته وذلك لى قدمى ، ثم حملنى مرة أخرى إلى
السور ؟

— ما شاء الله . إياك أن تذكرى هذا الكلام مرة أخرى . فلو عرف
جدك لسود عيشنا ، إنه لن يرى به شيئاً من اللطف الذى ترينه ، سيراه
رجلاً عادياً وقحاً ، يغازل بنات الجيران .
— لا ، لا يا سيدة ، لا تقولى هذا . إنه ليس كغيره من الناس .
— أنا لا أرى به شيئاً أكثر من الناس ، إنه يمشى على قدميه ويهز
يديه .

— لا يا سيدة ، إنك لا ترينه جيداً ، إن به شيئاً أفضل . شيئاً أسمى
وأجمل ، إن به

ولم أستطع أن أعبر عما أريد أن أقول ، إن به أشياء كثيرة ، إن به
الروح وبه الحياة . ولم أملك سوى أن أطلق تنهيدة حملتها الكثير من
الحرارة التى تصهر جوائنى .

ووجدت سيدة تبتسم ، ثم تقترب منى وتتحنس شعرى فى حنان

— ٩٣ —

وتسألنى فى رقة :

— ماذا به أيضا ١٩

— به .. به .. اسمعى يا سيدة ، ألم تجربى الحب !!

— الحب ١١٩

وتنهدت سيدة وأردفت قائلة :

— أجل تجربته . وأسأل الله لك منه السلامة .

— لمه ؟

— لأن أوله حلو وآخره علقم .

— أهذا كل ما تعرفين عنه ١٩

— وماذا تعرفين أنت ؟

— ماذا أعرف ١٩ أعرف أن الإنسان يظل سائرا فى حياته كعابر

صحراء مجدبة قاحلة ، لا يبصر من حوله رجاء ولا أملا ، لا شىء غير

سراب يلمع من بعد ، ويغريه بالمسير وسط الفراغ والوحشة والعدم ،

ليحمله المزيد من مشقة والمزيد من إعياء ، ويستنفد منه جهده وقواه ،

ومرة واحدة يشعر فجأة كأن الصحراء قد مستها يد ساحر ، أو كأن

أنفاس عيسى — كما قال الخيام — قد سرت فيها :

فنفخن الروح فى أرض موات

وجعلن النبت يزكو من رفات

وبعثن الطير يشدو هادلا

فى أريك الأيك مثنى ورباع

ويرى الحياة قد دبّت فى كل ما حوله . فأضحى بريق السراب ماء ،

والخصى لألاء ، والظلمة سناء ، واليباب نضرة وبهاء ، وأضحى ثقل

الناس لطفا ، وسخافتهم ظرفا ، وغباؤهم ذكاء ، وقبحهم جمالا . ولم

يعد فى الحياة إلا كل حلو مستعذب .

إذا كان الإنسان — وهو غالبا ما يكون — كما قلت لك أولا ، ثم

أصابه فجأة ذلك الذى حدثتك عنه ثانية . فاعلمى — بلا جدال أنه أحب ، هل فهمت إذن ما هو الحب ؟

وافتر ثغر « سيدة » عن ابتسامة عريضة وأجابت فى لهجتها الخانية :
— واللّه ما فهمت شيئا ، أتقولين كلاما مثل الذى تقرئينه فى الكتب ، ثم تسألينى إذا كنت قد فهمت ! أنا لا أفهم شيئا من هذا الذى قلته عن الصحراء والماء والحصى .. أنا أعرف الحب ، يعنى الحب ، يعنى بالعربى « حُضْن وبوس » .

— لا يا سيدة ، حرام عليك ، الحب أسمى من أن يركز فى مثل هذه المظاهر المادية ، إن تلك بعض مظاهره ، وقد يكون الحب ، ولا تكون هى .
— افهمى الحب كما تفهمينه .. المهم أنك قد وقعت ، والإصابة لم تصب قدمك ، ولكن أصابت قلبك « ربنا يجعل العواقب سليمة » لأن الإصابة سريعة وحامية .

— الظاهر أنك لا تعرفين شيئا ، إن الإصابة قديمة ، أنا لم أحبه اليوم أو الأمس ، لقد أحبيته منذ سمعته ، كانت أنغامه تطير بى إلى عالم آخر .
كنت أعيش معه أكثر مما أعيش معكم .

— هكذا ! ولم أكن أعلم شيئا عن ذلك « السرحان » .
— هل تدرين ماذا أحسست عندما أنبأتنى أنه هو نفسه الذى يقطن بجوارنا ؟

— بماذا ؟

— أحسست إحساس الذى يتوق إلى الحج ولا يستطيع إليه سبيلا ،
عندما يجد الكعبة قد جاءت له . أحسست أنى حصلت من الحياة على أقصى ما أريد ، وقلت لنفسى إن من الجحود أن أسأل الله شيئا بعد ذلك .
وزادت ابتسامة « سيدة » وضربت كفا على كف وقالت فى دهشة:

— اسمعى يا سيدتى راجية ، الظاهر أن الصدمة لم تصب قدمك ولا

- ٩٥ -

قلبك ، بل أصابت رأسك .. أمأكدة أنت أنك فى تمام وعيك ؟ هذا الحديث لا يقوله إلا الشعراء ، أو المجانين .

- أو المحبين ، وأنا أحب يا سيدة ، أحب .

- سلامتك من الحب ، أدعو أن يكون لمن يكرهونك .

- لماذا ؟!

- لأننى أخشى عليك من الحب ، أعنى من هذا الحب بالذات .

- تخشين على ؟ أمجنونة أنت ؟! تخشين على من الحياة ومن

الأمل ؟

- لا ، يا سيدتى ، أنا أخشى عليك من ضياع الأمل . أخشى عليك

من فقد الحياة .. هذا شىء لا فائدة فيه .. أنت تعلمين أنك مخطوبة .

- لست مخطوبة .

- شبه مخطوبة .

- ولا هذا أيضا .

لا تكونى عنيدة ، ولا مكابرة ، أنت تعرفين جدك تماما ، وتعرفين أنه قد وطد عزمه على أن يزوجه ابن خالتك ، وأنه ليس هناك قوة تستطيع زحزحته عن رأيه . ثم أريد أن أسالك : هل أنت واثقة أن الطرف الآخر خال ؟! ألا يحتمل أن يكون متزوجا !! أو خاطبا !! أو على الأقل ، مشغولا ؟ فلماذا تعلقين نفسك بأمل لا طائل تحته ولا فائدة ترجى منه .

ولست أدري لم لم أفكر فى هذا من قبل ، وأحسست كأنما أوشك أن أهوى من حائق أو كأن الضياء الباهر الذى غمرت به نفسى قد انطفأ فجأة .. ولكن ما لبثت أن نفضت عن نفسى بسرعة غبار اليأس ، وعلام اليأس ، وأنا لم أحدد بعد ما أريد منه ؟ إنى سعيدة بتحقيق أمل سابق ، بل لقد تحقق لى أكثر مما كنت آمل . لقد أصبحت أراه ،

وأسمعه ، وأحس أنه يحيا بجوارى ، وإن النسمة التى تمر بى قد سبق أن مرت به .

ووجدتنى أقول لها بنفس ملوها الثقة والإيمان .

— كل هذا لا قيمة له عندى ، إنها عقبات لا دخل لى بها ، إنها لا تقع فى طريقي . ولا تمنع عنى رجاء ولا تخيب أملا ، إن كل ما آمل فيه هو أن أراه من بعد ، وأن أسمعه وهو يعزف ، إنى لا أطمع حتى فى أن يحس بى ، أو يسأل عنى .

وهزت « سيدة » رأسها ، كأنها لم تقتنع بقولى ، غير أنها لم تر فائدة فى استمرار المناقشة ، ولم تملك سوى أن تضمنى إليها ، متممة ببعض الدعوات التى كانت لاتفتأ تخيطنى بها .

ومضت بضعة أيام وأنا قانعة راضية .. كل ما أطمع فيه هو سماع الحانه واختلاس النظر إليه . أو إشارة سلام وللماء تخية كلما التقت الأبصار .

كنت سعيدة ، ولم ينقص مقدار سعادتى أنى شبه مخطوبة وأنى مقيدة لى إنسان آخر ، لأن مطامعى لم تكن تصل إلى أكثر من مجرد الرغبة فى سماعه أو رؤيته ، ولم أك أثخيل قط احتمال حدوث نوع من الصلات بينى وبينه ، وبالتالى لم أجد ذلك الارتباط قد حال بينى وبين شىء أطمع فيه .

كنت أحيا — كما سبق القول — حياتين : الحياة الآلية الصماء التى أقضيها مع جدى وابن خالتي والتى لا يسعنى سوى أن أقبل كل ما فيها برضاء شكلى ، والحياة الأخرى المرفهة الذائبة التى أقضيها فى الشرفة عندما يحيم الظلام ويبدأ النسيم يحمل إلى الحانه .

وهكذا ظلت قانعة بالصلة الروحية الموسيقية حتى بدرت منه أول بادرة حركت مطامعى وجعلت القلب يتوق إلى أكثر مما كان يقنع به .

لقد أرسل خادمه ليسأل عني وعن قدمي من « سيدة » وأتت إلى « سيدة » متسللة تبغني السؤال ، فأحسست منه فرحة شديدة وطلبت منها أن ترد له السلام وأن تسأله أن يعزف الليلة اللحن الذي كان يعزفه أول ليلة أتى إلى الإسكندرية .

ولم يكن اللحن ذاته هو ما أريد ، ولكنني كنت أود أن أسأله مطلباً وأردت أن أشعره أنه يفعل من أجلي شيئاً .

وفي تلك الليلة كنت أجلس على مقعد في الشرفة ، وقد أريحيت رأسي على حافته ، ورحت من شرودي في شبه إغفاءة ، وكانت تجلس على الأرض بجواري « سيدة » ، وقد اتكأت بذراعها على حافة المقعد ، واللحن يسرى في سكون الليل ، واستمرت الألحان تصل إلى أذني ، وكأنني بها هابطة من السماء ، وأخيراً انتهى العزف ، وساد السكون . وأطلقت بعده تنهيدة حارة أعقبها سؤال من سيدة :

— ما بالك تنهدين ؟

— أنا سعيدة يا سيدة ، سعيدة جداً ، لقد كنت بالأمس سعيدة وأنا أشارك « الملايين » في سماعه ، كنت سعيدة بألحانه التي تصل إلى كما تصل إلى كل إنسان سواي ، كأنها أشعة الشمس أو هبة نسيم ، تصوّر مقدار سعادتي الآن وأنا أحس أنه يعزف لي ، وأنى استمع إليه وحدي ، تصوّر مبلغ سعادتك عندما تحسّن أن الشمس لم تشرق إلا لتضي لك ، وأن النسيم لم يهب إلا ليملأ رئتيك وحدك .

— يا سيدتي زاد الله سعادتك ، أنت طيبة وتستحقين كل خير ، إنني لا أستكثر على الشمس أن تشرق لك وحدك ، ولا على النسيم أن يهب من أجلك ... ولو كان الأمر بيدي لمخوت من صفحتك شوائب الكدر وجعلت حياتك هناء خالصاً .. ولكن الدنيا لا تفعل ذلك ... الدنيا تستكثر علينا النسمة التي يشاركونا فيها الملايين ... فلا تشرق علينا الشمس إلا وقد حرمانها .. ونحن أتم ما نكون صحة .. الدنيا تكره أن (فديتك يا ليلي)

تديم على ابن آدم نعمة .. فتدس له في طياتها النعمة تلو النعمة حتى تغلب النقم النعم .. وأنت يا سيدتى تعيشين فى هذه الدنيا ... وتخضعين لقضائها .. ومن أجل هذا أخشى عليك منها .

— ماذا تخشين على ؟

— أخشى عليك الخيبة والخذلان .

— قلت لك أنى لا أرجو شيئا .. حتى يخيب لى رجاء ... ولا أمل فى .
شئ حتى يضيع لى أمل ... إن سعادتى مستمدة من هنا .. من باطنى ...
من قلبى ... ومن ذهنى ومن سمعى ... ومن تفكيرى ... ومن أحلامى .
— إنى أخاف عليك من أحلامك .. إن الأحلام حلوة والحقائق مريرة ..
وشر ما فى الأحلام أنها تجسد لنا مرارة الحقائق إذا ما فتحنا العين عليها .

— دعينى أغمض عينى برهة .. دعينى أحلم .. حتى أرى ما أحب .. غدا سأفتح عينى وأرى ما سترغمنى الحياة على أن أراه ..
فدعيني أتزود من أحلامى بما يعيننى على مرارة اليقظة .. أنا لا أستطيع أن أرفض نعمة الله التى وهبها لى .. لا أستطيع أن أقتل الإحساس الذى أنعم به علىّ والذى جعلنى أحس بالمتعة فى كل ما أرى .. لا أستطيع أن أوقف ذلك الشعور الذى يجعلنى أمسك منديلا كهذا .. الذى ربط لى به قدمى .. فأضمة وأشمه .. وأشعر منه بنشوة ممتعة ... منديل لا يختلف نسيجه عن نسيج الآلاف من المناديل الملقاة فى جيوبنا .. لانهس لها أثرا .. ومع ذلك فقد جعلته مشاعرى نسيج وحده .. جعلت خيوطه تتنفس وتهمس بأعذب الهمسات وتناجى أرق المناجاة .

ولم أكن مبالغة فى قولى ، فقد كان هذا هو بالضبط ما أشعر به ...
ولذلك لم أحاول أن أحد من مشاعرى ... وأوقف من هيامى .. بل اندفعت فى استسلام ممتع فى أحلامى الجميلة .

ومنذ تلك الليلة ... بدأت الأحلام .. تتخذ طريقها إلى التجسد ..
ونشأت بيننا صلة سؤال وجواب بعون خادميننا : مدبولى وسيدة ..
وأخذت كل ليلة أسأله اللحن الذى أود أن أسمع .
وزاد التعلق وزاد الوله .. ولم أعد أقنع بصحبة الألحان فى سكون
الليل .. وبدأت أطلع إلى صحبة أخرى خلال النهار . ولم يك يصعب
على ذلك .. وأمسكت « باللوحة والفرشاة » وبدأت أرسم صورته ..
وبت بذلك لا أفارقه ، ليل نهار .. بالليل ألحانه .. وبالنهار رسمه ...
أمتع وإياه فى خلوة فى حجرتى .. أجرى « الفرشاة على اللوحة »
لأبرز السمات وأوضح التعابير .

ودخلت « سيدة » وأنا أرسم ، فنظرت إلى الصورة فى دهشة
وضربت صدرها - كعادتها عندما تريد أن تعبر عن الدهشة - وصاحت
فى صوت لا يخلو من الجذع :

- بسم الله الرحمن الرحيم .. من أين أتى هذا ؟

وقلت وأنا أترجع ناظرة إلى الصورة فى إعجاب :

- ما رأيك يا سيدة ؟ أليس بها شبه كبير ؟

- والله ، الخالق الناطق .

- سترين الشبه أكبر عندما تتم الصورة .. ستجدين أنه هو بعينه

يجلس معنا .

- ولكنك ألا تخشين أن يراه أحد ؟!

- لا تخشى شيئا . إن لدى احتياطات الأمن ، انظرى .

ثم قلبت الصورة ، وكان بها رسما كاريكاتوريا لمدبولى .

وضربت « سيدة » صدرها الضربة المألوفة ثم استغرقت فى الضحك

وقالت وهى تتفرس فى الصورة :

- « ينيلك » يا مدبولى .. حتى أنت ترسم فى الصورة « ومالك

ماذا بوزك كالغراب النوحى .. والنبى دمه خفيف يا سيدتى » ... اليوم

- ١٠٠ -

أتى إلى يتسلل من وراء السور وأخبرني أن سيده إبراهيم يسأل عنك ويقول إنك قد أوحشته وأن به شوقا إلى رؤيتك .. ويسأل متى تنوين الوقوف على السور حتى يستطيع أن يتلففك هذه المرة .. فلا تصاب قدمك .

وأحسست من حديثها بنشوة وسألتها .

- أحقا قال هذا يا سيدة ؟

- وحياتك عندي قال هذا . وما الذى يدعوني إلى الكذب ١١٩ .

- أنا أعرف أنك تريد ادخال السرور على قلبى .. ويحتمل أنك

اخترعت الحديث من أجل هذا .

- أنا أحب إسعادك حقيقة ، ولكن ليس بالكذب . أقسم لك أن

هذا ما قاله .. ولقد ظننت فى مبدأ الأمر أنه يحاول بذلك خلق الحديث

معى .. وأنه يريد «جر الشكل» ... وأنا أعرفه خبيثا « بصباصا » رغم

ما يبدو عليه من طيبة .. فقلت له : قل باختصار ماذا تريد ... ولا

تدخل سيدك بيننا ١٢ فأجاب أنا لم أدخله بيننا .. إنه هو الذى أقحم

نفسه .. الظاهر يا سيدة .. أن سيدتك شغلت باله .. فهو لا يفتأ يكرر

السؤال عنها .. ولا أكاد أسمع منه طول النهار إلا « يا مدبولى .. أسأل

على الجيران » .. « يا مدبولى كيف حال الجيران ؟ » حتى لقد ضقت

به والجيران ذرعا .

كان الحديث لذيذا ممتعا على الرغم أنه منقول بواسطتين ... وإن

حرارته خلال النقل قد ضاعت وتفاصيله قد بهتت ، ولكن مع ذلك

أخذت أستفسر منها وأستعيد ، وأستطيع أن أجزم أنى أكرهتها بالسؤال

على تكراره ما يزيد عن عشر مرات وأخيرا سألتها فى استحياء :

- أنظنين حقا أنه يريد رؤيتى ؟

- أنظن حقا ؟ .. وله لا ١٢ .. أهناك فى الدنيا من لا يريد رؤيتك ؟ ماذا

تظنين بنفسك ؟ إنك خير البنات ، إن ذرات الثرى التى تسيرين عليها ..

- ١٠١ -

ولم يكن هذا المديح هو ما أطلب .. ولا كان هذا هو الاتجاه الذى أردت أن أوجه إليه الحديث ... بل كنت أهدف إلى أكثر من هذا .. ولذا لم أجد بدا من مقاطعتها حتى لا تضيق على الفرصة ، فقاطعتها قائلة :
- ولكن كيف يتمكن من رؤيتى إذا كان يريد ذلك !
وتوقفت سيدة عن الحديث ونظرت إلى بعين خبيثة ماسكة فاحصة ، وقالت بلهجة ممدودة :

- أجل .. دخلنا فى الجدل .. كيف يراك ؟ هذه هى المشكلة .. ولكن هل هناك ضرورة لأن يراك ؟
- إذا كان هو لم يرفض لى طلبا من طلباتى التى أثقل عليه بها كل ليلة . أفيحق لى أن أرفض أول طلب له ؟
وأجابت فى لهجة لا تخلو من السخرية :
- لا .. كيف ترفضين ؟ أستغفر الله .
- لا تضحكى يا سيدة ... أنى أتكلم جادة .
- ولكن رؤيته يا سيدتى ليست بالمسألة السهلة .. بل هى أمر مخوف بالمخاطر .. وأنت تعرفين جدك جيدا .
- لن يعرف جدى شيئا .

- إذا دعينا نفكر يا سيدتى .. كيف يراك !! كيف يراك !! على أية حال لن نعدم وسيلة للقاء .. ولكن المهم ألا تكون كالمرءة السابقة من فوق الأسوار .. لقد مرت الأولى بسلام .. ولكن ليست كل مرة .. تسلم الجرة .. دعينى أفكر يا سيدتى راجية كيف يراك !
وقلت لها مقاطعة وقد طاف بذهنى خاطر جعلنى أطيح فرحا :
- اسمعى يا سيدة .. لقد خطرت لى فكرة هائلة .

- غير القفز وشغل « البهلوانات » ؟
- أجل .. أجل .. يوجد معرض لهواة الفنون الجميلة فى الأتليه .. وقد قلت لجدى إنى أود مشاهدته ، فوعد بالتوجه إليه اليوم قائلا إن

— ١٠٢ —

لديه موعدا فى التريانون وأنه سيوصلنى إلى هنالك ثم يذهب هو إلى
موعده ويرسل لى العربية كى أمر عليه بها بعد مشاهدة المعرض ، فما
رايك لو أبلغته أنه إذا رغب فى رؤية المعرض فساكون هناك من الرابعة
إلى الخامسة وأنا نستطيع مشاهدته معا .. ما رأيك فى هذه الفكرة ؟
— هائلة .. واعتقد أنها مأمونة جدا .. ولكن ... هبى جددك غير

رأيه .. ورغب فى مشاهدة المعرض ؟

— لا أظن ... يسمى الفنون كلها مسخرة .. لا تؤكل صاحبها عيشا .
— إذا .. سأذهب لأبلغه ... ولكن خذى بالك . كونى حذرة
جدا .. ولا تتحدثى معه أمام الناس .
— لا تخشى شيئا .

وانطلقت سيدة تبلغ مذبولى النبا .. وجلست أعد الدقائق والثوانى
وانتقل حائرة من حجرة إلى حجرة .. وبى فرحة شديدة ملوها القلق .
وأذكر أنى لم أتناول من غذائى شيئا .. فلانى أفقد شهيتى لأى
انفعال .. سواء أكان حزنا أم فرحا أم غضبا .. وغادرت المائدة سريعا
.. وبدأت أرتدى ملابسى وكانت الساعة لم تزل الثانية والنصف .
وفى الثالثة كنت أوقف جدى من غفوته فوق مقعده الكبير . ونظر
إلى الساعة ثم إلى وقد ارتديت كامل ملابسى :

— ما هذا ؟ الساعة ما زالت الثالثة .. علام كل هذه العجلة ؟
وقلت متلعثمة :

— إن مشاهدة المعرض ستستغرق وقتا كبيرا ... وأريد أن أنتهى منه
قبل حلول الظلام .

— وأين نحن من الظلام ؟

— لانى أحشى أن أترك شيئا دون مشاهدته .

— اطمئنى ستشاهدين كل شىء . أذهبى الآن وارقدى قليلا .

- ١٠٣ -

وذهبت عنه ، ولكنى لم أرقد بالطبع ، بل جلست أرقب عقرب الساعة الذى أقسم ألا يتحرك .

وفى الثالثة والنصف أيقظته مرة ثانية .. وفى هذه المرة نهض وهو ينظر فى غيظ قائلاً :

- لا فائدة من النوم .. إنها غلظتى من أول الأمر لأنى وافقتك على مشاهدة هذه السخافات .

ولم يستغرق منه ارتداء ملابسه أكثر من خمس دقائق وعندما هممنا بالخروج وسيدة ورائى تهمس فى أذنى بنصائحها فوجئت بأخر ما كنت أرغب فى بجمته فى هذه اللحظة .. وهو ابن خالتي عبدالرحمن . ووجدت جدى قد تهللت أساريره وأقبل عليه مرحباً وكنت أعلم أنه يحبه .. فالاثنان كما قلت متشابهان فى التفكير والأخلاق .

وقال جدى مهللاً :

- أهلاً .. أهلاً .. أتيت فى وقتك .. لقد كنا ذاهبين إلى البلدة .. لأن راجية ترغب فى مشاهدة الأتيليه وكنت أنوى أن أوصلها وأذهب إلى التريانون ، فهيا معنا لكى تصحبها إلى هناك بدلاً من ذهابها وحيدة . وسمعت سيدة تهمس قائلة : « جالك الموت يا تارك الصلاة » .. والواقع أن وصول عبد الرحمن فى ذلك الوقت كان شراً من الموت لقد كان أشبه بسكين حاد قطع خيوط أمل شدتني إلى السماء ... فهبطت فجأة وارتطمت بالأرض .

وأجاب عبد الرحمن وهو يضع منظاره على عينيه :

- كنت أريد أن أعرض عليك بعض مسائل وأطلعك على بعض الحسابات . ألا تجلس قليلاً ؟

وصحت وأنا فى ضيق :

- لم يعد هناك وقت .

وأجاب جدى عندما أحس بضيقى :

— ١٠٤ —

— دع هذا حتى عودتنا .. هيا بنا .

وخرجنا نحن الثلاثة فركبنا السيارة .

ولم أكن أكره عبد الرحمن ، بل على النقيض .. كنت أحس له بما تحسه الأخت لأخيها . فقد أمضينا معا معظم طفولتنا وصبانا ، ولكنى كنت أكره مذهبه فى الحياة وطريقة إحساسه بها .. وإغراقه فى عمله واعتبار كل شىء عداه توافه لا قيمة لها .. وقد يكون هو غير مخطئ .. وقد يكون الواجب على الإنسان أن يكون كذلك . وقد أكون أنا الشاذة بتفكيرى ، المراهقة بإحساسى الفياض .. فلست أزعم عندما أقول إنى أكره طريقته فى الحياة أنه هو الخاطئ وأنا الصائبة .. ولكن كل ما هناك أنى كنت أحس أننا مخلوقان متباينان .. وأن ميولنا شتى .. وأهواءنا متفرقة ولذلك كنت أتجنبه ... وأتجنب مناقشته أو الحديث معه .

ولكن فى هذه اللحظة كنت أحس بضيق شديد منه .. فعلى الرغم أنه لا ذنب له فى حضوره فى هذا الموعد .. فهو بلا شك لا يعلم أنى ذاهبة لأرى إبراهيم — والحمد لله أنه لا يعلم — ومع ذلك لم أبرأ من كرهه والسخط عليه .

ويبدو لى أن الضيق الذى استبد بى ساعتذاك قد ارتسمت معالمه على وجهى حتى أن جدى لم يملك أن سألنى فى دهشة :

— ما بك يا راجية ؟

وأفقت لنفسى .. وأدركت أنى يجب أن أكون على حذر شديد .. وألا أترك العنان لمشاعرى حتى تبدو جلية على وجهى .. ولم أملك إلا الاعتذار بأقرب عذر طرا على ذهنى فقلت له :

— ألم بى صدام مفاجئ .

— أتخمين أن نعود بك ؟

— لا .. لا .. إنه سرعان ما يزول .

أجل إن رؤيته ، ولو من بعد .. خير من ألا أراه .. وإنى أكره أن يقول إنى أخلفت موعدى ولم آبه له .

ثم ... من يدري !؟
وكانت « من يدري » هذه .. هى أملسى الدائم ورجائى الأخير ..
فى عالم الغيب المعتم بظلمات اليأس .
أجل إن كل ما لم يكشف عنه الغيب .. مهما بلغ يأسنا منه .. قد
ننتظر منه شيئا .

وهكذا جلست فى العربة .. آمل فى ذلك الشيء .
وأخرجنى من شرودى صوت عبد الرحمن يقول لجدى :
- كنت أريد أن أشرح لك مسألة السماد .. لأن بنك التسليف
رفض أن يسلمنا ، وكذلك كنت أرغب فى أخذ رأبك فى أسهم شركة
الحرير ... ومعى الآن تقرير مصلحة الضرائب .
ولمحتة يخرج ورقة يعرضها على جدى .. ولم أكن أفهم شيئا من
حديث السماد ولا الضرائب ، وكان هذا هو حديثهما الدائم .
وشرد بى الذهن مرة أخرى فى أشياء أقرب إلى نفسى من السماد
وشركة الحرير وغيره مما يتحدثان فيه .. ولم أفق إلا وقد وقفت العربة
أمام الايتالييه .. وفتحت باب العربة وقفزت إلى الرصيف ، وعبد الرحمن
ما زال منهما فى شرح بعض الأوراق لجدى ، وقلت أستحثه .
- هيا يا عبد الرحمن .

- دقيقة واحدة .
ثم استمر فى حديثه إلى الجدة :
- يبقى بعد هذا خمسة آلاف وخمسة وتسعين جنيها مضافا إليها
خمسة عشر فى المائة عمولة الشركة .. فيكون جملة الحساب ..

وصحنت به فى ضيق :
- أنا واقفة يا عبد الرحمن .
- آ .. أهذا هو الايتالييه .. ماذا به ؟
- والله لست أدري ماذا به .. به صبور بالطبع .
- صبور ...

- ١٠٦ -

ثم التفت إلى جدى الذى كان منهمكا فى فحص الأوراق ووجه إليه الحديث :

- أظن توجل المسألة حتى نعود لأن راجية متعجلة .
ولكن يبدو أن جدى كان منهمكا فى الأوراق التى ألقى بها عبد الرحمن إليه فقد وجدته يقول دون أن يلتفت حوله :
- لكنى لم أفهم بعد حساب ألف الجنيه ... أى دخل لها فى جملة الأيراد ما دمت قد خصمت النسبة المطلوبة !
وبدا صبرى ينفذ .. فصحت بجدى :

- بعدين يا جدى تقدر أن تفهم .. ليس هكذا فى الطريق .
ويبدو أن جدى قد استغرق فى الأوراق بكلية إذ لم تبلغ صيحتى أذنيه ووجدته ما زال مستمرا فى توجيه الحديث إلى عبد الرحمن قائلا :
- وثانى شيء .. مسألة الضرائب هذه .

وكان عبد الرحمن قد أدرك مبلغ ضيقى ومبلغ استغراق جدى فى مناقشته فأراد أن يضع حلا للمشكلة ... وكان أسعد حل يمكن أن يوضع ما سمعته يقوله :

- أظن الأفضل أن تدخل أنت يا راجية .. ودعيني أنا أرافق جدى لتكملة الحساب .. أنا فى الواقع .. ليس لى فى المعارض .. ولا فى الرسوم .. تفضلى أنت يا راجية .

وكأن قوله كان حكما بالإفراج عنى وإطلاق حريتى .. وأحسست أنى أكاد من الفرحه أقفز إلى الداخل وهممت بأن أستدير إلى الباب عندما سمعت جدى يقول فى يسر :

- .. لا .. دع الحساب إلى وقت آخر .. انزل معها أفضل .
وهكذا .. فى نفس الوقت ... ألغى حكم الإفراج وتبدد الأمل .. ولم أملك إلا أن أدير ظهري إلى العربة وأتقدم إلى الداخل .. وخطواته تطرق الأرض ورائى .. وظله يتبع ظلى .

الفصل السادس

مقيم فى الذاكرة

نفذت من الباب الحديدى « للأتيليه » وعبرت الحديقة الصغيرة ثم صعدت سلمه الرخامى المنحنى القائم أمام البناء الأصفر العتيق ولمحت الساعة فى يدى فوجدتها الساعة الرابعة وعشر دقائق ، وكان السلم خاليا إلا منى ومن عبد الرحمن الذى كان يصعد ورائى فى تشاقل المكلف عملا يضيق به .

ودلفنا من الباب الخشبى المفضى إلى (صالة) العرض الرحبة ولم يكن المكان قد ازدحم ، فأخذت أقلب النظر يمنة ويسرة ، ويدو أن وقفنى قد طالت إذ سمعت صاحبى يقول بصوت متبرم :

— مالك حائرة ؟ . أتبحثن عن شىء ؟

وحاولت جهدى أن أخفى ما بى من اضطراب وارتيابك وقلت متصنعة الهدوء :

— لا ... إنى أسائل نفسى من أين أبدأ .

— أهذه مشكلة ؟ أبدأى من أى مكان وتنتهين حتما إليه .. أبدأى

من هنا .. من هنا . أليست كلها صورا ؟

وأجبتة فى ضيق :

— لا يا أستاذ .. ليست كلها صورا .. إنها مذاهب ودراسات لا بد

أن أبدأ بالناحية المهمة .

وهنا بدت لى — بما لا يقبل جدالا ولا شكاً — الناحية المهمة ...

بل المهمة جدبا ، إذ أبصرت إبراهيم يقف فى أحد الأركان وهو يتطلع

بقامته المشوكة إلى إحدى الصور .

— ١٠٨ —

وأصابني الاضطراب .. لست أدري لم ... مرة شئت أن أمرا متوقعا .. بل مرجوا ومأمولا .. فعلام الاضطراب إذا ؟
وحاولت جهدي أن أتمالك .. ولا سيما وأنا أرى تدمر عبد الرحمن قد زاد وهو يقول في ضيق :

— ألم ترى بعد الناحية المهمة ؟

ويقدر ما استطعت من السهولة أحبته :

— أجل وجدتها .. لنبدأ من هذا الركن .

وأشرت إلى الركن الذى وقف عنده إبراهيم ثم انجهد إليه ،
وتساءل عبد الرحمن وهو يهرول ورائى :

— ولم هذا الركن بالذات ؟ .. هل أستطيع أن أفهم أهميته ؟

وكنا قد اقتربنا من الركن ولمحت به بعض العصور « السبريالية »
فأجبت في لهجة الوثيقة :

— إن به بعض دراسات هامة للمذهب « السبريالى » ...

— « سبريالى » .

وتطلع إلى الصور المعلقة ثم قلب شفتيه احتقارا ورفع نفيه عجباً
قال :

— هذه « اللخطة » اسمها « سبريالى » !! أما أستطيع أن أفعل
مثلاً بسهولة .

— اخفض صوتك .. من فضلك .. إذا كنت تحب العلى .. فكف
عنه لسانك .. ولا تفضحنا ، وإذا كنت تستطيع أن ترسم مثل هذه
الصور فمن الذى منعك من رسمها ؟

وكنت قد اقتربت من إبراهيم .. حتى وقفت بحذاءه .. ولست
أدري إذا كان لم يرني ... أم أنه رأى وبصحتى عبد الرحمن فحاول
ألا يلتفت إليّ .

— ١٠٩ —

وأخذت أتطلع إلى إحدى الصور وذهني شارد .. وتفكيري مضطرب .. وأعصابي متوترة ، ولم يحل كل هذا بيني وبين شعور بالمتعة تسرب إلى نفسي من مجرد إحساسى بأننى واقفة بجواره ، رغم أنى لا أراه واحتمال انتقاله من موضعه .

ولا شك أن الوقفة قد طالت فقد وجدت عبد الرحمن يخرج زفرة ملل ثم يهمس إلى فى صوت حاول جهده أن يخفضه حتى لا يسمعه سوى :
— وبعد !! إلى متى هكنا ؟ .. ألا تنوين التحرك من أمام هذه الصورة ؟
وأفقت من شرودى ... لأهمس إليه فى برود :
— دعنى أشاهد كما أشاء .

— ولكن إذا وقفنا أمام كل صورة هذه الوقفة فلن يكفينا عام لمشاهدة المعرض كله .

— أنا لا أستطيع المشاهدة إلا هكذا .
— ثم إن الصورة لا تستحق كل هذا التطلع .
— أنا لم أرغمك على التطلع إليها .. أمامك المعرض متسع ...
تطلع إلى ما يعجبك .. وإذا لم يعجبك المعرض كله فيمكنك مغادرته ..
لم يرغمك أحد على الحضور .

ويبدو أن رنة الغضب فى همسى كانت واضحة .. وكان عبد الرحمن بطبعه مسالما غير ميل إلى العناد أو المشاكسة .
ولذلك لم يلبث أن قال فى هدوء :

— أنت وما تشائين .. شاهدى ما يعجبك .. وباتى فى المعرض إذا أردت . سأشاهد أنا بقية الصور .

ثم أخذ فى الابتعاد عنى ملقيا نظرات سريعة عابرة على الصور المعلقة .

وأحسست من ابتعاده بعض الحرية ، فالتفت يمنة إلى حيث كان يقف إبراهيم فوجدته يتنقل اتجاهاً ببطء وهو يرقب الصور كأنما

- ١١٠ -

انتقاله طبيعى غير مقصود ، فلما اقترب منى التفت إلى نصف التفاتة وهمس قائلاً :

— نهارك سعيد يا راجية .

ومرة أخرى — رغم اضطرابى الشديد — لم أستطع منع شعورى بالمتعة وأنا أسمع اسمى يخرج من شفثيه .. وأحسست بشيء من الزهو باسمى وهو ينطقه هكذا مجرداً . وأجبت فى مثل همسه :

— نهارك سعيد يا أستاذ .. أنا متأسفة جداً لأنى لا أستطيع مصافحتك أو الحديث معك ، لأن ابن خالتى معى .. كنت أنوى المحبى وحدى ، ولكنه صادفنا ونحن خارجون من البيت ... فدعاه جدى إلى مصاحبتى .

— لا داعى للأسف .. نحن على أية حال استطعنا أن نلتقى .. وأن يرى كل منا الآخر .

وهنا رأيت عبد الرحمن يقترب .. بعد أن شاهد بطريقته السريعة كل المعرض ، ولم يستطع أن يخفى علامات الضيق والامتعاض ولا حاول أن يخفض صوته إلى درجة الهمس بل قال فى ضيق :

— كفى حملقة . فى هذه السخافات التى تسمينها « السيراليزم » . وانتقلت خطوة اتجاهه .. فقد شعرت هذه المرة أن الوقفة قد طالعت فعلاً وأنها لم يعد لها مبرر بعد أن اعتذرت لإبراهيم .

وكانت وقفى أمام صورة أخرى من الرسم السيرىالى أكثر تعقيداً من الأولى .

ويبدو أن عبد الرحمن قد توهم أن وقفى أمام الصورة الأخرى ستطول كالوقفة الأولى .. وأن هذا قد جعل صبره ينفد وصدده يضيق وحلمه يصل إلى نهاية فقد قال لى فى حنق :

- هذه ليست طريقة يا راحية .. كأننى بك لا تشاهدين بل تتعمدين
إثارتى .. أى شىء يمكن أن يوقفك أمام هذه الصورة كل هذه الوقفة ١٩
ماذا يمكن أن نرى فى هذه « اللخبطة والشخبطة » ١٩ .
ولم أكن غاضبة بالقدر الذى أحببت به ... ولكن كان على أن أدعى
الغضب حتى أجعله لا يتمادى فى طريقته وحتى أوقفه عند حده . قلت
له :

- ما شاء الله ... أتتوى أن تفتح لى تحقيقا فى كل صورة أقف
أمامها .. شىء عجيب !!... أجعلوك قيما على ... إنك تنظر إلى
الصور نظرة خاطفة لأنك لا تفهم ما بها .. أمعقول أن تشاهد المعرض
كله فى هذه الدقائق التى مررت به خلالها ١٩.. إنك تنظر إليها كما
تنظر إلى إعلانات الحائط فى الطرقات ونحن نمر بها راكبين السيارة
... ولكنى أنظر إليها نظرة تمعن وفحص .. إنى أشاهدها مشاهدة
نقد ودراسة ... هذه هى طريقتى فى المشاهدة ... وأنا أحس منها
بمتعة كبيرة .

- ولكنى لا أشعر أبدا بهذه المتعة .. فما ذنبى أنا ؟
- ما ذنبك ؟ .. ومن الذى أجبرك على المجيء ١٩ أنا لم أضربك
على يدك ولم أربطك من عنقك .. إذا كنت لا تحتمل البقاء فاذهب
إلى حيث تريد .. ودعنى أشاهد على مهل .. بدل هذا الضيق الذى
تبديه فى كل لحظة والتحقيق الذى تفتحه أمام كل صورة .
والظاهر أنه كان قد ضاق بى فعلا .. إذ لم يكذب يسمع منى هذا
العرض حتى قال :

- وهذا ما سأفعله .. لأنى قطعا لا أحتمل الصبر على هذا الحال ..
سأذهب إلى مأمرية ناحية الحمراء .. لأقضى عملا مفيدا بدل هذا
التسكع الذى أتسكعه بجوارك وسأتى إليك بعد ساعة ... أظنك
تكونين خلالها قد اكتفيت مشاهدة ؟

ساعة مرة واحدة !! لقد كان هذا أكثر مما أتصور ... ولم أشأ أن أبدأ فرحة زائدة حتى لا أتير شكوكه بل رفعت كتفى وبصرى معلق بالصورة وقلت فى غير اكتراث :

— كما تشاء .. سأنتظرك حتى تعود :

وأولانى ظهره رافعا عنى القيد ، وانطلق ، وأحسست أنا بزوال الغمة .. وانتابنى شعور لذيذ .. وأحسست بالرغم من امتلاء المعرض بالزوار .. بشعور العاشق فى أول خلوة له .. وانتظرت لحظة حتى أعطى لسجاني فرصة الخروج .. ثم بدأت أتلقت حولى باحة عن إبراهيم . وتملكنى خذلان شديد إذ لم أجد له أثرا .

أيعقل هذا ؟! ألهذا الحد بلغت سخرية الظروف وجنونها ؟! ولم لا ؟.. ألا يعقل أن يكون قد انصرف بعد أن أنبأته بأنه ليس هناك فرصة لكى أحدثه ؟! ثم هو لم يأت لمشاهدة الصور وإنما أتى للقاءى .. فلماذا يبقى بعد ما حدث !!

ولكن ما ضره لو بقى بضع لحظات أخرى !! أهكذا قد ضاق بى سريعا ؟!

وكانت كل هذه الخواطر تتزاحم على ذهنى ... وبصرى يطوف بأرجاء المعرض .. باحثا منقبا .

أجل .. أجل يجب أن أبحث جيدا .. فقد يكون مختفيا وراء هذا العمود .. أو مندسا وسط هذه الثلة .. أو .. ربما فى هذا الركن أو فى هذه الزاوية .

واندفعت كحمقاء .. أبحث هنا وهناك .. ولم يكن المكان بالاتساع أو الأزدهام الذى لا أستطيع أن أتبين فيه إبراهيم من أول نظرة .. ولكنها بقية من أمل جعلتنى أبحث عنه كأنه « إبرة » فى كوم من التبن . وأحسست بصدرى يضيق .. واتجهت نحو الباب أنفس عن كربى عندما رأيته يعبر الباب إلى الداخل .

- ١١٣ -

وتنفست الصعداء ... وكدت أعدو إليه لأسأله أين كان ، ولكنى
تمالككت حتى اقترب منى .. ومد يده فشدد على يدي .

وتركت يدي تستريح برهة فى يده ، ووددت ألا أنزعها من كفه ،
ولكن أعين الناس - التى أحسست فى تلك اللحظة بأنها تركت الصور
وتركزت على يدينا - أجبرتني على أن أسحبها منه .

وقلت له فى لهجة تأنيب :

- أين كنت ؟

وأجاب ضاحكا :

- كنت أوصله .. لأتأكد من عدم رجوعه .

- لقد بحثت عنك كثيرا .. وبحثت من لقائك ... إذ خشيت أن

تكون قد انصرفت .

- أنا أنصرف ؟ .. أنصرف .. وأنت باقية ؟!

وبدأت النشوة تتدفق إلى رأسى .. وأخذت أوجه دفعة الحديث

بحيث أستدرجه إلى منحنى أكبر قدر من المتعة .. قلت متسائلة :

- ولم لا .. قد تكون لديك أمور أهم ؟

- أهم من رؤيتك .. ؟!

- أتعبر رؤيتي أمرا هاما ؟

- ليس هاما فقط .. بل حيويا .

- برغم وجود ابن خالتي وبرغم أنه لم تكن لدينا فرصة الحديث ؟

- أجل برغم هذا .. لقد أطربنى مجرد إحساسى بوجودك معى فى

مكان واحد .. ولو لم أنظر إليك أو أرك .

وكدت لا اصدق أذنى .. عندما رغبت فى استدراجه لم أكن أطمع

قط فى مثل قوله .. أترأه حقا يعنى ما يقول ... أم تراها مجرد ألفاظ

غزل .. يجيدها مثله !!

وعدت أستدرجه ... ورأسى يدور كالسكرى ... قلت له هامسة :

— ١١٤ —

— أحقا تقول هذا ؟

— ليس هذا فقط .. فى بضعة الأيام الماضية ... كنت أشعر بالمتعة ... من إحساسى بجيرتك ... لقد أصبحت أحب هيكلك بيتك ... وأعارض قول الشاعر الذى قال : « وما حب الديار شغفن قلبى » .
وكنا فى ركن ناء ... ولم يكن حولنا أحد .. ولو كان ما أحسنا .. فقد كنا — أو على وجه أدق — كنت شبه هائمة .. فقدت كل إحساس إلى إلابه ... وبهمساته .

وكان قوله أكثر مما كنت أحتمل .. ولم أعد — ذائبة كما أنا ، مرفهة الحس كحد السيف — بالقادرة على الاستدراج ونصب الشباك ووضع الخطط ، ووجدتني أ همس إليه ... وبصرى معلق فى صورة أمامى دون أن أشاهد منها شيئا :

— أنا أيضا أحس بنفس الشعور ... ولكنى كنت أسبق إليه منك .. كنت فيما مضى أشعر بنشوة إذا ما سمعت ألعنانك ... كنت أحتاج لموسيقاك لكى تشعرني بالحياة والسعادة ... أما الآن ... فإننى أحس بالسعادة دون أن أسمعك .. أحس بها بمجرد التفكير فيك .. فإذا ما علمت أبى لا أكف عن التفكير فيك لحظة .. وأبى أفكر فيك يقطى وأحلم بك نائمة .. أدركت أبى فى سعادة دائمة .. لا ينضب لها معين ولا يجف لها نبع ... سعادة مستمدة من لا شيء .. من الأوهام والأحلام .

— إذا فلم يعد بك حاجة إلى سماعى ؟

— لست أقصد هذا .. إنما أقصد أن كل شيء منك ممتع .. إذا صمت عنى فأنا سعيدة .. وإذا عزفت لى فإن سعادتى أوفر وأكمل .. أتعرف معنى أن تعزف لى وحدى ؟. أيمكن أن تدرك أثر هذا ؟
— وهل تعرفين معنى أن أعزف لك أنت !! وهل تعرفين أثرى على .. على عزفى وتلحينى !! لقد بت أشعر أبى أعمل من أجل شيء ..

- ١١٥ -

وأنى أعزف لإنسان أتوق إلى إرضائه ، ولذلك يخيّل إلى أننى فعلت شيئا أفضل .

- لا أظن هناك أفضل مما سمعت .

- بل هناك قطعة أتممتها أبجيرا .. أعتقد أنها ستكون خير ما وضعت .

- ما اسمها ؟

- راجية .

- راجية !!

واعجبا !! - أحقا يقول هذا ؟ أحقا وضع قطعة من أجلى ؟ وباسمى !! وخفضت رأسى عن الصورة التى كنت أحملق فيها .. وتملكتنى رغبة جارفة فى أن أستند إلى ذراعه وأضع رأسى على كتفه ، ولكن أحد الزوار اقترب منا ، فخطونا إلى الناحية الأخرى بضع خطوات قادتنا إلى خلوة أخرى .

وعدت أهتف به وقد تلاحقت أنفاسى من فرط الفرحة :

- أتقول حقا ؟

وحول إلى عينيه وعلت وجهه ابتسامة وأجاب فى رقة :

- طبعاً أقول حقا .. ماذا يدهشك فى ذلك ؟

- هذا أكثر مما كنت أرجو ، بل أكثر مما كنت أحلم . أكثر كثيراً

.. لست أظننى أستحق أن تضع من أجلى لحنا .

- لقد وضعته دون أن أفكر فيما إذا كنت تستحقين أو لا

تستحقين ، فعندما يشغل ذهن الفنان شيء بذاته .. ويسيطر على تفكيره

.. تجددين هذا الشيء قد برز فى عمله وألصق به طابعه دون أن يقصد

.. هذا الشيء هو ما يسمونه الملهم .. وأظن أن من أبسط أصول

الدوق واللياقة أن يسمى الإلهام باسم الملهم .. أو الملهمة . أعرفت

بعد هذا إذا كنت تستحقين أو لا تستحقين ؟

- ١١٦ -

ولم أعرف كيف أجيب فقد كنت أشبه بالنملة .. ولماذا أشبه وأنا
أؤكد أن أعتق أنواع الخمر لم تكن تفعل برأس شاربها مثل ما فعل
حديثه ... ورفعت رأسي إلى وجهه وتذكرت الصورة التي رسمتها له
وقلت له في حياء :

- أنا أيضا .. كان لدى شيء يشغل ذهني ويسيطر على تفكيرى ولا
أكاد أتخلص من سيطرته لحظة واحدة .

- وماذا فعلت ؟

- كما فعلت أنت .. ولكن بطريقتى الخاصة .. الطريقة التى أقدر
عليها .. لقد رسمت صورتك .

- أتقولين حقا ؟

- أقول حقا !! هل تصدق أنى لم أكن أستطيع أن أفعل شيئا سوى
رسمك .. وأنى عندما بدأت .. أخذت أتباطأ وأتمهل خشية أن أنتهى
منه .. وأفقد بذلك نوعا من صحبتك ... واستحضارك فى ذهنى .

- أرسمتنى من الذاكرة ؟

- طبعا !

- وأجدت الشبه !

- جدا .

- عجباً !

- أى عجب فى ذلك !! أفى أن أرسمك من الذاكرة عجب ؟ إنك
أثبت فى الذاكرة من أى شيء آخر .. أنت مقيم فى الذاكرة .

- إقامة دائمة ؟

- للأبد .

- ليت هذا يتحقق ... إنك مخلوقة عجيبة ... تختلفين تمام
الاختلاف عن غيرك من البشر .. يبدو لى أنك لم تخلقى مثلهم من
طين ، بل من شعاع ، وأن تكوينك ليس من دم ولحم ، ولكن من

مشاعر وأحاسيس .. إنك أشبه بالنسمة العطرة السارية .. منك بالبشر
... ومن أجل هذا أخشاك .

— تخشاني أنا ؟

— أجل .. أخشى « ساطتك » ورقتك .. وقدرتك العجيبة على
التسرب في دمي ... لقد تسللت إلى مشاعري دون أن أشعر ..
أتدريين كيف يتسلل النوم إلى جفونك .. ويتركك نائمة دون أن تعرفي
متى نمت ولا كيف نمت ؟ ... لقد فعلت أنت بي هذا ... مرة واحدة
لقيتك فيها .. خيل إلى بعدها .. أن بيننا ود قديم ، وصلة وثيقة ..
ووجدت أن رؤيتك كل يوم في شرفة منزلك قد باتت فرضا واجبا عليّ
.. ألا أخشاك بعد كل هذا ؟

— إذا كان لي أن أخشاك .. فعليك أن تخشاني .. وما دمت لا
أخشاك .. ولا أخشى في شعوري نحوك أحدا .. فلا أظن أن هناك ما
يدعو من خشيتي ... بل لا أظن برغم ما قلت أن بي ما يخشى .
ومرة أخرى بدأ الزوار يزدهمون حولنا .. فأخذنا ننتقل جانبا خطوة
بعد خطوة .. ولكننا لم نجد لأنفسنا خلوة كالسابقة ، ولم تعد الفرصة
سانحة للمناجاة ، وخشيت أن يحضر عبد الرحمن فنفترق فجأة دون
أن نتفق على شيء فقلت له :

— متى سأسمع القطعة الجديدة ؟

— الليلة إذا شئت .

— أية ساعة ؟

— الثامنة .. أو التاسعة ؟

— لتكون التاسعة .. إذ نكون قد انتهينا من العشاء ، وآوى جدى إلى

حجرتة .

- ١١٨ -

وزاد الأزدحام حولنا ، وازدادت خشيتي من عودة عبد الرحمن ،
وكنت أود لو نتفق على موعد لقاء آخر .. ولكنى كنت أحتج من
سؤاله .

وصمت برهة متشغلة بمشاهدة صورة سلطت عليها عيني دون أن
أفقه ما بها .

وقطع هو هذا الصمت بسؤاله :

- ألا أستطيع أنا أن أرى الصورة التى رسمتها ؟

- طبعاً .. عندما أنتهى منها سأرسلها لك .

- ترسلينها !! أنا لا أريدها وحدها .

ودق قلبى .. فقد وجدت أنه يوشك أن يعرض ما أهفو إليه ولكنى

تساءلت متجاهلة ما يقصد :

- وماذا تريد معها ؟

- أريد أن أراك معها .. أو على الأصح أراها معك .

ونظرت إليه باسمة وأجبت :

- لا أظن من السهل أن ترانا معا .. فلست أدري كيف أحملها لك .

- إذاً أراك أنت .. لاضرورة لأن تتعبى نفسك بحملها .. أظننى

أستطيع أن أستغنى عنها إلى حين ... ليس أسهل على من أن أبصر

صورتى ... فما أكثر المرايا فى الدار ... أما أنت فزويتك نادرة ..

وبدأت أفكر ... كيف يمكن أن ندبر فرصة للقاء ، والإنسان دائماً

عندما يحاول التفكير فى حل لسؤال سريع .. تسد أمامه جميع السبل

وتهرب كل الحلول .. كيف ألقاه ؟ ... كيف ألقاه ؟

وأردف هو يستحثنى :

- لم تقولى كيف أراك ؟

- دعنى أفكر .. إن المسألة ليست سهلة .. لا بد من تفكير وتدبير .

- ألا تخرجين من البيت ؟ ألا تذهبين إلى السينما ؟

- ١١٩ -

- أجل أخرج .. ولكن لست وحدى ... لا بد أن يصحبني جدى
أو عبد الرحمن .

- ألا تذهبين وحدك أبدا إلى أى مكان ؟

- وحدى !! لا أظننى أذهب إلى أكثر من ماريكا .. ومع « سيدة » .

- ماريكا ؟ أحيطة هذه ؟

وضحكت وسألته فى دهشة :

- ألا تعرف ماريكا ؟. أتمكث فى السيوف هذه المدة ولا تعرف

ماريكا ؟

- والله لم أسمع بها ... أهى قديسة كسانت تريزا مثلا ؟

وأضحكنى قوله هذا أكثر .. ولم أتمالك نفسى من القهقهة .. ورأيت
يحدق فى وجهى دهشا وتساءل ضاحكا :

- اسمعى يا راجية .. قولى من تكون وأريحينى .. أم تريدان أن

نضيع اليوم فى حديث عن ماريكا ؟

- أنها صاحبة « الكشك » المرطبات عند المنتزه وسط تفتيش

السيوف قرب محطة الأوتوبيس .. هل عرفت ماريكا ؟

- والله أعرف « الكشك » الذى تقولين عنه .. ولكنى لم أتشرف

بمعرفة ماريكا بعد .

- لا ضرورة للتشرف بمعرفتها ... لأنها لا تمكث فى « الكشك »

إلا نادرا ، ولكن الكشك ما زال يسمى باسمها .. نحن تعودنا أن

نسماه هكذا .

- إذا فهى امرأة خالدة .

- ستكون خالدة منذ الآن .. بعد أن نلتقى عندها .

ونظر إلى بطرف عينيه وتساءل فى خبث :

- ومتى تنوين تخليدها ؟

- ١٢٠ -

- أنى أخرج للسير عادة فى الحقول مع « سيدة » قبيل الغروب ... ثم ينتهى بنا المطاف إلى ماريكا ، ثم نعود بعدها إلى البيت .
 - إذاً نلتقى غدا لنجول معا بين الحقول ؟
 - ولكن .. أخشى أن يرانا أحد من أهل المنطقة .
 - لا تخشى شيئا .. إن المنطقة خراب ... لا أكاد أبصر بها إنسانا .. متى نلتقى ؟
 - فى الخامسة ... سأنتظرك ومعى « سيدة » عند ماريكا ، ثم نبدأ سيرنا من هناك .
 ونظرت إلى الساعة فى معصمى فإذا بالوقت قد طار .. وإذا الساعة قد مرت فى لمح البصر .. وأصابنى قلق وتلفت نحو الباب خشية أن يكون عبد الرحمن آتيا ثم قلت له فى ارتباك :
 - أظن الوقت قد حان لكى نفترق .. إن عبد الرحمن يوشك أن يأتى .
 - سأنتظرك فى الخامسة ؟
 - إن شاء الله .
 ولم يكذ بيتعد عنى بضع خطوات حتى ظهر عبد الرحمن فى الباب يتلفت باحثا عنى .. رفعت يدى ملوحة له ... واتجهت إليه فى خطوات خفيفة سريعة .. وأقبلت عليه هاشة باشة .
 لقد أحسست من فرط نشوتى أنى أحبه .. بل كنت أحب جميع الناس .. والصور والتماثيل ، والحراس .
 وكان الكره الذى سبق أن شعرت به عند حضوره المفاجئ .. قد قلب امتنانا له وتفاؤلا به ... بعد أن منحنى تلك الساعة التى حصلت فيها على أقصى ما كنت أتصور أن أحصل عليه .
 وسألنى عبد الرحمن ضاحكا :
 - أما زلت تدرسين « الشخبطة واللخبطة » ؟
 وضحكت وأجبته :

- لا . لقد انتهيت منها .. إنى على أتم استعداد للرحيل معك .
 - وأنا على أتم استعداد للحملقة معك كما تسألين .
 وسحبته من ذراعه واتجهنا إلى الباب وأنا أقول :
 - لا داعى للسخرية ... أنا لا أسخر من حساباتك التى تقضى
 الساعات شاخصا بها .. ولا أسخر من أوراق السجاد وتقارير الضرائب
 وغيرها من « اللخبطة والشخبطة » التى أنت غارق فيها .
 وأجاب عبد الرحمن ضاحكا :
 - ولكنها .. لخبطة مفيدة ومريحة .
 - مريحة للجيب .. ولكن « لخبطتى » مربحة للنفس والذهن .
 وكنا قد وصلنا إلى العربة وانطلقت بنا لتأخذ جدى من التريانون ثم
 نعود إلى البيت .
 وفى الثامنة انتهينا من العشاء وتسللت من غرفة الجلوس تاركة
 جدى وعبد الرحمن فى حساباتهما مدعية أن النوم قد أثقل جفونى ثم
 آويت إلى حجرتى وارتديت ثياب النوم وخرجت إلى الشرفة ..
 وجلست على مقعدى المريح أنتظر حضور سيدة إذ كان بى لهفة على
 أن أقص عليها المعجزة التى حدثت .. وبعد لحظة أتت سيدة ... ولم
 تكن لهفتها على السماع بأقل من لهفتى على الحديث .
 وبدأت أجتر ما حدث ... شاعرة من قصه بما يشابه متعة حدوثه ..
 وعجبت لنفسى كيف استطعت أن أحفظ أحاديثه كلمة كلمة .. كأنها
 قطعة محفوظات كلفت حفظها .. بل أكثر من هذا .. كانت كأنها
 ثروة حصلت عليها بعد طول حاجة وحرمان ، فأنا أخشى أن أبدد منها
 دانقا ... وأحرص كل الحرص على أن ألمها فى الذهن وأحفظها فى
 الذاكرة .
 وكانت سيدة سعيدة بسعادتى .. تربّت يدى وتحسس شعرى وأنا
 أقص عليها .

- ١٢٢ -

ولم أكد أنتهى من الحديث حتى سمعت دقات على البيانو وأدركت أنه سيبدأ العزف .. فقلت لسيدة :

— أغلقى الباب .. وأنصتى جيداً ... حتى تسمعى إلى « راجية » .
— لقد مضت ساعة وأنا أستمع إلى راجية .. ألدك شىء أكثر مما قلت ١٩

وضحكت وقلت لها ساخرة :
— يا جاهلة ... أنسيت ... ألم أقل لك إنه فى الساعة التاسعة سيعزف لى القطعة التى وضعها باسمى ؟
وبدا العزف .. وأغمضت عيني .. واستسلمت للحن يحملنى على أجنحته بعيداً ... بعيداً .

ولم أفق من نشوتى ... إلا وقد ساد السكون .. وخيم الصمت وأطلقت من صدرى تنهيدة الراحة .. التى تعودت أن أطلقها كلما شعرت بالهدوء والسكينة والاستقرار .
ونظرت فى الظلمة تجاه شرفته .. فإذا بى ألمح شبحه وقد استند على حافتها ... وأحسست أنه يود أن يعرف رأى فى لحنه ، أو على الأقل يثق أنى سمعته .

وقفزت من مقعدى فجأة .. حتى أفرغت سيدة .. ثم أضأت نور الشرفة .. وأشرت بىءى ملوحة .. فتلقيت تحية منه رداً على إشارتى .
وكانت سيدة قد قفزت بدورها ومدت يدها فأطفأت النور وقالت لى ناهرة :

— أمجنونة أنت ؟ ما هذا الذى تفعلينه « آل ما شافوهمش بيسرقوا .. شافوهم بيتحاسبوا » ماذا تفيدك هذه الإشارة سوى الفضيحة ١٩ ألم يكفك طول اليوم وأنت معه ١٩ ألم تكفى بكل ما حصل ١٩ ألا تحمدن الله على أن مر اليوم بخير .. حتى تحاولى أن تميمه بفضيحة ..

- ١٢٣ -

هبي أن جذك أو عبد الرحمن أو أحد الخدم .. رآك تشيرين هكذا !
.. فماذا يحدث ؟

وكانت سيده على حق .. ولكن اندفاعي كان غير إرادي .. كانت
رغبة شديدة في أن أعبر له عن تقديري ، ومشاعري .
— متأسفة يا سيده ... الم — لقد حدثت على غير إرادة
منى .

— هذه هي المصيبة ... كل الأخطاء تحدث لنا من الأفعال التي
نفعلها بلا وعي ... ولو كنا في وعينا ما فعلناها . إنني أريد منك أن
تتفكر وتتفكر .. إن لم يكن من أجل مصلحتك .. فعلى الأقل من
أجل متعتك ... كلنا زاد تسترك زادت علاقتك به طولا واستمرارا ..
فالناس لا يقدرّون الأخطاء بوقوعها ولكن بظهورها ... فاحذري يا
حبيبتي ما أمكنك .. ولا تعبي كأسك مرة واحدة ... لأنه كلما بطو
الرشف زادت فترة الاستمتاع .

وكانت سيده تبدو في بعض الأحيان حكيمة ... ولست أشك أن
قولها هذا كان إحدى حكمها الرائعة .. ولكنني بحالتي الهائمة التي
كنت عليها .. لم أكن على أي استعداد لسماع أي نوع من الحكم
... مهما بلغت من الروعة .

من يستطيع أن يقول للمهجر الصادي الذي أقبل على عين نميره ..
تمهل .. وخذ قطرة قطرة .. ؟

ونمت ليلتي تلك .. لماذا .. كان ذهني مليئا بالمتع التي أخشى أن
اغفو عنها .. برغم أن الغفوة عنها كانت حلما بها .

وفي الفترات التي كان ينبو بي المضجع كنت أستلقي على المقعد
في الشرفة .. ونظري ينتقل بين النجوم المتألقة في أديم السماء ..
وضوء نخلته يتألق في أديم الأرض ، ينبعث خافتا من وراء إحدى
النوافذ .

— ١٢٤ —

وقبيل الفجر نمت نومة عميقة ملوها حلم طويل لذيذ .. رأيت
نفسى وإياه فى زورق يجرى فى عرض البحر وقد وقف الناس يلوحون
لنا على الشاطئ ... وعندما تحسست رأسى وجدت عليه « طرحة
بيضاء » ثم وجدت ذيول ثوبى البيضاء تفرش أرض الزورق .. فأدركت
أنى ألبس ثوب العرس .

هكذا أنالتنى الأحلام أقصى الأمانى .. وعندما استيقظت فى
الصباح .. خيل إلى إما أن أكون مخلوقة أخرى وإما أن تكون الدنيا
قد أضحت دنيا أخرى .. فقد كان الحبور يملأ نفسى .. والثقة
والأطمئنان والأمل العريض والأمانى الحلوة تفيض بها .

الفصل السابع

ثقة وإيمان

قضيت اليوم من أوهامى وأحلامى فى طرب دائم ونشوة مستمرة ..
حتى حل الموعد فانتعلت صندلا خفيفا ، « وبلوزة حمراء » ،
« وجيب أسود » وقلت لجدى إنى خارجة للتمشى مع « سيدة » فهز
رأسه وهو منهمك فى القراءة قائلا :

_ لا تغيبى حتى الظلام .

- حاضر .

وهبطنا السلم وعبرنا الحديقة وألقيت نظرة على الدار الأخرى ثم
سرت متجهة إلى الكوخ « ماريكا » .

ورأيت « سيدة » تلتفت حولها فى حذر ثم تتمتم ببضع كلمات ..
ونخيل لى أنها تقول كلاما لم أسمعه .. فسألتها عما تقول فأجابت
بلهجة نحافة :

_ أطلب الستر من الله .

وكنت أراها متشائمة أكثر مما يجب ولم أكن أرى لحذرهما موجبا .
وكانت المسافة لا تزيد على بضعة مئات من الأمتار يقطعها المرء سيرا
على الأقدام فى بضعة دقائق .. وكان الكوخ على مدى البصر من البيت
لولا بيت آخر يقوم بينهما .

وسرت فى الطريق المترب حيناً ونخضت بين الحشائش فى الأراضى
الفارغة حيناً آخر ... وكان المكان فد خلا على مدى البصر إلا من
بضعة كلاب تتبادل النباح وعربة تنساب فى الطريق الرئيسى الآتى من
فيكتوريا المتجه إلى القاهرة .

ووصلت إلى الكوخ الخشبي الأخضر الذى أحاطت به المتسلقات
ووضع فى داخله بضعة صناديق فيها زجاجات الكازوزة والكوكاكولا
وبعض قطع الشيكولاته والحلوى ، واللادن ، ورصت حوله مناضد
خشبية ومقاعد من القش .

ولم أر أحداً أمام الكوخ فى أول الأمر .. اللهم إلا عربة جلس فيها
رجل وامرأة .. ولكنى لم أكد أدور حول الكوخ حتى أبصرته .
وتوالت ضربات القلب .. برغم سبق الاستعداد للقاء . وأصابنى
الارتباك .. وخشيت إن أنا أقبلت عليه أحبيه أن يرانا أحد ، ولا سيما
أن الساقى يعرفنى جيداً .

وكان بجوار الكوخ متنزها عاما لا يزيد على مسطح من الحشيش
والأشجار أحيط بسور من الدرنه ووضعت به بضعة مقاعد ، وكان
غالباً ما يلجأ إليه عمال الأوتوبيس ، أو الركاب الذين ينتظرونه ، وكان
من الجنون أن ألجأ إليه .

لم يبق أمامى إذاً غير الاندفاع تجاه الطريق المؤدى إلى المزارع ،
وإلى المتنزه الآخر المهجور القائم فى أطرافها .
وهكذا سرت فى الطريق وقد منعنى الارتباك من تحيته أو إعارته
مجرد الالتفات .

وبعد مسيرة برهة أحسست بالارتباك الفجائى الذى لا مبرر له قد
بدأ فى الزوال ، وتلفت خلفى فوجدته يلاحقنا بخطا متعده .
وتمهلت .. وأخذ هو يقترب منا رويداً .. رويداً .. وعندما وصل
إلينا كنا قد ابتعدنا عن الكوخ ولم أعد أبصر حولنا .. سوى المزارع
والأشجار .

ورأيت يضحك وهو يشد على يدى :
— ما هذا العدو .. أتظنينا فى سباق ؟
وأردفت سيدة مؤيدة قوله :

— لقد قطعت أنفاسي وأنا أحاول اللحاق بها .

وكنت أكاد أسمع دقات قلبي .. كانت بي فرحة جارفة وأنا أسير بجواره وقد تركت يدي مستسلمة في يده .. وقد انبسطت أماننا الخضرة وأخذت أطراف أعواد القصب المتكاثفة تمارج في هبات النسيم .. وانبعثت من أعالي الشجر خشخشة ووشوشة وتغريد وزقزقة ، وسرت الريح بين الأغصان والأوراق فملأناها حياة وحركة .
ولم نقل شيئا .. كان اللسان في صمت .. والجوانح في صخب ..
حتى وصلنا إلى المتنزه الخالي ، الكائن على أطراف المزارع ، وكانت حشائشه قد استطالت في إهمال مستحب ، وأشجار البوتشارديا الباسقة قد تدلت أوراقها العريضة كالمراوح من قمته العالية وعلى أطرافها من الرغب ما يشبه الشعر الأبيض .. وأحواض من الوينكا البيضاء والبمبة قد تناثرت في أنحاء الحديقة .

واجتزنا مدخل المتنزه ، وتمهل إبراهيم قليلا وتساءل :

— ما رأيك لو استقررنا هنا على أحد المقاعد .. أم تصرين على المشي في الحقول ؟

— أبدا .. أنا لا أصر على شيء .. لنجلس إذا شئت .

وكنت أفضل الجلوس .. فإني في السير لا أستطيع مواجهته ، وقد كنت أرغب في أن أعب النظر منه .. إذ كنت أشعر أن هذه الفرص للقاء لن يعود القدر بمثلها كثيرا .

وجلسنا ، وكانت الشمس توشك أن تغيب ، وتذكرت أن جدي أمرني أن أعود قبل سقوط الظلام ، وأحسست أن فرحتي قد بدأت تشوبها شوائب القلق .. وأن سيل النشوة أخذت تعترضه جنادل خسوف مبهم مبعثه الإحساس بعدم التملك الدائم ، وبعدد السيطرة المستمرة على ذلك الشيء الثمين النادر الذي أطبق عليه بين يدي .. وأن مدى استحواذي عليه رهن بكل مشيئة .. إلا مشيئتي .

- ١٢٨ -

أجل .. كل شيء يتحكم فى استحواذى عليه .. جدى .. وعبد الرحمن .. وسيدة .. وكل عابر سبيل .. يستطيع أن يمنعنى من أن أضمه إلى أو أنعم بالهدوء إلى جواره .

حتى هذه الشمس الغاربه .. تتحكم فى دون أن تدري .. إنها تهوى بسرعة نحو الأفق ... كأنها على موعد وراءه .. أو كأنها تحسدنى على جلستى .. فهى تأبى أن تطيلها على .

ويبدو أن شرودى قد طال . إذ أبصرت أصبح إبراهيم تمتد متسللة فتعبت بخصلة شعر دفعها النسيم إلى جبينى فأخذت تضطرب فوقه .

ونظرت إليه باسمه فأجابنى :

- صح النوم .. فيم كنت شاردة ؟

- فى الدنيا .

- ما لها الدنيا ؟

- عجيبة !

- أى عجب بها ؟

- كل أحوالها .. عندما تهب .. تهب بحمق .. كأنها سفيه يستحق الحجر .. حتى يبيت الإنسان من فرط إغداقها وهو غير مصدق أنه يعيش فى الواقع ... وأن ما به ليس حلما من أحلام الدجى .

- ماذا تريد أن أغدقه عليك ؟

- كل شيء .. لقد قلت ذات مرة لسيدة وأنا أسمعك تعزف من أجلى أحد ألحانك ... إنى كنت فيما مضى أحس بالسعادة وأنا أشارك الناس فيك كما أشاركهم فى الشمس والهواء ... وسألتها ماذا يكون إحساسها لو علمت أن الشمس قد طلعت لتضئ لها وحدها ؟

- ألم تسألها عن شعورها عندما تجد أن الشمس قد أضحيت ملكها ؟ بل ألم تسأل الشمس عن مدى سعادتها .. وهى تضئ من أجلك ؟

- ١٢٩ -

وكانت سيدة قد جلست على مقعد ناء وأخذت تتسلى بمضغ قطعة
« لادن » ووجدت نفسى أبتسم وأنا أنظر إليها . وما لبثت أن قلت له :
— لا أظننى أستطيع أن أسألها الآن .. ولا أظننى أجسر على أن
أسأل الشمس .

ومد إبراهيم كفه فبسط باطنها على ظاهر يدي وأخذ يتحسسها
بحنان ويضغط أصابعى برفق .. كأنما يقول شيئا ... لولا الحياء ..
لجسرت على أن أترجمه .. بلفظة « أحبك » .
وأحسست أنى أوشك من مسة يده وضغطها أن أذوب ، وأتى إلى
صوته هامسا فى أذنى :

— الشمس التى تتحدثين عنها تستمد نورها منك .. من مشاعرك ..
ومن إحساسك المرهف .. إن ما تبصرينه بها من ضياء .. هو ضوء
قلبك معكوس عليها .. كنت أحس بالوحدة والفراغ ... ولم يخطر لى
ببال .. أن هذا الفراغ العريض يمكن أن تملأه مخلوقة فى مثل ضالتك ..
ومع ذلك فقد ملأته ... حتى بت أشعر أنك أصبحت لازمة لى ... بل
جزءا منى .

وازدددت به التصاقا ... حتى أحسست فعلا أنى جزء منه .. وعادت
أصابعه تعبت بخصلة الشعر المتهدلة على جبيني وهو ينظر إلى عيني ..
مما جعلنى أتلحف على الارتماء فى صدره ... والالتصاق به ... إلى
الأبد .

وهمست به :

— أنا أيضا أحس بما تحس ... ولكنى لا أجرؤ على التصريح به
لأحد حتى لنفسى .. لأنسى أتوهم أنك أكبر من أن أمتلكك .. إننى
أحس بأنك معجزة ... وامتلاك المعجزة ليس من نصيب البشر .
— أنا أكره أن تقولى عنى ذلك .
— ولكنك كذلك .

(فديتك يا ليلي)

- ١٣٠ -

_ لو كنت كذلك بالنسبة للناس جميعا فإني أكره أن أكون كذلك
بالنسبة إليك .. أكره أن تحبني في المعجزة التي تتوهمينها ... أكره أن
تحبني في الضخامة التي تقولين عنها . أريد أن تحبني في ما أحبه فيك
.. المخلوق الفرد « البسيط » ، أريد أن تحبني في البشر الذي يكمن
في داخلي .. بمساخرى وسخاقتي .. أريد منك أن تحبني في الرجل
القابع بلا ضوء ولا ضجيج ولا شهرة .. ولا ألحان .. فهذه كلها ..
يحبها الناس جميعا .. أما الباقي فلا يحس به أحد .. وما أشد شوقى
إلى أن تحسني به أنت .

وأحسست من قوله بعبرة تطوف بعيني وتراودها على النزول ..
فأمسكت يده بين يدي .. وتناسيت ما لحواء من كبرياء .. ورفعت
كفه فمسستها بشفتي ، وهمست وأنا دافنة وجهي في كفه وقد أخذ
يتحسس بحنان ورفق .

_ إنني أحبك كما أنت .. أحب المخلوق الذي أمامي كما هو ..
لقد أحببت في أول الأمر ألحانك وعبقريتك ، فلما لقيتك وجدتك خيرا
من كل ألحانك .. بل من كل موسيقى العالم .. أنت وحدك وسواك
لا شيء .. لو سألتني الآن ألا أسمع موسيقى أبدا للبيت طلبك .

وتخلل بأصابعه شعري وضم رأسي إلى صدره وأجاب :

_ لن أسألك هذا .. إن حب كل منا لصاحبه .. لن يمنعنا من حب
الموسيقى معا .. نحن أولا .. والموسيقى ثانيا .. ما رأيك ؟

ورفعت إليه وجهها باسماء وأحبته قائلة :

_ أنت أولا .. ولا شيء بعد ذلك .

وسمعت سيدة لتناديني .. فأفقت لنفسي .. وللشمس الهاربة ..
وللظلام المطبق .. وتذكرت جدى ، وكرهت أن أهبط سريعا من
هيامي الطليق إلى حياتي المقيدة .

وكانت سيدة قد اقتربت مني قائلة :

- ١٣١ -

_ أظن الوقت قد أزف للعودة .. أخشى أن يقلق جدك عليك.
ونهبضت واقفة إذ لم أكن فى حاجة إلى تحذير سيدة .. وغادرتنا
المتنزه وسرنا متلاصقين وقد أطبقت يده على يدى وقد شغل ذهني
تفكير واحد.. هو اللقاء التالى .. ولم يطل به التفكير حتى تساءل :

- متى سأراك ؟

- هذا ما كنت أفكر فيه .

- وإلام اهتديت ؟

- لم أهتد إلى شىء .. فلست واثقة من نية جدى فى الغد .. كان
يقول إننا مدعوون إلى الشاى عند أحد أصدقائه وأظن من الخير ألا
نرتبط بموعد من الآن حتى لا أخلفه .

- إذاً نلتقى بعد غد ؟

- سأرسل سيدة لكى تبلغ مديولى الموعد الذى يمكن أن تستقر عليه .

وكنا قد تركنا الخلاء وقاربنا لإحدى الدور فقلت له :

- خير لنا أن نفترق الآن .

وضغط على يدى الضغطة الممتعة .. التى كنت أشعر منها بما
تشعره كل ولهى ... عندما تلتقط أذهاننا همسة « أحبك » .

وافترقنا .. وسرت أنا فى طريق مستقيم مودى إلى المنزل رأساً ..
واتبع هو بعض الطرق الدائرة حتى نتباعد ولا نقبل على دارينا معا .

وعندما وصلت إلى الدار حمدت الله لأن جدى كان قد غادرها ..
فلم أعرض لمشقة التأنيب على هذا التأخير .

وأصبح الصباح على .. بعد ليلة سعيدة ملوها الأحلام الممتعة ..
وروقت أستقبل الشروق وأنا أشعر أن الدنيا قد وهبت لى كل ما لديها
من سعادة .. وأنها منحتنى نصيبى ونصيب الآخرين .

ولكن يبدو أنها كانت تحتفظ لى بالمزيد ... وأنها رغبت أن
تؤكد صحة قولى إنها عندما تهب تهب بحمق السفيه الذى يستحق

- ١٣٢ -

الحجر .. إذ لم أكد أجلس إلى الإفطار حتى أقبل جدى مرتديا ملبسه وأنبأنى أنه سيأخذ قطار الصباح إلى القاهرة ... لأن عبد الرحمن دعاه إلى الحضور لتسجيل بعض الأوراق فى محكمة الشهر العقارى .. وأنه سيمكث بضعة أيام حتى يحضر القضية الخاصة بأرض الأوقاف .. وأشياء أخرى لم أحاول وعيها لأن ذهنى قفز إلى إبراهيم تاركاً حدى يشرح أسباب سفره .. ويفصل مشاكله ويشرح ضيقه بأسهم كذا وكذا وسندات كيت وكيت ... ووجدتنى ألقى إليه بقيوده الثقيلة ليحملها معه إلى القاهرة فى بضعة الأيام التى ستركنى فيها .. وأخذت أهيم مع إبراهيم .. حرة طليقة .. تضرب بين الحقول .. ونعدو على الشاطئ ، ونسبح فى الماء ، ونحلق فى الهواء .

وفجأة جذبنى جدى من سماء أوهامى وبحور أمانى بقوله :
- لقد فكرت فى أن آخذك معى .

- معك !؟

قلتها بلا إرادة كالمسوعة .. ونظرت إليه مبهولة فاغرة الفاه .. ولكن بقية حديثه دفع إلى الطمأنينة مرة أخرى فقد أردف قائلاً :
- ... ولكنى وجدتني فى عجلة .. ولن تطول غيبتى ... وأظنك تستطيعين البقاء وحدك بضعة أيام ؟ إنك لم تعودى صغيرة .. لقد أصبحت « ست بيت » .. وسأمر السائق أن يبيت فى الدار خلال فترة غيابي .. والنقود موضوعة فى الدرج .. خذى كل ما يكفيك .
ولم أحاول أن أنيس بنبأ شقة .. فقد خشيت أن أنا نطقت أن أكشف فرحتي .. وأنا أقول له : « اذهب اذهب .. ولا تخش شيئاً .. إن سفرك الطارئ هو أقصى ما كنت أتوق إليه ... إنى لن أشعر بخوف ولا وحشة ... لأن إبراهيم سيونس وحشتى » .

واستمر هو فى نصائحه وتحذيراته ... حتى انتهت من الإفطار وسألنى أن أجهز له الحقيبة الصغيرة .

- ١٣٣ -

وبعد نصف ساعة كان قد غادر البيت .. وكان لسان حالى يهتف
بقول الشاعر : « خلا لك الجو فيبضى واصفرى » .
وكان أول ما فعلت .. هو أن وقفت فى الشرفة أملاً صدرى من
النسيم العابر على الدار الأخرى .. كأن جدى قد منعنى من
استنشاقه .. وكان أول ما فعلته سيدة هو أن لحقت بى .. وقالت
محذرة :

— اسمعى .. إياك والجنون ... شيئا فشيئا ... تذكرى أنه يوجد
خدم ، وتوجد حيران .

ونظرت إليها متصنعة الدهشة وتساءلت :

— وماذا فعلت حتى تقولى هذا ؟

— لم تفعلى بعد .. ولكنى أعلم أنك ستفعلين .. لو سافر جدى منذ
شهر لما قلت لك هذا ، فقد كنت ما زلت فى عقلك ووزانتك .. أما
الآن .. فيجب على أن أرقبك جيداً .. بعد أن أطاش جارنا صوابك ..
وأضاع عقلك .

— ما هذا الذى تقولينه يا سيدة ؟

— أقول الحق .. أقسم أنك لم تصبحى راجية أبداً ... أبداً .

— أنا معك أنى لم أصبح كما كنت .. ولكنى أصبحت خيراً مما
كنت .. أصبحت أشعر بالحياة والسعادة .. أصبحت أحس بقيمة
كل ثانية تمر بى .. لأنها تحمل لى شيئاً . أما قبل ، فقد كانت فارغة
.. وسواء لى أمرت أم لم تمر . فما كان لها فى نفسى قيمة .

— لا فائدة منك .. كلما حاولت نصحك .. حدثتنى بما لا أفهم ..
وقلت لى كلاماً من كلام الكتب ... حيرتنى ، حيرك الله .. والله لولا
إحساسى بأنك سعيدة ، لما تركتك تندفعين فى هذا الطيش .. ولكنى
أحبك .. وأكره أن أحرملك شيئاً من السعادة .. إنى كلما حاولت
منعك خوفاً عليك ... قلت لنفسى .. دعيها تتمتع بيومها .. من يدرى

ما يأتى به الغد .. لعنة الله على ... لو حدث لك شىء .. أو أصابك
أى ألم مما تغفلين فلن أغفر لنفسى قط .

وكنت أحب سيدة ، وكنت أعلم أنها لا تحب فى حياتها كلها
شيئا أكثر مما تحبني ، وكنت أعرف أن حبها لى هو السبب فى هذا
القلق الذى تحسه من أجلي ، وقد تكون على حق فى قلقها .. ولكن
أنى لى أن أرى هذا الحق وأنا أشعر أنى انطلقت من سجنى ، لأنعم
ببضعة أيام من الحرية .

وسرت أتقل من حجرة إلى حجرة وبى نشوة ... ولم أكن قط
أكره جدى .. بل كنت أحبه جدا .. وكنت واثقة من حقيقة شعوره
نحوى .. ولكن كنت أشعر بسعادة فياضة وأنا أجول فى البيت وحدى
وأشعر أنى مسيطرة على البيت أستطيع أن أحيا طيلة يومى بالطريقة
التي تحلو لى .

وكان أول ما على أن أفعل هو ؟ أن أجلس لأدبر اللقاء .. وبدأت
لى الدنيا أضيق مما أبتغى ... إنى أريد فردوسا .. لأقضى به معه هذه
الأيام .

وأخيرا وبعد طول تفكير ومشاورة مع سيدة استقر رأى على أن
نلتقى على الشاطئ .. فقد كانت الوحدة مضمونة ، والفراغ تاما ..
وكان الجو فى ذلك اليوم أميل إلى الحرارة .

وتسللت سيدة لتبلغ النبأ إلى مدبولى ... وقبيل الساعة الرابعة ركبنا
العربة إلى سيدى بشر بعد أن زعمت سيدة للسائق والبواب أننا قاصدين
إلى « الكاينة » لكى نحضر المظلة والمقاعد لإصلاحها استعدادا
للصيف ، فقد أصرت سيدة على أن تحكم تدبير خطواتنا بحيث
تستطيع أن تواجه بها الجد عند عودته إذا ما سأل إلى أين ذهبنا .

وفتحنا « الكابين » وكانت الرمال قد غطت معظم الشاطئ وتراكت فوق أرض « الكبائن » وبدأ المكان صفصفا خاليا ... ويد الإهمال قد خطت آثارها في كل نواحيه ، والصدأ قد علا القفل الذى أغلق به الباب .

وجلست فوق المقعد الخشبى وأخذت سيدة تزيج الرمال من وراء الباب حتى تستطيع فتحه .. فقد صممت على أن تقوم بالعمل الذى جئنا من أجله .

وبدأت فى جلستى أشعر بلفح الريح .. وكانت قد أخذت تشتد وبدأ الجو يميل إلى البرودة ، وقذفت سيدة إلى بالصديرى الصوف الذى حملته معها لأنى رفضت أن ارتديه مكتفية « بالبلوزة » البيضاء الصيفى و « البنطلون » الكحلى ، وقالت لى فى لهجة الأمر :

– البسيه ولا تكونى عنيدة .. قلت لك عندما خرجنا إن الجو سيبرد .

ولم أرد أن أسلم بسهولة فقلت لها وأنا أضع « البلوفر » جانبا :

– لست أشعر بالبرد .

– يا حبيبتي ارتديه من أجلى ، إنك لا تحتملين البرد .. وشكلك فيه أجمل من ذلك القميص الذى يبيدك كالولد .. البسيه وإلا رحلت بك حالا .

وكانت لسعة البرد قد اشتدت فتناولت البلوفر ودسست فيه ذراعى وشدته على صدرى .

وقالت سيدة :

– أغلقى الأزرار .. الزرار العلوى .

– لا لن أزوره .. لقد ضاق على .

ولم أكد أنهى حتى سمعت وقع أقدام تطرق الأرض مقتربة من « الكابين » .. وبعد لحظة وجدته يقف أمامى وهو يحدق فى عيني فى شوق واضح ومددت يدي إليه متلهلة وقلت له :

- ١٣٦ -

- تفضل .
- ألا نتمشى أفضل ؟
- ونظر إلى سيدة التي انهمكت فى رص المقاعد وألقى عليها التحية :
- نهارك سعيد يا سيدة .
- نهارك سعيد يا سيدى .
- كيف الحال ؟
- الحمد لله .
- مديولى يهديك السلام .
- وضحكت سيدة قائلة :
- الله لا يسلمه .. ولا يكسبه .. ولا يربحه .. لست أدري كيف تطيق عشرة هذا المخبول ؟
- إنه رجل طيب ؟
- وجذبنى من يدي وسرنا على الشاطئ وصوت سيدة يقول منذرا :
- لا تغيبا .. نريد أن نعود إلى البيت قبل سقوط الظلام .
- ونظرت إلى الشمس العنيدة .. العادية إذا مالت إلى الأفق .. فإذا بينها وبين الأفق مسافة طيبة .. فقلت لها :
- إن شاء الله .
- وكعادتنا فى كل لقاء .. خيم علينا الصمت وتملكننا الشرود .. حتى وصلنا إلى صخرة نائية فى نهاية الشاطئ فأشار إلى مكان منبسط فى أقصاها أشبه بمقعد قائلا :
- أنجلس هناك ؟
- أجل .
- وأمسك يدي يعيننى على السير فوق نتوءات الصخرة حتى وصلنا إلى المنبسط .. فاتخذنا مجلسنا متجاورين .

- ١٣٧ -

ونظرت إلى الأفق البعيد والسحب المتلاحقة والأمواج المتتابعة ..
والرشاش يتطاير من ارتطامها بالصخرة ... وملأت صدرى بريح البحر
الباردة ... وأطلقته فى زفرة حملتها الكثير من حرارته .

وأحسست برحفة من برودة الريح فازددت التصاقا به .. ومد ذراعه
فأحاطنى بها وضمنى إليه حتى أسندت رأسى إلى صدره .. وبت أحس
بتردد أنفاسه ودقات قلبه .

ومد أصابعه يتخلل بها شعرى ويعبث بخصلته وهمس فى أذنى :
- لماذا ترتجفين ؟

- من البرد .

- فقط ؟

- والخوف .

- مم ؟

- من كل شيء .. من المستقبل .. والأيام .. والدنيا .. ومنك ومن
نفسى .

- كل هذا تخشينه ؟

- أجل .. أخاف من المستقبل لأنه يتراءى أمامى غامضا مجهولا ..
كهذا البحر البعيد المترامى أمامنا فى غير حدود .. دون أن نبصر ما
وراءه .. ولا نعرف ما فى أغواره .. إنه قد يحمل الحياة كما يحمل
الموت .. وأخشى الأيام .. لأنها أسرع فى السراء من القطة وأبطأ فى
الضراء من السلحفاة .. إذا ما حملت بالسعادة تسربت من أيدينا
تسرب الماء من بين الأصابع .. وإذا حملت بالشقاء أطبقت على
أنفاسنا كالحمل الثقيل .. وأخشى من الدنيا لأنها عندما تهب بحمق
تأخذ بجنون .. وعندما تمنح بسفاهة .. تمنع بلووم وخسة .

وصمت مطلقا تنهيدة أخرى .

وعاد يهمس :

— ١٣٨ —

— ومنى أنا ؟ ماذا تخشين ؟

— تبدلك .. وتحولك .

— ومن نفسك ؟

— أخشى مطامعها فيك .. كنت فى أول الأمر أقنع بألحانك ...

فبت الآن أطمع فى كل شىء فيك .. كنت أقنع بمشاركة الناس فيك ..
والآن .. أفزع من أن يشاركنى فيك أحد .

وضمنى إليه أكثر ، ورفع ذقنى بيده ، وقال وهو ينظر إلى عيني :

— لا تخشى شيئا ... لا تخشى الأيام .. ولا المستقبل ولا الدنيا ..

ولا تخشيني ولا تخشى نفسك .. لأننى لك .. وسأبقى لك فى كل
حين .. وما دمت معك ... فسنقهر الزمن والدنيا ... وكل شىء .

— ولكنك لن تكون معى دائما !

— بل سأكون .

— إن اللقاء بيننا كما ترى عسير .. وسيزداد بعد ذلك عسرا .

— بل سيزداد يسرا .

ونظرت إليه وتساءلت فى دهشة :

— كيف ؟

— لأنه سيكون من حقى أن أراك ... وسيكون من حقنا أن نتقابل

أمام الناس .. بدل هذا اللقاء المختلس .

وأحسست بضربات قلبى تشتد ... وأدركت بوحى مشاعرى إذا لم

يخذلنى الإحساس — أنه يوشك أن يلقي إلى بشىء خطير .. عجيب .

وقلت أستحته فى صوت لا يكاد يخرج من شفتى :

— لست أفهم ما تعنى .

— أعنى أنى .. سأقدم لخطبتك .

— تخطبنى !!!؟

وأحسست أنى ألهث .. لقد كان هذا أكثر مما أحتمل .

- ١٣٩ -

أحقا يمكن أن نصبح خطيبين ؟ وتملكتنى نشوة أفقت منها على صوته :

- مالك تدهشين هكذا ! أهى مسألة عجيبة ؟

- لا .. لا .. ولكنها مفاجأة .

- لم أكن أظنها أبدا مفاجأة . كنت أظنك تتوقعينها . إنى سأقدم

لحدك .. ساعة عودته .

جدى ١١٩ لقد نسيتك تماما .. لقد خيل إليّ وأنا فى تمام فرحتى أنه

سيخطبني من نفسى ، وأنا سنتزوج ونرحل معا فى لحظة دون أن يعرف أحد .

جدى ١٢ أهذا معقول ؟ أمعقول أن يقبل جدى خطبته ؟ أمعقول أن

يزوجنى إلى من يعتبر فى عرفه - حتى الآن - مجرد آلاى ١٩

أيمكن أن يقبل جدى زواجى من آخر إنسان يفكر فى قبوله ١١

ولم يكن إبراهيم يتوقع منى ذلك الوجوم والإطراق . فأخذ يتحسس شعري ويقول فى رفق :

- راجية ؟ ماذا بك ؟ أساءك حديثى ؟

- ساءنى ؟ ما أظننى كنت فى حياتى أسعد منى الآن .. إنى سعيدة

جدا بما قلت .. ولكن ..

وترددت برهة .. وعاد هو يستحثنى بقوله :

- ولكن ماذا ؟

- هناك عقبات .

- أية عقبات ؟

- إنى أقصد .. أن المسألة ليست بالسهولة التى تظنها .

- ولماذا ؟ .. حدثينى بصراحة ؟

- أظن جدى لن يوافق .. إنه يريد أن يزوجنى من عبد الرحمن .

- أتعنين أنك مخطوبة ؟

- لا .. لست مخطوبة تماما .

— ١٤٠ —

— انتهينا إذا .. ما دمت أنت راضية .

— أنا بالطبع راضية .. ولكن الراى ليس لى وحدى .. إنى أستطيع أيضا أن أقاوم وأن أصر .. ولكن لست أدرى إلى أى وقت وإلى أى مدى .. وكيف يمكن أن تقابل مقاومتى لهم ومعارضتى لإرادتهم .
— اسمعى يا راجية ... ما دام كل منا مؤمنا بصاحبه ووائقا منه . فكل شىء يمكن تذليله ... دعى الأمر لى .. إنى أعتقد أنى أستطيع إقناع جدك .

وكنث واثقة أنه آخر من يستطيع إقناع جدى ... وأكاد أعرف سلفا كيف يقابل طلبه إذا ما عرف حقيقة مهنته .. وبرغم أنى كنت أكره أن أولمه ، وجدت من واجبى أن أحذره حتى لا يصدمه راى جدى .

وقلت له وأنا كارهة حديثه :

— أنت لا تعرف جدى كما أعرفه .. إنه مخلوق مادى جاف .. لا يعرف غير الحسابات والأرقام والأراضى والسندات .. ولا يعترف أبدا بأى نوع من أنواع الفنون ، بل هو كثيرا ما يضيق بالموسيقى .. ويأمرنى بالكف عن هذه « الدوشة » . ولست أظنه قد سمع موسيقى منذ أيام الحمولى والمنىلاوى ... وهو يعتبر الموسيقيين جميعا « مجرد آلاتية » .. وهو يعتقد أن من واجبه أن يحافظ علىّ ويضمن لى مستقبلى .

وصمت .. وعجبت بعد أن قلت هذا . كيف جرؤت على قوله .. أيمكن أن أقابل خطبة إبراهيم لى بهذا الرد ؟! أبعد أن تزول كل العقبات التى توقعتها سيدة ... وأجده خاليا بلا زوجة ولا خطيبة ولا حبيبة إلا أنا .. أن أصده بمنل هذا القول ؟

ومع ذلك فقد كنت أشعر أنى أدبت واجبى ... وأنى مهات الطريق فى نفسه لقبول الصدمة .

ولكن هبه تراجع !!

- ١٤١ -

وأحسست بخوف شديد ... وكأني طعنت نفسي .. لماذا لا أجعله يحاول .. ما دام مؤمنا بنفسه ، واتقا من قدره ١٩ لماذا أبعث اليأس فى نفسه وأحطم إيمانه وإرادته ؟
وأصابني الندم .. ولكنه لم يطل .. فقد جاء رده على قولى قويا مليئا بالثقة .. مزيلا لكل خوف .. مضيعا لكل ندم .

وقال وهو يمسك يدي ويرفعها إلى شفتيه فى شبه تعبد :
- إني لن أحاول أن أقنع جحك بفائدة الموسيقى وتأثيرها ... ليكس له رأيه فى شئون الحياة .. ولكنى سأقنعه بأنى أحبك .. وبأن مستقبلك الذى يريد ضمانه .. أنا أكثر منه حرصا على ضمانه .. وأكثر منه حرصا على إسعادك وهنائك ... سأقنعه أن حبي لك أقوى من حبه لك .. لأن حبه لك مبعثه عشرة السنين الطويلة .. أما أنا فأحببتك أضعاف حبه من لقاءين فى بضعة أيام ... سأقنعه أنى أريدك أنت . إن ما بهى ليست نشوة طارئة ، بل إحساس عميق بأننا شطران .. أو صنوان .. وما دامت المسألة كلها ، قائمة على إسعادك .. فأظننى الغانم لأنى أقدر الناس على ذلك .. وأنت نفسك الحكم فى هذا ... أنا واثق أنى أستطيع حمله على الخضوع .. وإذا لم يخضع .. فسأختطفك وأهرب بك بعيدا .. كل ما أريده منك هو إيمانك بى وثقتك فى حبي .
ولم أدر ما أقول له .. لقد ملأنى إيماننا عجيبا وثقة لا حد لها .
كنت فى جلستى بجواره .. ورأسى على كتفه .. وأنفاسه تلهب يدي .. أشعر أنى أستطيع من أجله أن أقهر قوى القدر .

الفصل الثامن

المعركة تبدأ

لم تطل غيبة جدى إذ لم يمكث فى القاهرة أكثر من يومين .. عاد فى ثالثها .. ولم أضق بعودته ... فقد أحدث قول إبراهيم فى نفسى تطورا كبيرا ، وملأنى رغبة فى خوض المعركة والتحدى والانتصار ... وأزال من نفسى ذلك الاستسلام لقضائى والخضوع لمصيرى الذى أساق إليه سوق النعاج .

لقد بدد برغبته وإصراره .. حالة العجز التى كانت تقصر مطالبى على الأوهام والأحلام ، والتى كانت تتركنى أفنع بجلسة فى الشرفة وشروء فى السماء وتحليق بين النجوم وتعزية لنفسى عن مرارة الحقائق بحلاوة الأمانى .

لقد أذاب إيمانه ثلوج اليأس والخوف والعجز ، وجعلنى أحرؤ على التفكير فى حقى فى الحياة الواقعية .. لا فى حياة الأفكار .
لقد وهب لى الشجاعة مرتين : الأولى عندما سألتنى أن أحبه .. هو .. كما هو .. الكائن البسيط .. بلا عبقرية ، ولا ألحان ولا نبوغ .. إذ جعلنى أحس قدرة على الاستحواذ عليه وعلى الاستئثار به ، والمرة الثانية عندما أكد لى أنه لن تحول بيننا قوة ، فقد ملأنى جرأة على العقبات وتحديا للموانع .

وهكذا لم أضق بعودة جدى السريعة .. فقد كنت أنتظره والقفاز فى يدى ، وكنت أتعجل المعركة ... حتى أصل إلى نهايتها ، ويصبح ذلك الشئ الذى تخيلته فى أول الأمر حلما .. ثم أصبح مع الأيام متعة ختلسة .. يصبح حقا لى .. أستطيع امتلاكه أمام الملاء ... بلا خوف ولا خشية .

ألا يستحق ذلك أن أخوض من أجله المعركة ... وأتعجل النهاية ؟
وكان على إبراهيم أن يعلن القتال ، وأن يبدأ الجولة الأولى .. أما
الجولة الثانية ، والأخيرة ... فقد قررت أن تكون من نصيبى ، وكان
الاتفاق قد تم على أن أرسل إليه سيدة بمجرد حضور جدى ، ولم يكذب
يستريح جدى من عناء السفر .. حتى أرسلتها إليه ، ولم تمض فترة
قصيرة حتى أرسل هو بطاقة مع مدبولى يستأذن فى الزيارة .

وكننت أجلس مع جدى عندما وصلت البطاقة .. وكننت أرقب
التعبيرات التى ترسم على وجهه جيدا .. فقد كننت أعتبر فيها .. تقريرا
لمصيرى ، ولم يكن وقع البطاقة مبشرا بخير فقد وجدته يقلب شفثيه
فى شبه ازدراء ويتساءل قائلا :

- إبراهيم محسن .. موسيقار ... يعنى إيه موسيقار ؟! « مزيكاتى »
والا .. آلا تى .. أقد باتت هذه وظيفة توضع على البطاقات ؟!

ثم التفت إلى « سيدة » التى أحضرت البطاقة من مدبولى وتساءل :

- ماذا يريد منى ؟!

- أظنه يريد زيارتك .

- زيارتى أنا ؟ لعله يريد حسنة .. أهذه آخر طرق التسول ؟! تسول

بالبطاقات ؟

وأحسست بالدم يرتفع إلى وجهى وتملكنى ضيق شديد وهممت
بأن أجيب عليه ، ولكن « سيدة » كانت ترقبنى جيدا وكانت نظرة
منها كافية لأن تجعلنى أتمالك أعصابى .

هذه فاتحة لا تبشر بخير .

وقذف جدى البطاقة وصاح فى ضيق :

- لا أريد أن أقابل أحدا .. قولى له إننى نائم .. أو إننى خرجت

- ١٤٤ -

قولى له أى شىء ، اصبر فيه بالتى هى أحسن .
ونظرت إليه « سيدة » وقالت له فى هدوء :
- يا سيدى هذا جارك .. رحل محترم ، وهو يريد زيارتك .. أتصر
بعد هذا على أنه يطلب حسنة ؟
- جارى ؟
تم صاح فجأة كأنه قد تذكر :
- آه .. هذا المخلوق المزعج .. الذى يسكن فى بيت الدكتور
زكى والذى لا يكف عن إزعاجنا لحظة .. ماذا يريد من زيارتى ؟!
وأجابت سيدة فى هدوء الصبور الهادئة :
- وماذا يريد الناس من زيارة جيرانهم ؟ لعله يود التشرف
بمعرفتكم ، وقد أرسل خادمه يستأذن فى الزيارة . رحل كله ذوق .
وكانما تأثر جدى بهدوء سيدة وندم على اندفاعه وتسرعه ... فقد
قال فى لهجة أقل حنقا وخشونة :
- قولى له يتفضل .
ونفضت أنا تاركة الحجرة .. ذاهبة إلى حجرتى ، وكنت فى حالة
اضطراب شديد .. كمتهم يوشك أن يتلقى حكما بالحياة أو الموت .
وجلس على حافة الفراش وقد تضاعفت أشعجاني ، وفقدت كل رغبة
فى الكفاح والتحدى والنضال ، ووجدتني برغمى أقرأ الفاتحة ، وكل ما
وعيته من القرآن ، وأدعو الله أن يحقق كل أملى ولا يخيب رجائى .
وناديت سيدة لتجلس بجوارى أستعين بها على الموقف العصيب ،
وقبل أن تأتى سمعت الجرس يدق والخادم يفتح الباب ويقول
« تفضل » . ثم سمعت وقع أقدام إبراهيم تتقدم إلى حجرة الاستقبال .
ودخلت سيدة فرأت اضطرابى ، ونظرت إلى وحاولت أن تبعث فى
الطمأنينة بقولها :

— ما بالك تلهثين هكذا؟! استريحى ، وتوكلى على الله . إن الخير فيما يختاره الله .

وقلت لها وأنفاسى تتلاحق كالمصدرور أو العادى فى سباق :
— إننى خائفة .

— مم تخافين ؟ إن المقادير بيد الله ... إذا كان إبراهيم من نصيبك فلن يستطيع جدك ولا غيره من المخلوقات أن يفرق بينكما ... إن جدك لا يملك برفضه أن يحول دون إرادة الله ، وإياك أن يصدملك برفضه . وأدركت أن سيدة تحاول بقولها التمهيد للصدمة حتى لا يكون وقعها المفاجئ أليما .

وأخذت تردد حديثها عن القسمة والنصيب والمقادير لا يملكها إلا الله ، وعن وجوب توقعى كل الاحتمالات ، وعدم اكترائى لرفض جدى .
وقلت فى حنى وقد ضنقت بأقوالها :

— أنا لا يهمنى الرفض .. إن كل ما أخشاه الآن هو أن يسىء إليه جدى .. فلا يحسن استقباله .. أو يعامله بطريقته الجافة .. إن الذنب ذنبى .. كان يجب ألا أعرضه لمثل هذه التجربة التى أعرف نتيجتها سلفا .. أجل ... كان يجب ألا أتركه يضع نفسه فى هذا المأزق ، إن جدى لا يعرف قدره . ألم تسمعى قوله عنه إنه « مزيكاتى » !! إنه كان يرفض مجرد استقباله ، فما بالك إذا علم أنه قد أتى لخطبتى ؟!

وهكذا نسيت فى أزمتى وضعفى .. كل ما دفعه فى نفسى من قوة وإيمان ، ولم أعد أرى لى حقا يستوجب الكفاح بل أضحى كل ما أتمناه هو أن أجنب إبراهيم مرارة الخذلان وأن أعدو إلى حجرة الاستقبال فأسأله أن يعود من حيث أتى ، وألا نفكر فى الخطبة مرة أخرى .. أن نقنع بأحلام الدجى ، واللقاء المختلس .

وسمعت وقع أقدام جدى تهبط السلم بعد أن ارتدى ملابسه ، وهممت بأن أعدو إليه لأعرفه بمن يكون زائرنا وأبين له قدره ..

وأوضح قيمته .. وأقول له إنه مخلوق نسيج وحده .. وأن الأرض قد تنجب الكثيرين ممن يجيدون الحساب ويحسنون استثمار المال ، ولكنها لا تهب لنا العباقرة إلا بقدر محدود ، ولأقول له .. إذا كان ينوى خذلانه فليترفق به وليحسن رده ويجمل لقاءه ويحترم قدره .

قلت هذا لنفسي لأفرج عنها .. وانتهى وقع الأقدام ودخل جدى حجرة الاستقبال وأنا منكشمة على طرف فراشى .. لا أملك من القدرة على الحركة إلا الارتجاف كريحة فى مهب الرياح .

ورفعت رأسى إلى سيدة وقلت متوسلة :

— انزلى يا سيدة لعلك تسمعين شيئاً .

وربت سيدة ظهري وقالت فى حنان :

— هدئى روعك ، واستريحى قليلاً .. تمددى فوق الفراش ، وسأنبئك بكل ما يحدث ... سأكمن وراء باب حجرة السفارة ، وسأسمع حديثهما .

وغادرتنى وهبطت إلى أسفل .. وجلست وحدى .. وكأنى أحلس كما يقولون على جمر الغضا أو شوك القتاد ، ونهضت من الفراش وقطعت الحجرة عدة مرات جيئة وذهاباً .. ثم جلست ثانية وتمددت ، وقضمت أظافرى ومزقت منديلى . وهززت ركبتى ، وفعلت كل ما يمكن من حركات القلق والحيرة والانتظار .. حتى خلت أن دهرأ قد مضى ، وأخيراً نظرت فى الساعة فإذا العقرب لم يتحرك أكثر من عشر دقائق .

وغادرت الغرفة نافذة الصبر ، وخرجت إلى « الصلاة » ووقفت على طرف السلم .. عندما أبصرت سيدة تهرول فى « الصلاة » السفلى ثم تختفى فى « بئر السلم » وسمعت وقع أقدام تطرق أرض « الصلاة » متجهة إلى الباب الخارجى فأسرعت بالاختفاء .. ووصل إلى صوت جدى يقول :

— مع السلامة .

- ١٤٧ -

وعدت مسرعة إلى غرفتي .
ومرة أخرى جلست ألهمت على طرف الفراش .. وانتظرت أن تصعد
سيدة ، ولكن غيابها طال ، أو هكذا خيل إليّ من فرط قلقى وضيقى ،
وأخيرا صحت أناديها ، وأتى إليّ صوتها من أسفل قائلة إنها قادمة .
وأقبلت ، ولم يصعب عليّ أن أعرف من وجهها ما حدث ، ولكنى
أردت أن أسمع منها التفاصيل .
قلت فى غضب مكتوم :

- ماذا حدث ؟

- لا شيء .. حدث ما كنا نتوقع .. إنها إرادة الله . يجب أن ..
ولم يكن لدى صبر لسماع حكمها ونصائحها فصحت بها فى حدة :
- قولى لى ما حدث كلمة كلمة .

- صبرك يا سيدتى .. أهدنى .. أولا .

- أنا هادئة .. قولى ما حدث ؟

- لقد سلم عليه جدك وقدم إليه القهوة .. وأؤكد لك أنه لم يحاول
قط أن يقلل من شأنه ، وتحدثنا برهة عن هدوء السيوف ... وعن
تحسن الجو .. واستطاع إبراهيم أن يستميل إليه جدك بلباقته ، وجرى
الحديث بينهما سهلا هادئا بلا تكلف .. حتى بدأ إبراهيم يطرق
الموضوع .. ولم يستطع جدك أن يفهم تلميحه .. فقد كان ذهنه أبعد
ما يكون عن تصور مجيء إبراهيم لهذا الغرض ، وأخيرا لم ير بدا من
الإفصاح ، وهنا ... فغر جدك فاه ، ورفع حاجبيه وقال فى دهشة :

- تريد من ؟

- وأجاب إبراهيم فى هدوء وثقة :

- راجية .

- راجية ؟ .. أرايتها ؟

- أجل .. لمحتها بضع مرات فى الشرفة .

— وتتقدم لخطبتها بمثل هذه السرعة .. من محرد لمحها فى الشرفة ؟!
ولم يجبه إبراهيم فى الحال .. بل تفرس فى وجهه برهة ليعرف ماذا يقصد بقوله .. وأخيرا أجابه فى تودة :
— إنى لا أقدم على عمل إلا بوحى من إحساسى ... ولم يخطئ بى إحساسى مرة واحدة .
وأطرق الجد رأسه مرة ثم تلفت حوله كأنما يخشى أن يسمعه أحد قال :

— اسمع يا بنى .. خذها نصيحة منى .. مرة أخرى عندما تحاول الزواج ... لا تقدم عليه بمثل هذا التسرع .. إن الزواج ليس لعبا .. يجب أن تتروى جيدا ، وتسأل جيدا .. أما أن تبت فى المسألة بمجرد لمحة فى الشرفة فهذا فعل أقل ما يوصف به أنه تسرع وطيش ، وعلى أية حال هذه مسألة خاصة بك أنت .. أما بالنسبة لى فإنى أخبرك أن الفتاة التى تتقدم لخطبتها .. مخطوبة فعلا ، ولكى أكون معك أكثر صراحة .. وأرجو ألا تؤاخذنى .. فإنى أحدثك حديث رجل لرجل ... إنى ما كنت لأعطيها لك لو لم تكن مخطوبة .. أنت كما تقول موسيقار ، وأنا لا أعتبر الموسيقى عملا .
و كنت أتوقع من إبراهيم أن يغضب ، أو على الأقل يتجهم .. ولكن شيئا من هذا لم يحدث ... بل أجاب بهدوء وقد ارتسمت ابتسامة رقيقة على شفتيه .

— يبدو لى أنه من الخير .. أن أكون أنا أيضا أكثر صراحة فى الحديث .. لكى أشرح لك المسألة .
ولكن جدك أسكته بإشارة من يده وقاطعه يقوله :

— أرجوك .. لست أريد شرحا .. ولا مناقشة .. لقد أنهيت الموضوع بقولى .. ولست أريد أن أسمع فيه كلمة واحدة .. بل أرجو — أكثر من هذا — أن تتناسى أنت الموضوع .. وتعتبره كأن لم يكن ..

— ١٤٩ —

أرجوك .. دع جيرتك لنا تمر على خير .. وإذا كان لديك موضوع آخر للحديث فلأني على استعداد لسماعه .

ولكن إبراهيم نهض واقفا .. فنهض جددك وصافح كل منهما الآخر ورافقه إلى الباب .. هذا كل ما ما حدث كلمة .. كلمة .

وانتهى حديث « سيدة » . ولست أظننى كنت أتوقع خيرا من هذا .. بل لقد كنت أحاول أن أوطن نفسى على أسوأ منه .

ومع ذلك فقد تملكنى غضب أخذ يغلى فى صدرى كما يغلى الماء فى مرجل مغلق .. وكانت « سيدة » دائما تتهمنى بأنى « صغراوية ، كتموم للغضب .. ولكنى فى ذلك الحين كان ما بى أشد من أن أستطيع كتمانها . لقد بدد اليأس خورى واستكانتى ... وأضاع الغضب ذلك الاستسلام الذى ملأنى .. المعركة دائرة .. والنتيجة لم تستبين بعد .

كنت أفضل الانسحاب إلى عالم الأوهام .. رغبة فى أن أقى إبراهيم مرارة الهزيمة ... أما وقد وقعت الهزيمة ، وفاضت المرارة .. فما عدت أهتم بشيء ، أو أخشى شيئا ، يجب أن أفى بوعدى . وأن آخذ دورى فى المعركة .. أجل . يجب أن أبدأ الجولة الثانية .

ووجدتني أنفجر فى وجه « سيدة » صائحة :

— من قال إنى مخطوبة .. أنا لا أخطب برغم أنفى .

وذهل « سيدة » من تهورى ومن صياحى وأسرت بإغلاق الباب وعادت إلى محاولة تهدئتى :

— لا تصيحى هكذا وإلا سمعك جددك .

وصحت بصوت أعلى :

— أنا أريد أن أسمعنى ... إنى لست « جارية » عنده .. إذا كان

يحاول فرض سيطرته .. مقابل صرفه على ، فلن أبقى فى البيت دقيقة واحدة .

— لا تكونى « مجنونة » .. إنك ابنته .

- ١٥٠ -

— لست ابنة أحد ... إنى حرة أقرر مصيرى ... كفاه استعبادا لى .. ألا يكفى خضوعى لحياته الجافة الخاملة فى كل ما مضى من حياتى .. حتى يحاول التحكم فى مستقبلى ؟! ألا يكفى أن يفرض علىّ ما يريد من ملابس ومأكل .. وأن يتدخل فى كل حركاتى وسكناتى .. حتى يحاول أن يفرض على شريك الحياة .. هذا ظلم .. هذا استعباد .. إنى أكرهه .. أكرهه ...

وكنت فى حالة من الهياج والثورة لم تعهدها « سيدة » .. حتى لقد اصفر وجهها وأخذت تلهث وهى تمسك بيدي تحاول أن تجلسنى على المقعد وهى تقول مضطربة خائفة :

— بسم الله الرحمن الرحيم .. ماذا حدث لك يا راجية ؟ لم يا رب هذا ؟! لقد كنت دائمة هادئة وعاقلة ... اجلسى يا سيدتى .. كل شىء يحل بإذن الله .. ولكنه ليس بمثل هذا الغضب ... بل الصبر .

ووجدتنى أصبح بها فى غضب أشد :

— لا .. لن أصبر ... ليس لأحد أن يتحكم فى مصيرى .. إنه مصيرى وحدى .

— حاضر ... كما تشائين .. ولكن أنخفضى صوتك .. لئلا يسمعك جدك .

وفجأة فتح الباب وبدا جدى وقد علت وجهه علامات الدهشة وصاح متسائلا :

— ما هذا الصباح ؟ ماذا حدث ؟!

وفزعته « سيدة » من صبيحته وحاولت أن تنقذ الموقف قدر استطاعتها فأجابت :

— لقد أصاب سيدتى راجية مغص .

ونظر إلى جدى وما زال الغضب والدهشة تعلوان وجهه وكأنه يطلب منى تفسيرا ... أو تأكيدا .. وأحسست بشىء من الخور

- ١٥١ -

يتملكنى ، وأنا أقف أمامه وجها لوجه .. وكدت أترجع فأصدق على قول « سيدة » وأتهاوى على الفراش مدعية المرض .. ولكنى تذكرت إبراهيم .. وتذكرت ما أصابه من مهانة فى سبيلى ... أنا التى لا أستحق قلامة ظفره .. وغلى الدم فى عروقى ... وفار الغضب فى صدرى ، فصحت متفجرة بلا وعى :

- لا ... ليس عندى مغص .

وزادت دهشة جدى ... وحار بصره بينى وبين « سيدة » محاولا أن يفهم حقيقة الأمر .. ولكن « سيدة » لم تجد ما تقول .. بعد أن أفلت الأمر من يدها ووجدت أنى قد ركبت رأسى ، وعزمت على ألا أترجع . ووقفت انظر إلى جدى متمرة وأوجه إليه نظرات ملتهبة كأنى على وشك أن أنقض عليه .

وعاد هو يسأل فى ذهول :

- ما بك ١٩ تكلمى .

ولم أكن فى حالة تمكنى من التفكير وصياغة الحديث أو ترتيب القول .. بل كانت الألفاظ تندفع من شفتى كالطلقات . قلت صائحة .

- أنا لست مخطوبة .

وزادت دهشة جدى .. واندفع هو الآخر يصيح فى غضب :

- أمجنونة أنت ١٩ ما هذا الذى تقولينه ١٩

واندفعت فى هجومى .. غير واعية ما أقول :

- أنا لست مخطوبة .. ولا يمكن أن أخطب برغم أنفى .. أنا لست

جارية فى سوق عبيدك تمنحنى لمن تشاء .. وتمنعنى عن تشاء .. إن لى رأيا فى مصيرى ... بل إن رأى هو الأول ... أنا لست مجنونة ولا صغيرة .. حتى تتصرف فىّ بغير إرادتى .. وتختار لى ما تشتهى . أنا التى ستتزوج ولست أنت .. إذا كنت تكره الموسيقى فلانى أحبها ..

وأفضلها على كل أموالك .. وإذا كنت تعتبر الموسيقى عاطلا فلانى أراه سيد الناس .

وكانت الدهشة تزداد بجدى وأنا مندفعة فى صياحى إذ لم يدرك سر الموقف حتى بدأت أتلظظ بالجملة الأخيرة ... وبدأت الدهشة تزول لتحل محلها غضبة شديدة .

ولم يجبنى بصياح كصياحى ، بل تمالك أعصابه وأجاب فى سخرية :
- هكذا !! إذا فالمسالة مبيته .. والموضوع متفق عليه .. والعلاقة ليست مجرد لمحة من الشرفة ... ولكن الذنب ليس ذنبك .. إنه ذنبى أنا .. لأننى لم أعرف كيف أرييك . كان يجب ألا أترك لك هذه الحرية التى أفسدتك ، ولكن لا بأس .. كل شىء سيصلح .. وسأعرف كيف أعيدك إلى وعيك .

ثم ألقى إلى « سيدة » نظرة تهديد وأردف قائلا :
- وأنت سأعرف كيف أجعلك تحرصين عليها جيدا . كان يجب أن تمنعها عن هذا العبث .. أو تبليغنى خبره .

ثم غادر الحجرة .. وأغلق الباب خلفه بشدة .. وأخذ وقع أقدامه يتباعد .. حتى اختفى .. وساد الغرفة سكون أشبه بسكون أرض المعركة بعد نهاية القتال .

وكما لا يشعر المقاتل بجروحه ورضوضه إلا بعد انتهاء المعركة .. بدأت أنا أشعر بمدى الجهد الذى بذلته من دمي ومن أعصابى .. فانهرت على الفراش واندفعت فى نوبة عنيفة من البكاء .

وبكت سيدة من أجلى ثم أقبلت على تحاول أن تكفكف من دمعى ، وتخفف من لوعتى ، وترفع كفها إلى السماء بين آونة وأخرى داعية الله أن يهدى جدى .. ويرقق قلبه .

ولكن جدى لم يهتد .. ولم يرق .. بل أمعن فى صرامته ، وبدأ يوقع الجزاء الذى ظن أنه سيقنعنى عن غيى ويكسر شوكتى ويهدىنى

سواء السبيل ... فلم يقبل الليل حتى كان قد ضرب الحصار حولي ،
فأغلق النوافذ المطلة على بيت إبراهيم ، وأصدر أوامره لى بتحريم
الخروج إلى الشرفات أو النزول إلى الحديقة .. وألا أغادر الدار إلا فى
صحبه .. معتقدا أن نوبة الطيش الطارئة لا تلبث أن تزول بمثل هذا
القمع والتضييق .

وهكذا أضحت الصلة بإبراهيم متعذرة ، أو على الأصح مستحيلة ..
لا أستطيع رؤيته أو الاتصال به ، ووجدتني وحيدة مهارة يائسة ..
حتى الأمل المستمد من أمله قد انقطع ، والإيمان النابع من إيمانه قد
نضب .. فقد خيل إلى أن اليأس قد أصابه .. وأن ثقته قد تبددت
وعزيمته قد فلتت .

وأويت إلى مضجعى وقد تكاثرت الوسوس على ذهنى وكان أكثر
ما روعنى خشيتى أن يكون قد خلفنى ورحل ، وأحسست كأنى أهوى
فى بحر عميقة مظلمة لا قرار لها ، وأخفيت رأسى فى الوسادة أدفن فيها
عبراتى ، وقد تملكنى من خاطرى حزن شديد ، وأحسست أنى بت فى
محنتى وحيدة ، وأن الكل قد تخلى عنى .. حتى هو . الذى أمدنى
بالثقة فيه والإيمان بحبه .. والذى كان يمكن أن يعيننى فى كفاحى من
أجل حقنا فى الحياة قد خلفنى ورحل .

رحل !؟ ... لا .. لا .. إنه لن يخلفنى وحيدة أبدا .. لن يتركنى .
وحاولت جهدى أن أدفع عنى الهواجس .. وهى تهجم على بلا
رحمة ولا هوادة .

ما الذى يدعوه إلى البقاء ... بعد هذه الصدمة !؟ وإذا لم يكن قد
رحل فهو لا شك راحل .. بعد أن يرى النوافذ المغلقة والقطيعة
الجازمة المؤكدة .

لو أستطيع الاتصال به !! لو يعزف كما كان يعزف كل ليلة !! أو
حتى لو أسمع منه همسة واحدة .. لو ...

— ١٥٤ —

وفجأة ، وجدنتى أرهف السمع ، وأخرج رأسي من تحت الوسادة وأنصت جيدا .

عجبا !! إنه هو .. أجل .. هو بعينه .. يعزف لى ، إنه يناديني بمقطوعته « راجية » .

وأخذت أنصت ، وأرهفت مشاعري ، وشحذت قواى ، وركزت أعصابى فى أذنى .. وخيل إلى أن اللحن ينبعث خافتا من وراء النافذة المغلقة ، وأحسست أن اليأس قد تبدد ، وأن الإيمان قد عاد ، وأن الروح قد ردت .. وأنى بدأت أسترده أنفاسى ، لأعاود النضال .

وفيم أنا أرهف السمع لالتقاط الألحان الخافتة ... وجمع الأنغام الهامسة المتقطعة دخلت سيدة وهى تدفع الباب وتضيء الحجرة وتساألنى أن أنهض للعشاء فصحت بها وقد أغشى النور عينيّ وأطار صوتها اللحن من أذنى :

— أطفئى النور .. واذهبى .. إنى لن أتناول العشاء .

ولم تذهب « سيدة » بل جلست على الأرض بجوار الفراش تربت على كتفى .. تحاول أن تقنعنى بالصبر وترجونى أن أتناول ولو بعض الفاكهة التى أحضرتها لى .

ولم أكن أحس بقابلية للأكل أو النوم .. كانت أعصابى من فرط الجهد متوترة ، وكان كل ما أتلهف عليه هو مزيد من ذلك الصوت السارى من وراء النافذة .

وصحت بها أن تسكت وتكف عن الثرثرة .. أو تتركنى وحدى .. حتى أنصت للحنى المحبوب .

وبدت على « سيدة » الدهشة وقالت متسائلة :

— تنصتين إلى ماذا ؟

- ١٥٥ -

— إلى « راجية » .. إنه يعزفها لى ، إنه ينادىنى بها .. ألا تسمعين؟

وعاد الصوت ينبعث خافتا ، كأنه الهمس .
وانبسطت أسارىرى ، وعدت أسمع فى إرهاف شديد وأنا أقول
لسيدة :

— اسمعى .. إنه يعزف الآن .

وهزت « سيدة » رأسها فى دهشة وهى تتمتم قائلة :

— أنا لا أسمع شيئا .

— كيف لا تسمعين ؟ أنا أسمع جيدا .. أجل . أسمعه . أنصتى .

ولكن « سيدة » لم تسمع شيئا ؟

كنت أنا الذى أسمع وحدى .

أم ترى اللحن كله كان وهما .. من صنع الأعصاب المتوترة
والنفس المنهارة المحطمة ، وهم .. أو غير وهم .. إنه غذائى الوحيد
.. إنه كل ما تبقى لى . لست أريد منهم شيئا ... سوى أن يدعونى
وحيدة أستمع إليه .

وعدت أنصت إلى النغم .. أو أتصيده من عالم الوهم . وعاد
الصوت ينبعث خافتا ، وعادت « سيدة » تربت ظهرى قائلة فى حنان :

— ألا تستريحين قليلا !! ألا تنامين !

وصحت بها فى ضيق :

— اصمتى .. لا تتحدثى .. إنك تضيعين الصوت .. اذهبى من هنا

واتركينى وحدى .. لست أريد أحدا .

ونهدت « سيدة » ، وعدت أنصت .

وعاد اللحن ينبعث من وراء النافذة .

ولم أشعر بانقضاء الوقت .. بل لم أشعر بشيء أبدا .

وراقدة كما أنا .. مفتحة العين مرهفة الحس .. ألتقط همس الألحان التي أتصيدها من الهواء خافتة متقطعة .. بدأت أستقبل أول خيوط الفجر .. دون أن يجسر النوم على أن يراود جفنى .

وقبيل الفجر أحسست بالصوت يزداد خفوتا ، ولم تعد أعصابى المحطمة ولا سمعى المرهف .. تميزه ، إلا بجهد شاق وصعوبة شديدة ، وبدا لى كأنه صادر من آخر الأرض وخيل إلى أن فتحة يسيرة فى النافذة .. قد تمكنه من الوصول إلى واضح النغمات مميز النبرات ، ونهضت مترنحة أستند على الفراش . ودفعت النافذة دفعة هينة ، وجلست على الفراش أنصت .

ولكن الصوت انقطع تماما .

وأغلقت النافذة .. فعاد الصوت .. ينبعث خافتا .. متقطعا .. ورقدت على الفراش أجمع النبرات المتقطعة فى أذنى ... حتى فتح الباب ودلفت سيدة .

ونظرت إلى « سيدة » وقد بدا الارتياح على وجهها كأنها ترى شبحا . وأقبلت على تضع كفها على جبينى وقالت فى حزن شديد :

— ما هذا الشحوب البادى عليك ؟ ألم تنامى ليلتك ؟

وهززت رأسى بالنفى .. إذ لم تكن بى أقل رغبة فى الحديث ولا الإنصات .

كنت أشعر بقواى خائرة .. وبجسدى محطما ، ورأسى يكاد ينفجر ، وكنت أحس بحاجة شديدة إلى النوم حتى أفر من تفكيرى وأوهامى وآلامى .. ولكن لا أكاد اغمض عبنى حتى أحس بيقظة تامة ، وكانت حواسى ، ولا سيما مسامعى ، ترهف فى حدة ، كأنما تخشى أن يفر منها الصوت إذا ما غفت عنه .

وكان بنفسى عزوف عن الطعام .. فلم أذق مما حملته إلى
 سيدة شيئا ، ومر اليوم كالليل ، وأنا مرهفة السمع ، شاردة الذهن ،
 مفتحة العينين ... أتتقل من الفراش إلى المقعد ومن المقعد إلى الفراش .
 وانتهى اليوم وسقطت الظلمة ، وأقبل على ليل ثقيل « كموج البحر
 أرخى سدوله » .. حتى بت من ثقله أهتف :
 ألا أيها الليل الطويل ألا انجل

بصبح وما الإصباح منك بأمثل
 وأشرق فجر جديد ... دون أن يحمل إلى حديدا ، كنت كما أنا ..
 أتقلب على المرقد الجافى والمضجع النابى ، والسمع منى مرهف
 والجسد منهك محطم .
 وقبيل الضحى أحسست فى البيت حركة غير طبيعية ، وسمعت
 صونا غريبا ، وأقبلت على سيدة تنبتنى أن الطبيب قد أتى .
 وصحت بها فى حدة :

— لست أريد طبيا ... لا أريد أن يرانى أحد .
 وأمسكت « سيدة » بيدي وقالت وعبراتها تسيل فى صمت على
 خديها :

— يا سيدتى ... ارحمى نفسك من أجلى ، ومن أجل شهابك .
 — ارحمونى أنتم ، واتركونى ... إنى أبغضكم جميعا .
 واندفعت فى نوبة بكاء .
 وأخذت « سيدة » تكفكف دمعى وتربت حسدى قائلة :
 — كفى يا سيدتى .. كفى .. ماذا يقول عنا الطبيب ؟
 وأخيرا تماكنت نفسى ، ومسحت وجهى بمنشفة مبللة ، ورقدت
 أنتظر الطبيب .

وأقبل على .. ووجدته كهلا تبدو عليه الطيبة وكان فى صحبته
 جدى وعبد الرحمن ، وكانت المرة الأولى التى أرى عبد الرحمن فيها

— ١٥٨ —

منذ أن رقدت ، وبدا لى أنه لم يكن لديه أقل فكرة عما حدث إذ كان قد قدم توا من القاهرة .

وتقدم إلى عبد الرحمن وقد بدت على ملامحه دلائل الانزعاج ، وأمسك يدى برفق وسألنى فى لهجة شفقة حنون :

— ما لك يا راجية ؟ ماذا بك ؟

ولم أحب بأكثر من « لا شىء » .

كنت أكرههم جميعا .. بل كنت أكره الحياة كلها .

وتحنى عبد الرحمن ليفسح الطريق للطبيب الذى أمسك بيدي وسألنى باسمه :

— كيف الحال ؟ كفى الله الشر ! بماذا تشعرين ؟

وهزئت رأسى للدلالة على أنى لا أشعر بشىء .

وبدأ يحس النبض ويسأل :

— أظن ليس عندها حرارة ؟

وهزت « سيدة » رأسها قائلة :

— لم نقس الحرارة .. فحاررتها تبدو طبيعية .

— والهضم ؟

وعادت سيدة تجيب فى مرارة :

— أى هضم ؟ ماذا تهضم ؟ إذا كانت لا تأكل ؟ لقد مضت عليها

ثلاثة أيام لم يدخل جوفها سوى فنجان شاي :

وكان جدى يبدو متجهمًا ، ولم يكن قد حاول الدخول إلى خلل

الأيام الماضية ، وإن كانت « سيدة » أبلغتنى أنه يبدو حزينا غاضبا يثور

لأقل سبب وأنه قد أضحى لا يحتمل .

وسمعتة يتمتم قائلا :

— « دلع .. ومسخرة » ... عندما يقرصها الجوع ستضطر للأكل .

وأجابته « سيدة » بمثل تمتمة وكأنها تحدث نفسها :

— ١٥٩ —

— ألم يقرصها الجوع خلال ثلاثة أيام ؟ . لعلها جمل ! والنوم الذى لا يقرب جفونها .. أهو « دلع » أيضا ؟
ثم أشاحت بوجهها .

وأخرج الطبيب السماعة .. وجذب مقعدا جلس عليه بجوارى .
ورأيت عبد الرحمن يغادر الحجرة ويغلق الباب خلفه .
وأنهى الطبيب فحصة الشكلى الذى لم يكن منه بد .. ثم قال وهو يضع السماعة فى حقيبتها ..

— كل شئ سليم والحمد لله .. وأعتقد أن أعصابك مرهفة قليلا ..
سأكتب لك أقرصا تساعدك على النوم ، أكتب لك بعض الفيتامينات ،
وسأمر عليك بعد أسبوع ، وإن شاء الله أراك سليمة ويكون كل شئ قد زال .

ثم أخذ فى تحرير التذكرة .. وسيدة تنظر إليه وإلى الجد فى غيظ مكبوت .

وأخبرا نهض الطبيب .. وربت يدى فى رفق قائلا :
— شدى حيلك .. لاداعى للوهم ، ليس بك شئ على الإطلاق .
وغادر الرجل الطيب الحجرة .. يتبعه جدى ، وكان عبد الرحمن يقف خارجها منتظرا .. فسلمه جدى تذكرة الطبيب قائلا :
— خذ العربة .. وأحضر هذه الأدوية من أقرب صيدلية .
ثم هبط جدى السلم مع الطبيب .

ورأيت « سيدة » تندفع خارج الحجرة .. وسمعتها تقول لعبد الرحمن بصبر نافذ .. بعد أن فاض بها الغيظ :
— أية أدوية هذه التى ستحضرها ؟ أنخدع أنفسنا ؟ . أنترك الصبي تضيق « هدرا » ؟ حرام .. والله حرام .. إن ربنا لا يرضيه هذا وسمعت صوت عبد الرحمن يسألها فى دهشة :
— ما هذا الذى تقولينه ؟ ! كيف نخدع أنفسنا ؟

- ١٦٠ -

ولم تتمالك سيدة من الاندفاع فى البكاء وهى مستمرة فى قولها :
- حرام . حرام والله .

وعاد عبد الرحمن يسألها ناهرا وقد زادت به الدهشة :

- ما هذا الحرام ؟ « حرمت عليك عيشتك » .. تكلمى ؟

أفهمينى ؟

- ماذا أفهمك ؟ أهو شىء يحتاج إلى فهم ؟.. من قال إن المسائل
تؤخذ هكذا بالقوة . أهو حكم قراقرش ١١؟ أهى جارية لديه ؟

- لست أفهم شيئا أبدا مما تقولين .. فسرى الأمر لى .. أرجوك ...

- ألم يذكر لك سيدى الكبير شيئا ؟

- أبدا .. إنى لم أصل إلا قبل الدكتور بدقائق .. وكل ما أعلمه من
جدى أن راجية مريضة ، وأنه قد أرسل فى طلب الدكتور ، وأنبأنى أنه
عندما تشفى سنعلن الخطوبة ولنيس « الدبل » .

- هكذا ؟ حتى يأتى على نقيتها .. ويقضى عليها قضاء مبرما .

وتساءل عبد الرحمن فى دهش :

- يقضى على من ؟

- على سيدتى راجية ... يا ناس اتقوا الله !! أكل هذا يفعله فى
النت .. يغلق عليها النوافذ ويحرم عليها الدخول والخروج .. كأنها
سجينة .. حتى الحديقة يحرمها عليها ... ولم كل هذا .. أمن أجل أن

تقدم لها خطيب ؟

- تقدم لها ماذا ؟

- خطيب .

- متى تقدم ؟ ومن يكون ؟

- جارنا الأستاذ إبراهيم .. تقدم أول أمس .

- عجيبه !! كيف تقدم ؟

- تقدم ككل الناس .

- ١٦١ -

- أعني ماذا دعاه إلى ذلك ؟
 - رآها وأعجبته .
 - وماذا قال جدى ؟
 - ثار وفار .. وهاج وماج ... وقال إنها مخطوبة ... وإنها لو لم تكن مخطوبة ما قبل أن يعطيها له .. ثم صعد إليها .. وسود عيشها ..
 - سود عيشها هي ؟ وما ذنبها ؟
 - لأنها قالت إنها ليست مخطوبة .. وأنه ليس هنا من يستطيع أن يخطبها برغم أنفها .. إنها حرة تختار من تشاء .
 - أهي قالت له هذا ؟
 - أجل .. ومعها حق .
 - ولكن أتعرف إبراهيم ؟ أراته ؟ أبينهما شيء ؟
 - ربما .. من يدري ؟ .. أسلم الإنسان ... وهبها قد أحبته .. أقدم حرم الحب ؟ اليست بشرا لها قلب ولها شعور ؟ أنقذتها من أجل ذلك !! أم نعتبره قضاء الله .. فيها ... وفيها ... وعليها أن ندبر الأمر بالتى هي أحسن !
 ومضت فترة صمت سمعت صوت عبد الرحمن يقول كأنما يحدث نفسه :
 - إذا هذه هي المسألة .. هذا هو سبب المرض .. عجيب !
 ثم سمعت صوت أقدامه تقترب من الحجرة ، ولكن « سيدة » اعترضت طريقه قائلة :
 - إلى أين ؟
 - دعيني أحدثها .
 - ماذا تريد أن تقول لها . اتركها وحدها أرجوك . كفى ما فعله بها جدك .
 - لا تخشى شيئا .. إننى أعرف كيف أحدثها ..
 ثم سمعت صوت أقدامه تقترب من باب الحجرة .
 (فديتك يا ليلي)

الفصل التاسع

وجهة نظر

عبر عبد الرحمن الباب ووقف أمامي يتسسم فى رفق ... ولم أرد على ابتسامته ... إذ لم أكن فى حال يساعدننى على الابتسام ... وكنت أحس له شعوراً بالعداء .. رغم أنه لم يشترك فى المعركة .. إذ كنت أراه خصماً بحكم مركزه .

وجلس عبد الرحمن على حافة الفراش وأمسك يدي بين يديه ولم يكن بى من القوة ما أحاول به نزعها ... فتركها فى موضعها وقال لى فى صوت رقيق ينادينى باسم التذليل الذى تعود أن ينادينى به منذ الصغر :

— ماذا بك يا روجة ؟! ماذا يضايقك ؟

— لا شىء .

— بل بك شىء .. حدثينى بصراحة ولا تخفى عنى شيئاً .. اعتبرينى

عبد الرحمن أنحك .. قولى ما بك ؟

— قلت لك ليس بى شىء ... أرجوك أن تدعننى .. فلانى متعبة لا

أستطيع الحديث .

— إذاً فلا تحدث ولاكن أنا أكثر صراحة .. أنت تعلمين يا راجية

... أننا نشأنا معاً كأخوين ... وأن لك فى نفسى موقع الأخت ، وإنسى

أكره كل ما يؤلمك أو يضايقك ، وإذا كنت قد صمتت عن حديث

جذك فى خطبتنا صمتت الموافقة .. فلم يكن صمتى هذا إلا لأن المسألة

لا تعدو مجرد لغو لا يستحق الجدل .. لغو طبعى يحدث فى كل عائلة

بها قريان مثلك ومثلى ، ولست أعنى بذلك أنك لم تكونى فى نظرى أهلاً

لى ، بل إنى أراك دائما خير الفتيات وأصلح الزوجات .. ولكنى لم أفكر قط فى أن تكون المسألة قسرا ولا فرضا ... كنت أعتقد دائما أن الخطيئة إذا تمت فلن تتم إلا برغبة مشتركة من كلينا ، وأن حرصك على إتمامها لن يقل عن حرصى ... ورضاءك عنها لن يقل عن رضائى .. أما أن تفرض عليك كما تقولين فرض الاستعباد وتقيدين بها قيد الأسر فهذا لم يخطر على بالى قط ، فليس بى نحوك ولّه يُعمى بصيرتى عن مصلحتك ولا حب يسمنى بطابع الأنانية ، وكل ما أحسه لك إعجاب بخلقك وتقدير لك وأنت تعلمين أن طريقتى فى الحياة دائما غير شاعرية أو هوجاء وأنى لا أتصرف فى أمر إلا بعد تفكير وروية .. وأنه إذا ما استعصى على أمر .. ففى غيره بديل عنه .. وأن حكمتى فى الحياة هى :

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
أقول لك هذا عن نفسى ، وأنا أكره الحديث عنها ... حتى أطمئنك من ناحيتى ... وأعتذر عن كل ما حدث مما لم يكن لى به دخل .. ولأؤكد لك أنى سأفتح لك الباب على مصراعيه وأفسح لك الطريق على سعته ، ولست أتخلى عنك من باب التضحية وإنكار الذات .. بل لأنى أحبك حب الأخت .. ولأنى لست أشعر بحاجة ملحة إلى الزواج .. وعندما أشعر أعتقد أن الذى خلقك لم يعجز عن خلق سواك ، أو كما قال المثل الإنجليزى « لم يزل فى البحر من السمك أكثر مما خرج منه » .

أضحكى الآن ... وأربنى أسنانك الحلوة ... ودعى عنك هذا التمارض أيتها الماكرة .

ووجدتنى .. على غير إرادة منى .. قد ضحكت .
وعاد يقول مازحا :

— ١٦٤ —

— أهكذا كنت عبثا ثقيلًا عليك ؟ تخونك العشرة .. واللعب الذى لعبناه معا .

ولم أدر كيف أجيبه ، لقد فعل فىّ حديثه فعل السحر . لم أكن أتوقع منه كل هذا .. لا لأنى أعرفه أنا نيا نهازا للفرص ، بل لأن الأحداث التى مرت بى وحطمتنى لم تدع لى بارقة أمل فى أحد ، وأضاعت ثقتى بالجميع .

وبرغم أن حديثه أدهشنى كمفاجأة لم أتوقعها .. أجده — إذا حاولت استعادته لنفسى — لا يزيد على أنه خير معبر عن نفسه تمام التعبير ، وأن ذلك هو خلقه وتلك هى طبيعته وأن هذا هو التصرف الذى كان يتصرفه فى كل ما يصادفه من شؤون الحياة .. وأنا ما تنازعنا فى صبابنا على شىء إلا تركه لى بمنتهى السهولة والترحيب . ونظرت إليه وقتذاك ... والدهشة ما زالت تعقد لسانى وكأنى غير مصدقة ما قال .. وهتفت به :

— أتقول حقا يا عبد الرحمن ؟

— ألا أقول حقا !! هذه أعتبرها إهانة .. منذ متى تعودت أن أكذب عليك ؟

— أنا متأسفة .. أنا أعرف أنك لا تكذب ، ولكن ما مر بى جعلنى محطمة الأعصاب .. لا أثق فى أحد ولا أصدق أحدا .. اعذرنى يا عبد الرحمن .. لأنى كرهتك برغمى ، وبرغمك .. كرهتك لأن جدى حاول أن يصنع منك قيدا يأسرنى به . واندفعت فى نوبة من البكاء .

وأخذ عبد الرحمن يربت ظهرى فى رفق محاولا تهدئتى وهو يقول :
— أو تعلمين أنى أكون قيدا .. ولك أنت يا راجية ؟ خففى عنك .. ودعى البكاء جانبا .. انهضى من فراشك واضحكى ، وألق عنك الهم والتفكير .

- ١٦٥ -

وأخذت أصحك خلال العبرات التى لم تحف بعد .. وقلت لعبد الرحمن :

- كان يجب أن أثق بك أكثر من هذا ... ولكنى كنت أخشى أن تكون مصرا على الخطبة وأن تكون فى صف جدك .

- من الآن .. تأكدى أنى فى صفك .

- أجل ، ولكن .. جدى ؟

وخيمت على وجهى سحابة حزن .. وتساءل هو :

- ما له جدك ؟

- ماذا ستقول له ؟

- اتركه لى .. أنا أعرف كيف أفاهم معه .

- ولكن هبه لم يقتنع ؟

- يقتنع بماذا ؟ المسألة لا تحتاج إلى إقناع .. سأقول له فى سر

إنى قد صرفت عن الخطبة نظرا .. وأنى لا أريد الزواج منك .

- أو تظن أنه سيقبل قولك بسهولة ؟

- بسهولة أو بصعوبة .. ليس أمامه إلا قبوله .

- وهبه ثار .. وغضب .. وهددك بأقصى ما يمكن أن يهدد به .

- مثل ماذا ؟

- مثل .. مثل علاقته بك والاستغناء عنك ، وحرمانك إرثه ؟

وضحك عبد الرحمن ... ضحك بشدة لم أتوقعها ، كأنما ألقيت

إليه بنكتة مستملحة ثم قال بعد أن انتهى من ضحكه :

- الظاهر أنك حسنة النية .. ولكنك معذورة لأنك خالية الذهن من

كل شعورنا .. ولست اظن أن هناك وقتا لكى أشرح لك كل شىء .

ولكن لكى أثبت لك أنه لا يستطيع قطع علاقته بى ولا الاستغناء

عنى ... أخبرك أنى عندما تسلمت أعماله .. كانت ثروته كلها بما

فيها الأراضى موشكة أن تضيق ، وأنى فى بضعة الأعوام التى توليت

- ١٦٦ -

إدارتها .. زادت ثلاثة أمثالها .. ولست أزعم أنى صاحب معجزات .. ولكنى أؤكد أنى فعلت له الكثير .. وأن الحظ ساعدنى أكثر ، ومن هذا يتبين لك أنه لا يستطيع بسهولة أن يستغنى عنى .. أما مسألة حرمانى الإرث فانا لم أفكر فى إرثه قط .. ولا طمعت فى أمواله ، ولا أموال غيره ... أنا أحب الكفاح والعمل ، وطلبتى فى الحياة هى أن أرقب ثمرة ما أكافح من أجله وأراه ينمو ، وأن أمسكه بيدي وأبصره بعينى .. تلك هى أقصى بغيتى فى الحياة .. هى عندى كالموسيقى عندك .. أنا أكره اللقمة الجاهزة .. التى لم أتعب فى تحصيلها ، وإرث جدك الذى سيورثنى ويورثك أياه من صنع يدي . والذى قدرنى على عمله يقدرنى على عمل غيره ، وغيره .. لا تحسلى لى هما .. أنا أعرف كيف أقتنه إذا احتاج الأمر إلى اقناع .

ونزل على حديثه بردا وسلاما ، ولكن الذهن الذى لا يهجع عاد يخلق المصاعب ويبرز العقبات ووجدتنى أطرق برأسى ثم أقول فى صوت خافت ملؤه الحياء :

- ولكن .. هل تظنه يقبل الخطبة الثانية ؟

وأطرق عبد الرحمن برأسه وصمت ، وبدأت أحس بالندم على قولى .. ما له هو ولهذا حتى أقحمه فيه ؟ ألم يكفى أن فك عنى القيد وأفصح الطريق ؟ وهممت بالاعتذار .. ولكنى وجدته يرفع رأسه ويقول متسائلا :

- اسمعى يا راجية .. أتحيينه ؟

واندفع الدم إلى وجهى ، ولم أستطع أن أقول شيئا . ولكنى أومأت برأسى لإيماءة خفيفة علامة الإيجاب .. وعاد يسأل :

- حب متئد رزين عميق .. غير طائش .. ولا مندفع .. أعنى حبا

يربط حياة اثنين وليس نزوة طارئة ؟!

ومرة أخرى أشرت برأسى وعينائى مثبتة فى غطاء الفراش .

— ١٦٧ —

واسترسل هو فى أسئلته التى خلقتها لن تنتهى :

— وهو ؟ أيجبك كما تحبينه ؟

وهو ؟ .. أستطيع أن أكرر له مناجاته ؟! أستطيع أن أتلو عليه آياته التى أحفظها عن ظهر قلب ؟! طبعاً لا . إن كل ما استطعت أن أقوله هو :

— أظن ذلك .

— أعتقدين أنه سيكون لك زوجاً وفيما .. وأنه سيمنحك حياة طيبة ؟ وكان يتحدث بلهجة مثتدة .. كأنه أحد القسس الذين يعقدون مواعيق الزواج كالذين رأيتهم فى « السينما » .

ومرة أخرى أومأت له برأسى .. نعم .

وانتهى الاستجواب ... ونهض عبد الرحمن وهو يقول :

— سأبذل كل جهدى ... وربنا يسهل .

وربت يدى ثم أدار ظهره مغادراً الحجرة ... وقبل أن يبلغ الباب نظر إلى وقال مبتسماً :

— سأقوم بالمهمة بشرط ..

— سل ما تريد ؟

— أن تضحكى وتزيحى عنك ذلك العبء الذى ترزحين تحته .

— لقد أزحته أنت .

— إذا فانهضى . ودعى عنك ذلك النوم الذى يمرض السليم وسأذهب إلى جدك الساعة ؟

ونهضت من الفراش ، وقمت لأغتسل وقد تبدد اليأس من نفسى وحل مكانه أمل وليد .

ومرة أخرى جلست فى الحجرة على طرف الفراش وحيدة أتمتم بالفاتحة ، وبيقية الآيات القرآنية التى أعرفها .. وأدعو الله ألا يخذلنى هذه المرة .

ومضى الوقت وبدأت أرقب عقرب « المنبه » وأعد دقائقه وأخذ اليأس مرة ثانية يتسرب إلى قلبي .

أجل .. لو أن عبد الرحمن قد أفلح في سعيه .. لما غاب عنى تلك المدة ولأقبل على يبشرنى بالنتيجة .

أنا أعرف جدى وأعرف عناده .. لا بد أنه قد نهزه كما نهز إبراهيم ورفض الاستماع إليه أو مناقشته .

ولكن لماذا لم يصعد عبد الرحمن لينبئنى بالنتيجة أيا كانت ؟ لم يتركنى هكذا معلقة بين اليأس والرجاء ؟

أتراه قد خدعنى ؟!

ولكن لا .. ليس هو الذى يفعل ذلك .. إنى أعتقد أن جدى قد ثار عليه .

لعنة الله .. لقد ورطته كما ورطت إبراهيم .

أجل .. أنا السبب فى كل هذا .. كان يجب ألا استسلم للأمل من أول الأمر .

وظفقت العبرات تسيل صامتة من مقلتى .

ودفنت رأسى فى الوسادة .. عندما أحسست فجأة بالبواب يدفع ، وبالوسادة ترفع من فوق رأسى . و « سيدة » تنحنى على وتضمنى إليها وتقبلنى وأنفاسها لاهثة متقطعة وهى تقول كأن بها مسا من جنون :

— مبروك يا ست راجية .. انهضى ..

ثم تركتنى فجأة .. ورفعت يدها إلى السماء :

— إلهى يخليك يا سيدى عبد الرحمن ... إلهى يسعدك ولا يريك سوءا فى حياتك أبدا .

ولم أتركها تسترسل فى دعواتها ... فقد كنت أعتقد أن باب السماء مفتوح فى أى وقت لتلقى الدعوات .. وأنه لا ضير على « سيدة » ولا

- ١٦٩ -

على « عبد الرحمن » ... إن هى أجلت دعواتها فترة ، أما أنا
فستصينى جنة لو لم تعجل لى بالشرح .

قلت لها فى لهفة مجنونة :

- ماذا حدث يا سيدة ؟! أخبرينى ! تكلمى ! .

- صبرك علىّ يا سيدتى حتى التقت أنفاسى .

ولكن قبل أن تلتقط أنفاسها كان عبد الرحمن قد أقبل فى ثودة ،
وقد بدت على وجهه علام لست أدرى كيف أصفها ولا إلى أى كفة
أرجحها أهى فرح .. أم حزن .. أم خليط من هذا وذاك غلب عليه
شعوره بالانتصار وبأنه أسدى إلى إنسان جميلا أزال به شقاءه ؟ .

على أى حال لقد أقبل على فضمنى إليه ولثم جبينى وقال :

- الحمد لله أن وفقنى إلى إسعادك ... كنت أودك لى ، ولكن لا
بأس .. لقد حق على المثل « تكون فى بقك وتقسم لغيرك » ...
وييدى يا راجية .. لا بيد عمرو .

ورفعت عينى إليه ، وخيل إلىّ أنى قد طعنته من حيث لا أدرى ، قد
عميت إلا عن نفسى ، وقلت له :

- أضايقتك يا عبد الرحمن ؟

- لا تكونى مجنونة ، يكفينى هذه السعادة التى أنت فيها ،
ويكفينى أنى خلصت عن نفسى قيدا كنت أوشك أن أضع يدي فيه ..
أنا أحب الحرية وأحب العمل والكفاح .

ووقع بصره على النافذة المغلقة .. فمد يده وفتح مزلاجها ودفعها
دفة فتحتها على مصراعها وقال :

- انتهينا .. لا قيود بعد اليوم ... لقد فك الحصار .

وكنت فى لهفة شديدة لأن أسمع من فمه التفاصيل فقلت له :

- اجلس ... وقل لى كل ما حدث .

- ١٧٠ -

- كل ما حدث ... تستطيع قصه عليك هذه « الحيوانة » التي كانت تسترق السمع من وراء الباب ، والتي لولا انها مكي في الحديث وخشيتي من أن أضيع المسألة ... لقمتم وحطمت رأسها .. قولي لها يا سيدة ما حدث .. أظنك تعرفينه أكثر مني ؟

ورفعت سيدة يديها إلى أعلى وعادت تواصل دعواتها :

- إلهي يسعدك يا سيدي عبد الرحمن ، إلهي يخليك .

وعاد عبد الرحمن يقول :

- أما أنا .. فأستأذن للذهاب إلى إبراهيم ... لكي أعتذر له .
وأدعوه لزيارة جدى ، يجب أن نطرق الحديد وهو سخن ، قبل أن يعدل .
وغادر عبد الرحمن الحجرة ، وتركنى وسيدة ، وأقبلت على سيدة أجذبها من عنقها وأنا أضحك فى شبه جنون :

- اجلسى هنا .. قولي ما حدث .. كلمة .. كلمة .

- اصبرى على يا سيدتى قليلا . مالك تجذبينى هكذا ؟ لقد مزقت ثوبى .. دعينى أصلحه أولا .

- تصلحينه ؟ اجلسى أيتها البلهاء ، قولي ماذا حدث ؟

- حدث يا سيدتى .. خير والصلاة على النبى ، دخل سيدي عبد الرحمن على حدك وقد أمسك « بالروشته » فلم يكد حدك يراه حتى صاح به .

- ألم تذهب بعد لشراء الدواء؟!

- هناك بعض كلمات أود أن أسر لك بها .

- بعد .. بعد ... الدواء أهم .

- بل ما سأقوله أهم كثيرا من الدواء .

- ليس هناك شيء أهم من الدواء .. انى قلق جدا على راجية .

- ولهذا أفضل أن أحدثك قبل أن أذهب لشراء الدواء .. إنى أود أن أحدثك أيضا بخصوص راجية .

— ١٧١ —

— بخصوص راجية ١؟ ماذا تريد أن تقول ١؟
— أريد أن أقول إنى عدلت عن خطبتها .
وفغر جحك فاه ، وقفز من مقعده ، كمن لسعه عقرب ، وصاح بعبد
الرحمن :

— ماذا تقول ؟ عدلت عن خطبتها ١؟ أجننت ؟
— جننت لماذا ١؟ أعتبر عدول الإنسان عن خطبة لم تتم .. جنونا ؟
— لعلك أنت الآخر .. تحب ١؟
— لا .. أنا لا أحب .. ولا أريد أن أخطب .
ونظر إليه جحك فى دهشة ؟ وبدا له أن عبد الرحمن يهذى فقال له
محاولا إنهاء الحديث :

— اسمع يا عبد الرحمن .. ليس هذا وقته .. إن بى مايكفينى ..
دع هذا الحديث الآن .. واذهب أولا لشراء الدواء .. وعندما تشفى
راجية ... يحلها ربنا .

— الدواء لن يشفى راجية .. نحن نعرف جيدا دواءها .. فلا داعى
لأن نتغابى ، ونخفى رءوسنا فى الرمال ، يجب أن نواجه الحقائق .
— أية حقائق هذه التى تريد مواجهتها ؟ لقد واجهتها وحدى بطريقة
حاسمة .

— وكانت النتيجة كما ترى .
— المسألة تحتاج إلى قوة وعزيمة .. اذهب أنت لشراء الدواء ..
ودع لى الامور أدبرها كما أرى .. غدا ستشفى وتعقل .. ويتم كل
شئ على ما يرام ...

— أنا واثق أن الدواء لن يفعل بها شيئا .. ثم أى شئ هذا الذى تظنه
سيتم على ما يرام ١؟ هل تتخيل أنى أقبل أن أفرض نفسى عليها فرضا ؟
— من قال إنك ستفرض عليها نفسك !! إن ما بها نزوة طارئة
سرعان ما تزول ؟

— طارئه أو غير طارئه .. إننى لا أريد الخطبة ولا هى تريدها .
— أنتما ما زلتما أولادا صغارا .. لا تعرفان مصلحتكما .إننى أعرف
مصلحتكما خيرا منكما .. وإن لى وجهة نظر فى المسألة .. سأعرف
كيف أسويها ..

— هذا هو الخطأ .. يجب أن تسوى الأمور من وجهة نظرنا نحن لا
أنت .. إن كل إنسان له وجهة نظره فى الحياة .. بل إن الإنسان
الواحد تختلف وجهة نظره فى مختلف أطوار حياته ، ولكن شر ما فى
الامر أنه يأبى على غيره أن ينظر إلى الحياة إلا من وجهة نظره الخاصة
.. حقيقة أنت الآن محنك مجرب .. وحقيقة أنك تنظر إلى الحياة
نظرة اتزان وجد وحكمة وروية وتزن كل أمورها بميزان العقل
والمصلحة .. فأنت تكره لعب الصغار وتسخر من نزق الشباب وحرارة
مشاعره ، وتنسى أنك فى وقت ما كنت طفلا وأن دنياك كانت دنيا
لهو ولعب ، وأنت كنت شابا .. وكان النزق هو الأصل فى الحياة
وكانت الحكمة سخافة وغباوة .. والروية جمودا والعقل غباوة ، وأنت
كنت ترى الحياة الحب والحب الحياة .. إنك تنسى كل هذا وتأبى إلا
أن ينظر الناس على مختلف أعمارهم إلى الأمور نفس نظرتك . فإن لم
يتصرفوا التصرف الذى يتفق مع وجهة نظرك .. كانوا حمقى مجانين
.. وكانت كل أفعالهم خرق وطيش وجنون .. لا .. لا ... دع كل
امرى يدبر أمره من وجهة نظره هو .. إنه أدري بمطالبه ومشاعره ..
وهو مسئول عن حياته .. وعن نتائج أعماله ، وإذا كان لابد لك من أن
تدبر أمره فافهم نفسيته وقدر مشاعره وليكن تدبيرك ما أمكن من جهة
نظره وبطريقة تفكيره .

— ما شاء الله .. أنت تحاول أن تعطينى درسا ١٩
— ليس هذا درسا .. ولكنه رجاء .. رجاء بأن تغير طريقتك التى
توشك بها أن تدمر حياة أعز الناس لديك .. ألسنت تحب راجية ؟

أحبها أكثر من أى شىء فى هذه الحياة .. أكثر منك ومن نفسى ،
ولهذا أضن بعمرها أن يذهب هباء وأكره أن تتنكب الطريق سوى .

— ليس هناك طريق سوى وغير سوى .. إن استواءهما نسبي ..
يختلف باختلاف النظر والتفكير .. فما تراه أنت سويا يراه المائل عنك
غير سوى .. وما يراه هو سويا تراه أنت غير سوى .. وليس هناك
مقياس للاستواء ثابت فى حياتنا يمكن أن يقاس إليه ، فأى طريق
مستقيم يميل إذا ما ملت عنه ويستقيم إذا سرت فيه .. ماذا تنكره على
راجية ١٩ ؟ أتذكر عليها أنها أحببت ١٩ ؟

— أتجرو أنت على أن تقولها بمثل هذه السهولة ؟
— ولم لا ١٩ ؟ إذا كنت تنكر عليها مجرد الحب فى حد ذاته ، فهذا
محض خطأ .. وهذا ما لا يقرك عليه إنسان .. فالطبيعى أن يحب المرء
وغير الطبيعى ألا يحب .. وإذا كنت أنت أو أنا لم نحب .. فقد
تكون طبيعة مشاعرنا جامدة .. أو قد يكون العمل استنفد كل أحساسنا
.. فلم يبق منه شىء لنوجهه إلى الحب أو قد تكون الظروف أبت علينا
الحب .. ولكن ليس هذا معناه .. أن نحرم على غيرنا الحب .. أما إذا
كنت تنكر عليها أنها أحببت هذا الشخص بالذات .. فهذا هو العجب
العجاب .. لأنه ليس مفروضاً عليها أن تحب من تريد أنت أن تحب
... بل ليس المفروض أن تحب من تريد هى أن تحب . لأن الحب ..
كما لا شك تسمع .. إذا كنت لم تجرب .. شىء يفعله الإنسان بلا
إرادة منه .. بل أغلب ظنى أنه يصاب به كما أصاب أنا وأنت
بالإنفلونزا أو الصداغ .

— ما شاء الله ... لم أكن أعرف أنك أصبحت فيلسوفاً أو محامياً .
— ليست هذه فلسفة أو دفاعاً .. إنها مجرد توضيح لحقائق أود ألا
تخفى عنك .. وأنت تقرر مصير أعز الناس لديك حتى لا تظلمها
وتفسد مستقبلها .

— ١٧٤ —

— إنى أظلمها وأفسد مستقبلها إذا زوجها من هذا « المزيكاتى » .. ماذا تظنه يكون أكثر من هذا ١٩

— أنا لا أناقش فى أنه « مزيكاتى » ، أو « قرداتى » . المهم كيف تراه هى .. هى التى سشاركه حياته .. بعد بضعة أعوام — أمد الله لنا فى عمرك وأطال فى حياتك — ستذهب أنت وتتركها تتحمل وحدها نتيجة اختيارها .. إنها هى التى ستجنى الثمرة .. وهى وحدها التى عليها أن تنتخب البذرة .

— وهذا ما يجعلنى أصر على رأى .. إنى أحب أن أضمن لها حياة سعيدة بعد أن أتركها وحدها ، وأنا أبعد منها نظرا .. وأسلم تفكيراً .
— إذا فلتسد إليها النصح ، وتوضح لها الرأى ... وتنبئها أية كفة ترجح ثم تترك لها حرية الاختيار .. فإذا أخذت بنصيحتك كان بها ، وإن لم تأخذ فقد أدبت واجبك وأرحت ضميرك .. أما أن تفرض عليها رأيك بمثل هذه القسوة وتكرهها عليه أكرهاها .. فهذا ما يسمونه الاستعباد ... ونتيجته كما ترى ... إذا كنت تنوى أن تقتلها .. فاستمر فى طريقك ... وتفضل .. إليك « الروشة » .. هات لها الدواء عسى أن ينفعها .. أما أنا فقد أدبت واجبى ونفصت يدى من الأمر كله .
وترك عبد الرحمن « الروشة » على المنضدة واتجه إلى الباب يهيم بالخروج .. ولكن جلدك قفز من مقعده وصاح به :
— تعال ... اجلس .

وتراجع عبد الرحمن وعاد إلى مقعده .
وأطرق جلدك برأسه برهة ثم زفر زفرة حارة ورفع وجهها بدا عليه الانهيار والاستسلام ، وقال فى صوت خافت :

— أظن يا عبد الرحمن أنى راض عن حال راجية !! إنها تمزق قلبى .. ألا تعرف قيمتها فى نفسى .. كنت أود أن يحقق الله أمنيتى .. وأراها عروساً لك .. ولكن ما حيلتى إذا كنا نقدر ، فتضحك منا

الأقدار . لقد ظننت أنى أستطيع نزع ما برأسها بالقسوة ... فقسوت عليها وقلبي موجه .. وظننت الغمة ستنقشع بعد بضعة أيام وقلت لنفسى إن مستقبلها يستحق أن تتحمل هى واتحمل أنا معها بعض الألم .. وكنت أتوقع منك العون والمساعدة .. ولكنى وجدت لك عوناً لها علىّ ، وأنا أعرفها عنيدة مكابرة ، ولكنى لم أتصور أن العناد يبلغ بها الحد الذى يجعلها لا تأكل أو تنام .

— ليست المسألة عنادا .. إن أعصابها منهارة .

— لتكن ما تكون .. ماذا تريد منى الآن ؟ لقد أصبحت أنا المخطئ وأنتما صائبان .. إني تارك لك الأمر للتصرف كما تشاء .. كل ما أرجوه منك أن تسرع بإحضار الدواء .. لأنى لا أطيق أن أراها كما رأيته اليوم .

وأسرع عبد الرحمن فمزق «الروشته» شراً ممزق وقال له :

— هذه هى «الروشته» .. قد انتهى أمرها حتى تريح نفسك منها .. إني كفيل بشفاؤها .. دع الأمر لى .. سأذهب الآن إلى إبراهيم لأعتذر إليه وأدعوه إلى مقابلتك الليلة .

وهز جديك رأسه وأجاب :

— افعل ما تراه .

واندفعت إليك .. وأنا أكاد أجن .

وصمتت سيدة .. وصمت أنا .. وأحسست بكثير من الندم على ذلك الشعور البغيض الذى كنت أحسه لجدى .. ما كان يجب على أن أبغضه ذلك البغض .. وأن أندفع أمامه ذلك الاندفاع الأحمق الذى اندفعته بعد أن أضاع رفضه صوابى .

كان يجب أن أعرف أن كل ما بيننا هو اختلاف فى وجهات النظر .. إن غرضنا واحد .. ولكن الرسائل اختلفت ... كلانا يبغي سعادتي .. ولكنى رأيته فى إبراهيم ورأها فى عبد الرحمن .

كان يحب ألا أعتبره خصما لي يبغي القضاء على مستقبلى . وأى مصلحة له فى هذا ؟

ولكن أنى لي أن أفكر فى هذا التفكير وقتذاك !!
لو استطعنا أن نسيطر على مشاعرنا وكبحنا حماح غضبنا لأمكننا أن نحصل على أفضل مما نحصل عليه إذا أطاش الغضب صوابنا .
أم ترى أن المسألة ما كانت تتم .. لو لم أندفع لخوض المعركة ...
بمثل هذه الثورة .. وأنى ما كنت أحصل على ما حصلت عليه إلا بالكفاح والنضال والآلام !!
الله وحده أعلم ؟

كل ما يهمنى الآن .. هو أن أملئ قد تحقق .. وأوهامى قد باتت ملء يدى .. وأنى وإبراهيم .. قد انتصرنا فى معركة حياتنا المشتركة .. ومصيرنا المرتقب .

ووجدتني أذكر الله ، وأقول من كل قلبى « الحمد لله » .
وكما صاحبتنى الدموع فى أحزانى .. وجدتها تهبط منسابة من عيني .. لتصاحبني فى فرحتي .

ووددت لو أقفز من النافذة وأعدو إلى إبراهيم فأضمه بين ذراعى وأضع رأسى فى صدره .. وأنبشه أن كرامته قد ردت ، وأن جدى سيعتذر له .. ويقول إنه يشرفه أن يزوجنى إياه ...

أجل .. لقد كان أكثر ما يسبب سعادتى .. هو احساسى بأنى لم أخذل إبراهيم .

الفصل العاشر

نهاية تجربة

وهكذا تددت فجأة غيوم اليأس المعتمدة التي كانت تملأ سماء حياتي .. وإذا جلا ميد الصخر التي كانت تحول بيبي وبين إبراهيم .. أو على الأصح .. بينى وبين الحياة .. والتي كنت أراها توشك أن تنقض على فتركتنى حطاما .. قد تفتت وذابت .. وأضحى الطريق إلى أمنية النفس سهلا معبدا .

ورحت من فرحتى أشبه بالسكرى أو المأخوذة لا أكاد أعى ما حدث فى بضع الساعات التالية .. كل ما أحسسته وأنا قابعة فى غرفتى أن فى الدار حركة غير طبيعية ، وأن أقداما تروح ، وأقداما تغدو .. وعلمت من سيدة أن عبد الرحمن زار إبراهيم .. وإن إبراهيم أتى لزيارة جدى .. وأنهما تفاهما بسرعة عجيبة .. وأن جدى كان رقيقا معه واتفقا على إعداد « دبل » الخطبة لكى نلبسها فى أقرب وقت . وانتهت المسألة فى يسر وسهولة .. وكان الإعياء قد بلغ منى أقصاه ، فلقد أنهكتنى الانفعالات الشديدة التى مرت بى ولم أعد أملك إلا الرقاد والاستغراق فى سبات عميق .

وفى اليوم التالى تمت الخطبة .. ولست أظن شرح سعادتى بالأمر السهل .. لقد كنت فى كثير من الأحيان عندما أخلو لنفسى ، وأذكر كيف كنت اعتر سعادتى . فى سماع إبراهيم مع ألوف الناس . ثم كيف أصبحت أشعر بعد ذلك أن السعادة قد فاضت بى وأغرقتنى عندما كان يعزف لى .

كنت عندما أذكر هذا لا أكاد أصدق أنه قد بات ملكا لى .. وأن
من حقى أن أحلس معه .. وأحدثه ... وأناجيه ويناجينى ... وصار
هذا حقا مقرا من الناس والتقاليد ... لا حقا مختلسا أو مسلوبا .
كانت سعادتى تفوق الوصف .. ولم يكن يخيفنى إلا تخيلى فى
بعض الأحيان أنى أمر بحلم .. نهايته اليقظة .

واستيقظت أول فجر بعد الخطبة على صوت أنغام يحملها النسيم
من دار إبراهيم ، وتذكرت أول مرة ذهبت إليه عبر السور
وأحسست برغبة جارفة تدفعنى إلى أن أكرر ما فعلت .

وغادرت الحجرة هابطة إلى الحديقة .. وصعدت إلى السور وقفزت
منه إلى الأرض .. وبنفسى أحساس بمتعه عجيبة .. متعة السارق ..
الذى يعرف أنه لا سلطان لأحد عليه .. أو متعة الذى يأتى ما كان
محروما عليه .. لكى يشبع فى نفسه رغبة الاستهتار .

وأخذت أتسلل إلى الشرفة على أطراف أصابعى ... ولم يكن فى
هذه المرة صوت المسجل هو الذى يعلو .. بل كان هو نفسه جالسا
أمام « البيانو » واستمررت فى الاقتراب حتى وقفت وراءه .. ثم مددت
يدى ووضعتها على عينيه .

وسمعتة يهتف فى صيحة جذل ودهشة :

— راجية !!؟

— كيف عرفتنى ؟

من مسة يدك .. وهبة عطرك .. إنى أعرفك لو مررت بى من بعد
ميل .. أعرفك من نسمتك كما قال الشريف الرضى :

هبّت لنا من رياح الغور رائحة

بعد الرقاد عرفناها بـرياك

— أنا لا أفهم الشعر .

— ١٧٩ —

— وأنا أحب ترديده والترنم به .. إنه أقرب الكلام إلى الموسيقى .. تعالى .

ثم جرنى من يدى إلى حجرة مجاورة فرأيت رفا صفت عليه الكتب .
وأردف قائلا وهو يشير إلى بعض الكتب :

— هذه كلها دواوين شعر .. ألجأ إليها وقت الراحة .

— والباقي ؟

— فى الادب والموسيقى .. وهناك كتاب فى علم الأرواح ، وآخر فى علم النفس .

— لم أكن أظن أن لديك وقتا للقراءة .

— إنى أحب القراءة .. وأخلق لها الوقت .

— وأنا أيضا أحبها .. ولدى مكتبة سأريكمها عندما تأتى إلى ..

ولكن معظمها روايات وأقاصيص .. إنى لا أطيق الشعر .

— وأنا أيضا لدى بعض القصص سأعيرها لك .. إن كنت لم تقرئها .

— ولكن كيف تجد وقتا للقراءة وللتلحين ؟

— كل شيء مستطاع مادمت فى حالة نفسية طيبة .

— وإذا لم تكن ؟

— أبارك الله .. لقد مضى على بضعة أيام عقب أن خذلتنى جدىك ،

وكنت لا أكاد أفعل شيئا .. سوى الحملقة والشروود ... ويخيل الى أنه

لو طال بى الوقت أكثر من هذا .. لفقدت عقلى .

— وبعد ذلك ؟؟

— فى أول ليلة .. لم أفعل شيئا من فرط الفرحة والطرب .. وبعد

ذلك فعلت فى يومين .. ما لم أستطع عمله فى شهر بأكمله .

— أحقا وضعت ألحانا جديدة ؟

وكنا قد عدنا إلى حجرة « البيانو » وقد تشابكت أصابعنا وجلسنا

على الاركة متجاورين .. وأجابنى قائلا :

— ١٨٠ —

— وضعت ما أعتقد أنه أجمل ألحاني . أتريدين سماعه ؟
 وكنت أحس بمتعة من الجلوس بجواره تكاد تغلب متعنى من
 سماع ألحانه ، وقلت محاولة أن أستبقيه إلى جوارى :
 — أنا لا أريد أن أتعبك .
 — لن أتعب فى شىء .. سأسمعه لك بواسطة المسجل .
 وبدأنا نستمع إلى المسجل وقد أسندت رأسى إلى كتفيه وتركته
 يعبث — كعادته — بخصلة شعرى .
 ولم يكذ ينتهى اللحن حتى سمعت فى المسجل صوتا يقول :
 — راجية ؟
 وآخر يسأل :
 — وكيف عرفتني ؟
 واستغرقنا فى الضحك فقد ميزنا فى الحديث صوتى وصوته ،
 وأدركت أن الجهاز لم يكن قد أوقف عندما دخلت عليه .
 وقلت فى جدل :
 — هذا الجهاز لطيف جدا .. إن الإنسان يستطيع أن يسجل عليه
 أجمل ما قيل له .. كى يستعيده اذا ما أحس بالحاجة إليه .
 — إذا سأعطيك إياه .. برغم ثقتى بأنك لن تحتاجي إليه .. لأن
 أجمل ما قيل لك .. سيقال لك دائما .. بل سيقال لك خيرا منه .
 وأحنى رأسه على ، ثم وضع أنفه فى خصلة شعرى وهمس قائلا :
 — أحب رائحة شعرك .
 وانزلت شفتاه ببطء على أنفى واستقرتا برهة على طاقتيه ثم هبطتا
 إلى شفتي .
 ووجدتني أستنشق أنفاسه فى شهيق طويل وأهمس به :
 — وأنا أحب رائحة أنفاسك .

- ١٨١ -

وعدت إلى البيت من السور .. وتسلمت إلى حجرتي وسرعان ما
رقدت في الفراش وبعد لحظات كان « مدبولي » يدق الجرس حاملا
جهاز التسجيل ومعه بعض التسجيلات .
وأقبلت « سيدة » تحمل الجهاز وتضعه على المنضدة في غرفتي
قائلة :

- سيدى إبراهيم أرسل هذا مع المخبول الذى يدعى مدبولي .
ولما لم تجد منى بوادر دهش ولا سؤالا عما يكون هذا الصندوق
الذى حملته إلى فى الصباح المبكر تساءلت قائلة :

- أتعرفين ما هذا ؟

- أجل .. أعرف .

- كيف ؟

وضحكت قائلة وأنا أنهض وقد رفعت عنى الغطاء ووقفت امامها
« بالجيب والبلوزة » .

- انظرى !!

وضربت سيدة على صدرها وقالت :

- بسم الله الرحمن الرحيم .. أكنت نائمة بملايسك ؟

- لقد كنت أحلم أنى أتنزه فى الخارج .. وعندما فتحت عيني
وجدت نفسى بملايسى هذه .

- يا نصانة .. يا كذابة أين كنت ؟

- كنت عند إبراهيم .. قفرت السور كالمرّة السابقة .

- يا فتاح يا عليم .. هكذا على الصبح .. أنت حنسك إيه ..

شيطانة !؟ .. وما هذا الصندوق ؟ ماذا به ؟

- أتريدى أن تعرفى ماذا به ؟

- أجل .

- أديرى وجهك إلى الناحية الأخرى .

— ١٨٢ —

- وأدارت « سيدة » وجهها وهى تمصمص بشفتيها وتقول :
- « حكم » .
- وبدأت أدير الجهاز للتسجيل كما علمنى إبراهيم .. ثم صحت بسيدة :
- هل تستطيعين الغناء ؟
- طبعا أستطيع .. إن صوتى يفوق منيرة المهدية فى زمانها .
- إذا غنى .
- ليس هذا وقته .
- قلت لك غنى .
- لا أستطيع الغناء هكذا « حاف » بلا تحت .
- غنى ولا تضيعى الوقت .
- وبدأت سيدة تغنى أحد المواويل .. وأخيرا صحت بها :
- كفى .. أديرى ظهرك واسمعى .
- ثم بدأت أدير الجهاز للإذاعة .. ووقفت سيدة جاحظة العينين ، فافرة الفم .. وهى تسمع الحوار الذى دار بيننا ، ثم تسمع صوتها يغنى .. وأخيرا قالت متسائلة :
- ما هذا ؟ .. كأن بجوفه عفرينا .
- وبعد الظهر دعونا إبراهيم لتناول الشاى .. وعقب الشاى سحبه من يده وقلت له ضاحكة :
- تعال .. سأريك مفاجأة .
- واتجهت به إلى حجرتى .. وقبل أن يجتاز الباب قلت له :
- أغمض عينيك .
- ووقف إبراهيم بباب الحجرة مغمض العينين وهو يقول :
- أتنوين أن تسحبينى إلى السور كما فعلت بمدهولى ؟

- ١٨٣ -

- لا .. انتظر لحظة واحدة .. والآن افتح عينيك .
وكنت قد أخرجت الصورة التى رسمتها له والتى أخفيتها خلال
« الأزمة » فى أسفل الدولار .
وبدت عليه الدهشة والإعجاب وهتف !
- مدهشة .. أحقا رسمتها من الذاكرة ؟
- طبعاً .. ألا تشبهك تماما ؟
- إنها تشبهنى حقاً .. ولكن لا أظن الأصل وجيهاً .. كالصورة ..
أتظننى وجيهاً بهذا الشكل ؟
- على أية حال .. لقد رسمتها من الأصل المقيم فى ذهنى ...
وسواء أكنت هكذا أم لم تكن .. يكفى أنى أراك هكذا .
- وإلى متى ساستمر فى ذهنك هكذا ؟ متى « أبتهت » ؟
- لا أظنك « تبتهت » أبداً . إنك منقوش فى الذهن ... محفور فى
القلب .. ليس لك زوال ولا نهاية ... رسمك فى نفسى أشبه بنقوش
الفراغة ...
وقبل أن يجيب أشرت إليه بأصبعى :
- انتظر هناك مفاجأة ثانية .. أغمض عينيك .
وأغمض عينيه فقلبت الصورة وقلت له :
- افتح .
ولم يكذب يفتح عينيه حتى صاح مقهقهها وهتف :
- يا مدبولى الكلب ... والله هو بعينه وغباوته وبلهه ... خسارة فيه
الرسم .. والألوان .. والجهد .
- لقد رسمته للتمويه أولاً .. حتى إذا دخل على أحد قلبت
الصورة ... ولتسلية سيدة ثانياً ... فهى تمرن لسانها فى الصورة على
السباب .. على أية حال لقد حكم على الصورة بالسجن فى الدولار

— ١٨٤ —

فى فترة مرضى ولم يفرح عنها إلا بعد انفراح الأزمة .
 — لقد كنت أنا أيضا أشعر أنى فى سجن ، بل أكثر من هذا .. كنت
 كالمحكوم عليه بالإعدام ...
 — أرجوك لا تذكرنى بتلك الأيام .. إنى لم أر العن منها ... لقد
 كنت فى حالة .. أشبه بالموتى ... هيا بنا أريك الحجرة .
 ثم أمسكته من يده وأخذت أعرض عليه محتوياتها قائلة :
 — هذه هى المكتبة التى حدثتك عنها .. كلها قصص . وهذا هو
 « ألبوم » الصور ... تفرج عليه وعلى مهل ... وهذا هو
 « الأوتوجراف » الذى لم تتكرم بأمضائه حتى الآن .
 — سأمضى فى قلبك .. وليس فى الأوتوجراف .
 — لقد أمضيت من زمن طويل ..
 ثم استمرت أعرض عليه بقية المحتويات قائلة :
 — وهذا هو دولاى الرسم والاشغال .
 ثم مددت يدى إلى الرف العلوى وجذبت « كمان » مخبأة فوقه
 وقلت :
 — وهذه أعز ما أملك .. إنها « كمان » — كان يعزف عليها أبى
 .. وقد احتفظت بها لنفسى بعد وفاته .
 — أكان أبوك يجيد العزف ؟
 — يقولون هذا .. أنا شخصا لم أسمعه .
 — إذا فقد ورثت عنه الميل إلى الموسيقى .. إنها ليست بدخيلة
 عليك ؟
 — إن سيدة تقول إنه كان يهوى الموسيقى والغناء . إنها لم تر أرق
 ولا أطيّب ولا ألطف منه .
 ثم مددت يدى إليه « بالكمان » وأردفت قائلة :
 — إنها خير ما لدى لأهديه لك ، فخذها إذا كنت تجدها تستحق .

وتناول « الكمان » وهو يقول :

— متشكر جدا يا راجية ... لا أدري كيف أشكرك ..

— أنا أعرف أنها ليست قدر المقام ولكنك لا تتصور قيمتها
عندى .. إننى أقدم أعز ما أملك ، لأعز الناس على .

وبدا إبراهيم يجرى القوس على أوتارها ويربط مفاتيحها وهو يقول :

— إنها « كمان » أصيلة .. إنها فى حالة جيدة جدا .. إننى لن
أعزف بعد الآن إلا عليها .

وسرنى حسن قبوله لهديتى .. ورضاؤه عنها ، وعدت أعرض عليه
بقية ممتلكاتى .. قائلة :

— وهذه أول هدية منك لى .

ومددت يدى فى أحد الأدراج وأخرجت منديلا .

وهتف هو فى دهشة :

— هدية متى أنا ؟

— ألا تذكر .. المنديل الذى ربطت به قدمى !!

— ألا زلت تحتفظين به حتى الآن ؟! لو علمت هذا ... لربطتها

بشيء أئمن .. أو لو وضعت فى قدمك خلخالاً من الذهب .

— إنه عندى أئمن من ذهب العالم كله .. إنه تذكار لأول رؤيتى لك

وحديثى معك . إنه يحمل إلى أعز الذكريات .

وخرجت به إلى الشرفة وبدا أمامنا منظر السور ، والأشجار

المتكاثفة ومن خلال فروعها بدت شرفته .

وعندما وجدت نفسى أقف فى شرفتى بجواره أحسست أن الله قد

منحنى شيئا كثيراً ، ووجدتني أتهد تنهد الاستقرار والحمد والشكر ...

ودعاء الله أن يديم على فضله ونعمته .

وقلت لإبراهيم فى صوت خفيض وقد رق منى الحس وأرهف

الشعور :

- هذه هي الشرفة التي سمعتك فيها أول مرة .. كنت أجلس هنا على هذا المقعد .. وقد شرد منى الدهن ... وسبحت ببصرى بين النجوم .. ورحت أمسح وجهى فى السحب الهشة المتناثرة .. عندما حمل إلى النسيم لحنا عجيبا ، سرى هادئا كأنه حفيف الشجر . كانت لحظة خالدة لن أنساها مدى الدهر ... لأنها بداية حياتى .. كنت من قبل أحس أنى ضالة تائهة .. لا أعرف لم وجدت فى هذه الدنيا ولا ماذا أريد منها ... ولكنى شعرت بعد ذلك .. أنى لم أعد ضالة ولا تائهة وأن الدنيا بها ما يستحق الحياة ، وأن هناك أملا أعيش لأبلغه ... وأمنية أحيا لإدركها .. واخترت الشرفة بعد ذلك مقعدا .. ألجأ إليه لأملأ بالإيمان نفسى .. وأصبحت إذا ما جلست على هذا المقعد أحس براحة عجيبة ، حتى تعودت ألا أسمعك إلا وأنا مضطجعة عليه ، شاردة ببصرى فى السماء .

وكنت أقف إلى جانبه وقد وضع يده على رأسى وأخذ يتحسس شعرى ونظر إلى عيني مبتسما وقال :
- إذا فأنت لا تستطيعين سماعى إلا فى شرفتك وعلى مقعدك ؟
- أجل .. هكذا تعودت .

- إذا فليس لى أى فضل فى إطرابك .. الفضل كله للشرفة وللمقعد .. على أى حال .. أنا على استعداد لأن أعزف لك لحنا جديدا .. ما دامت الشرفة قائمة والمقعد موجودا .

- والكمان جاهزة ؟
- أجل .. لا ينقصا شىء .. سوى أن تضطجعى على المقعد وتنظرى إلى السماء .

وأمسك « بالكمان » ا يصلح أوتارها .. ثم قال لى :
- ها .. إنى جاهز .. أجاهزة أنت ؟

و كنت قد جلست على المقعد ولكنى قفزت فجأة قائلة :

— ١٨٧ —

— انتظر .. كدت أنسى شيئاً هاماً .
وعدت إلى جهاز التسجيل فأعددتَه ثم عدت إليه قائلة :
— تصور .. كدت أنسى أن أسجله .. وكاد تعبك يذهب هباءً ..
سأحتفظ بهذا التسجيل .. حتى أسمعه إذا ما غبت عني .
وبدا إبراهيم العزف ، وجلست في مقعدي .. وأغمض عيني
ورحت في نشوة .
وحملتني الألحان بعيداً إلى السماء وكأنني أطوف بالفردوس .
وصمت الصوت ... وأنا ما زلت محلقة في عليائي ، مغمضة العينين
شاردة الذهن .
وأحسست بأنفاس حارة تلفح وجهي وشعرت بشفتين تمسسان
شعري ثم تطوفان بخفة في وجهي ماسة جبيني وعيني وأنفي وخدي
وعنقي وذقني ، وأحسست بالرحلة قد طالت وشفتي قد زاد بهما الظمأ
.. ولم يستطيعا الانتظار حتى تصل إليهما الشفتان الأخريان .. فتعجلت
اللقاء .. واختصرت الطريق ووثبت إليهما .. واستقرت شفتاي عليهما
في ظمأ ونهم . ومددت ذراعي فضممته إلى .
وبدا لي كأنني مازلت أهيمن في شرودي .. وأن ما أفعله ليس سوى
حلم .. وهممت به :
— أين أنا ؟
— بين ذراعي .
— خيل إلى أنني أحلم ، وخشيت أن أفتح عيني حتى لا يتسرب
الحلم ويختفي .
— افتحي عينيك ولا تخشي شيئاً .. إن حلمك .. باقٍ إلى الأبد .
لن أوقظك منه مهما فتحت عينيك .
ومضت لحظة صمت ثم همس في أذني :
— راجية .. أتحبيني ؟ قولها لي فأني أحب أن أسمعها من شفتيك .

— ١٨٨ —

وفتحت عيني ونظرت إليه وأطلقت تنهيدة حارة .. وهززت رأسي
ببطء وأجبتة هامسة :

— لن أقولها لك .. إن ما عندي ليس حبا .. إنه أكثر من هذا ..
عندما يحب المرء .. يحب مخلوقا آخر .. ولكني لا أحس أنك آخر
.. إنك أنا .. أنت في دمي وفي كياني .. كل ذرة فيّ معها ذرة منك .
أعرفت من تكون بالنسبة إلى ؟

— أنا أيضا أحس كما تحسین .. لم يعد لي غنى عنك لحظة واحدة
.. أشعر كأني لا أستطيع تنفس الهواء إلا إذا كان ممزوجا بأنفاسك ..
وأشعر أن حياتي مستمدة منك .. أنت أحد عناصر الحياة لدى .. بل
عنصرها الأول .. بغیرك لا أستطيع الحياة .. لا أستطيعها أبدا ... أبدا .
وضمني في لهفة .

وفي تلك اللحظة .. وصل إلى مسمعي صوت أدرکت منه أن
المسجل ما زال دائرا وأنا قد نسينا وقفه .

وقلت لإبراهيم في دهشة :

— إبراهيم .. إننا لم نعطل المسجل ؟

وهتف إبراهيم وهو يتلفت نحوه :

— أجل .. لقد نسيناه تماما .

واتجه إليه فعطله ثم عاد إلى وهو يقول ضاحكا :

— تصوری يا راجية .. لقد سجل كل ماقلناه ؟

وصحت في شبه ارتياح :

— يا خبر !! لم أكن أدري أن هناك من ينصت إلينا ويسجل علينا

أقولنا .. لو سمعه أحد .. ستكون فضيحة . كم أنا خجلة ؟

— لا تقلقي إنني أستطيع مسحه .

وعاد إلى المسجل مرة أخرى ليمسح الشريط ... وقبل أن يهم

بمسحه قلت له عابثة :

- دعنا نسمعه أولا .
وأدار الشريط . وسمعنا أولا اللحن الذى سجله .. ثم مرت فترة لم
أسمع فيها شيئا .. فقلت له وكان بى خيبة أمل :
- إنه لم يسجل شيئا .. الظاهر أنه خجل من نفسه ؟
وضحك إبراهيم وأجاب :
- انتظري قليلا .. إننا لم نكن قد بدأنا الحديث بعد . كانت
شفاها مشغولة بشيء أهم .. شيء لا يستطيع المسجل تسجيله ...
ولله الحمد .
وقبل أن أجيبه بدأ الصوت يقول فى همس :
- أين أنا ؟
- بين ذراعى .
- خيل إلى أنى فى حلم .
واستمرت المناجاة حاملة هامة .. حارة ذائلة .. حتى انتهت بقوله :
- بغيرك لا أستطيع الحياة .. لا أستطيع أبدا أبدا .
ونظر إلى إبراهيم وقال متمما لصوت المسجل :
- أبدا .. أبدا .. أبدا .
وعاد يضمنى إليه ، ثانية ، وثالثة ، ورابعة .
ومرت بى بعد ذلك أسعد أيام حياتى . أيام منحتنى الدنيا من
السعادة ما يعتبر كرمها الأول بجواره بخلا وتقتيرا .. كنت أنطلق فى
مرعى من النعيم لا حدود له ولا قيود فيه .
وبدا لى أن القدر قد نسينى .. وغفل عنى بمصائبه وأحداثه
وأحزانه .. أو أن القضاء قد انتقانى من سجل البشر ليفرد لى صفحة
خالصة من السعادة لا تشوبها شائبة كدر ولا ضيق .
كننا لا نكاد نفترق إلا ساعات النوم .. وفى خلال النهار كنا نرتع
بين الحدائق أو على شاطئ البحر، وكان الوقت ربيعا ، والأوراق الجديدة

اللامعة على فروع الشجر وأكداس الأزهار المتفتحة المتراحمة في الأحواض ، وبيض السحب العابثة في مراح الزرقة الصافية ، كل ذلك قد جعلت منه الطبيعة إطارا رائعا يحيط به ينبوع السعادة المتدفقة من قلوبنا .
وإني لأسائل نفسي الآن ، وأنا أستعيد لذهنى ما كنت فيه .. هل يتهيأ المخلوق .. أن يظل حياته كلها في مثل هذا الفيض من النعيم ؟ وهل يتفق للدنيا .. أن تفجر لمخلوق ينبوعا من السعادة لا ينضب له معين ولا يجف له نبع ؟ وهل يغمض القدر عن مخلوق يغفل عنه بأحداثه إلى الأبد .

عندما أسائل نفسي الآن .. أجزم أن هذا غير معقول .. ولكنى .. هائمة في مرتعى كما كنت .. شاردة سابحة .. أعب وأنهل .. لم يخطر ببالي قط أن ما بى من الهناء يمكن أن يصل إلى نهاية ، وأن حياتى تستطيع أن تسير على غير هذا النمط من المتعة والنشوة .
لم أكن أفكر أن سفاهة الدنيا فى المنح لابد أن يعقبها إفلاس .. وأن هذه الفترات ذات النعيم المركز .. لا يمكن أن تستمر مدى الحياة لأنها أشبه بروح العطر ، يمكن أن تفرق على قنينات العمر .. لكى تجعل العمر كله عطرا ، وأنها زاد من الذكريات يجتر ليمنح الإنسان قوة يستعين بها على مشقة الطريق حتى يصل إلى نهاية عمره .. أو بارقة تضيئ لنا لحظة لكى ترينا فى ظلمات الطريق مفاتن الحياة حتى نعيها فى أذهناننا إذا ما ادلهمت الظلمة مرة أخرى .

لم أذكر كل ذلك وأنا منطلقة فى مراح النعيم .. حتى أحسست فجأة أنى أنزلت من قمة المنحدر .. أو أهوى من حالقه ، وأن الشئ الصلب الذى كنت أطبق عليه يدى فى ثقة وطمأنينة قد بدا يذوب .. وأخذ يتسرب من أصابعى دون أن أستطيع الاحتفاظ به .

لست أدري كيف بدأت الكارثة .. فقد كانت المسألة كلها خاطفة كلمح البرق .. ولكنى أذكر أن الأمر بدأ بشرود منه وذهول لم

أعده .. وتجههم يعلو وجهه عندما يغيب عنى بذهنه .. فإذا ما استدعيته إلى .. فك عقدة وجهه وحاول جهده أن يفرج أساريه .
 تم أحسست بعد ذلك أن شروده قد زاد ، وأن السد الذى بدأ يقوم بينى وبينه قد علا واشتد .. وأن الصلة التى أحالتنا إلى شخص واحد قد أخذت تنفصم عراها ، وتمزق روابطها ، وأنه قد أخذ يبتعد منى رويدا رويدا .. حدث كل ذلك بلا مبررات ولا مقدمات ولادواعى معقولة .
 وعلت أن هناك ما يضايقه مما قد يكون حدث على غير قصد منى رويدا رويدا ... حدث كل ذلك بلا مبررات ولا مقدمات ولا متجاورين فى حديقة دارنا فسألته :

— ماذا بك يا إبراهيم ؟

ورفع رأسه عائدا من شروده قائلا :

— لا شيء .

— إنك لست كعادتك .. إن بك ضيقا من شيء .. قل ما هو ؟

— ليس هناك شيء .. قلت لك .

— أضايك من جدى شيء ؟

— لا .

— ولا عبد الرحمن ؟

— ولا عبد الرحمن .

— إذا .. ماذا بك ؟

وأخيرا فتح الله عليه بعذر شكلى لم أستطع إلا قبوله فقد قال :

— أن بى صداعا خفيفا .

— أحضر لك أسبرينا ؟

— أخذت .

ولم أحاول أن أضيق عليه بالسؤال مرة أخرى ، وحاولت أن أعزى

نفسى بأن ما به قد يكون حقاً صداعاً أو إجهاداً ، أو على أسوأ الفروض ، نوعاً من ملل الإنسان الذى يصيبه نتيجة الإفراط فى شىء .. ولو كان إفراطاً فى السعادة .

وصممت على أن أتصرف بحكمة ، ولا أفزع ولا يطير عقلى شعاعاً .. وأن أفعل كل ما أستطيع حتى لا أزيده ضيقاً ، ولم أحاول قط أن أسبب له ما يزعجه .. أو أثقل عليه بما لا يريد . ولكن يبدو أن القضاء كان قد وقع ، ولم يكن لى فى رده حيلة ولا على دفعه قدرة .

ففى يوم .. أغبر مشثوم .. وجدته قد أقبل على وفى وجهه شحوب وفى سيماء تجهم .. وبدأ كأنه واقع تحت عبء ثقيل وكنت أقف فى المحديقة لأجمع بعض الورد . هشتت له وصحت محببة :

— أهلاً إبراهيم .

ولكن لم يكن لديه القدرة أو الرغبة ، فى أن يهش لى بل أجاب فى ضيق وهو يزدرد ريقه كأنه يعانى أزمة :

— راجية .. أنى أريد أن أسر إليك ببضع كلمات .. تعالى .. أرجوك ..

وسرت معه حتى وصلنا إلى خميلة فى ركن الحديقة تعودنا أن نجلس بها معا .

وجلس أمامى وقد أخذ يعتصر جبينه كأنما يلح عليه صداع شديد ، وأخيراً أطلق زفرة حارة وقال فى صوت خفيض :

— لست أعرف كيف أبدأ .. أنا أعلم أن ما سأقوله سيكون شديد الوقع عليك ... وأؤكد لك أنه لم يكن هناك أبغض على نفسى من أن أسبب لك ألماً .. ولكنى مع ذلك أجدنى مجبراً على أن أقول ما سأقول .. لأن مصايرنا ليست بأيدينا .. بل هى فى يد قوة أكبر ترسمها كما تشاء وتوجهها حيثما تشاء .. كنت أود ألا أتخلى عنك أو

— ١٩٣ —

أخذلك ، وأن نكمل السير فى الطريق معا .. ولكن القدر يأبى علينا ذلك ، ولا بد لنا من الافتراق .

وأقول الحق أن الصدمة كانت مروعة . كانت مذهلة ، ولم تستطع كل المقدمات السابقة أن تمهد لها وتخفف من وقعها . وهتفت به وأنا مأخوذة مشدوهة :

— لا يا إبراهيم .. لا تقل هذا أرجوك .. نحن لا يمكن أن نفترق .. ليس هناك قوة على الأرض تستطيع أن تفرق بيننا .. ألا تذكر قولك إنك بغيرى لا يمكنك العيش أبدا .. أبدا ؟

وأطرق إبراهيم برأسه وعض على نواجذه :
— أرجوك يا راجية .. كفى عن هذا .. لقد انتهى الأمر .. لا فائدة من الحديث فيه .

— ولكن .. ما السبب ؟ قل لى أرجوك !! أرحنى !! هل أساء إليك أحد فى المنزل ؟ أرجوك .. اشرح لى الأمر فقد يكون هناك حل .
ولكنه لم ينبس ببنت شفة .. كأنما قد أصم أذنيه عن سماع حديثى ونهض واقفا وقد بدا على وجهه التجهم والشرود ، ودون أن ينظر إلى .. أو يلقي إلى تحية وداع .. وجدته قد أدار وجهه وسار متجها إلى باب الحديقة .. وخلفنى من فرط الذهول لا أكاد أملك حراكا ولا نطقا ، كأننى فى كابوس مزعج وحلم مخيف .

وعندما اختفى عن ناظرى هممت بالعدو ورائه والتعلق به والتوسل إليه ألا يتركنى .. ولكنى لم أفعل .. إذ كنت كالمشلولة .
ولم أهلك .. فقد جفت مآقى ... وجف كل شيء بى .. حتى كنت أحس أنى شبح يتحرك .. وتسلفت إلى حجرتى وكأنما أخشى أن يرانى أحد .. حتى أويت إلى حجرتى وأخفيت رأسى فى الوسادة .. مغمضة عيني ... محاولة الفرار من الواقع المروع .. جاهدة فى وقف تفكيرى ووقف حياتى .. لو كنت أستطيع .

(فديتك يا لىلى)

- ١٩٤ -

وهكذا أنتهى الأمر وذهب كل شىء بلا أدنى سبب .. وبلا أمل فى عودة .. وسحب القدر الأحقق بيساره كل ما أعطاه يمينه .. وخلفنى بالضبط كالهواية من قمة جبل إلى قاع بئر .

وأغلقت على باب الحجرة ولم أحاول أن أحدث أحدا .. حتى أنبأتنى « سيدة » بعد ذلك بما حدث له من ذهول ، وبسفره مع الدكتور زكى إلى مصر .

وزادت دهشتى .. وأحسست أن أعصابى لم تعد تتحمل أكثر مما تحملت .. وحاولت أن أعزى نفسى بأن هجره لى لا يعدو أن يكون من الأزمة التى أصابته .. وتمنيت لو أستطيع أن أكون بجواره وأن أفعل له شيئا .

ولكنى كنت أحس أن صلتى به - بعد أن عرف جدى بالفرقة - قد باتت متعذرة إن لم تكن مستحيلة .

وكنت أخشى أن أواجه جدى طوال الأزمة .. كنت أخشى ثورته .. ولم أقل له أكثر من أننا اختلفنا وافترقنا ، ولكنه كان أكرم مما توقعت .. ورحم ضعفى وانهارى .. فلم يحاول أن يزيد متاعبى أو يلح فى الأسئلة وقال لى فى رفق :

- كنت أعلم أن هذا الحب المندفع لا يمكن أن يكون أساسا متينا لحياة طويلة مشتركة . هذه أعراض طارئة تصيبنا فى فترة من فترات العمر فلا يجب أن نبنى عليها مستقبلنا بل يجب أن نحكم عقولنا فى كل ما يمس مصائرنا . إنه مصيرك وأنت حرة فى تقريره . إنى لن أتدخل ثانية .. إنى أحبك ولا أرجو سوى سعادتك ، ولقد أوضحت لك الطريق وأنت أدرى بنفسك وبما يسعدك .. إنها تجربة .. والتجارب خير ما يعلم الإنسان .

الفصل الحادى عشر

ليلى الصغيرة

وأخيرا صممت راجية .. وأفاق توفيق إلى نفسه .. بعد أن أستغرق فى الاستماع بكل مشاعره ، ونظرت راجية إلى ساعتها فإذا بها الثانية عشرة والنصف ، وتمتعت معتذرة وهى تلفظ زفرة حارة :
 - لقد أضعت وقتك يا دكتور ، ولكنك أنت الذى طلبت ذلك ..
 هذا هو كل ما حدث .. إنى أحس بشيء من الراحة كأنى لفظت من صدرى جمرات كانت تتأجج به .
 وأطرق توفيق برأسه وهو ينقر بقلمه على مكتبه وقال كأنما يحدث نفسه :

- عجيبة ...! كنت أظن أول الأمر أن الصدمة حدثت نتيجة شيء وقع بينكما . أقصد - بصراحة - شينا صدر منك .
 - أنا ؟! إنى منذ رأيته لم يصدر منى ما يخذشه أو يضايقه أقل ضيق ، ولا سيما فى الأيام الأخيرة التى بدأت أحس تغيره فيها .
 - ألا يمكن أن يكون قد حدث منك شيء عن غير قصد ؟
 - لا أظن ، وإلا أخبرنى به .. أو على الأقل لمح لى .
 - ألا تظنين أن هناك شأنا لجذك أولعبد الرحمن بالمسألة ؟
 - لا شيء مطلقا .. لقد سألته أنا نفسى ... إذ خطر ببالى أن يكون جدى قد عاد إلى رأيه الأول وأنه ندم على موافقته وأراد أن يفسد ما بيننا ... ولكنه أكد أن جدى لا دخل له فى الأمر .
 - ألا يحتمل أن يكون هناك عنصر دخيل .. أعنى امرأة أخرى ؟

- ١٩٦ -

وبهتت راجية وبدت عليها علانم ألم وضيق ولكنها هزت رأسها بشدة كأنما تطرد الحاطر من نفسها وقالت فى لهجة جازمة .

- لا .. من أين تأتى المرأة الأخرى وأنا لا أكاد أفارقه لحظة !؟
- على أية حال .. لا بد أن هناك شيئا .. وهذا الشيء إما أن تكونى أنت محوره .. أو يكون غيرك .. فإذا كنت أنت محوره .. وإذا كان شعوره نحوك ما زال كما هو ، وأنه لم يتركك إلا وهوتحت تأثير طارئ لا إرادة له فيه .. فأنا أعتقد أنك وحدك التى تستطيعين شفاؤه .. فإذا فرضت أسر الفروض .. وهو أن ما به صدمة عاطفية .. نتيجة خذلان أو خيبة أو فشل أو غيره وهو ما تستبعدين أنت حدوثه .. كنت مضطرا أن أدخله فى دائرة الاحتمال ... ولاسيما أنه مخلوق حساس جدا وليس أسهل من خدش شعوره .. وقد يكون فضل الانسحاب إثر الصدمة فى صمت وسكون .

- ولكن هذا مستحيل .. أنا واثقة .
- أنا أقول إن هذا فرض .. إننا جميعا نجهل الحقائق المطموسة فى ذهنه .. وليس أمامنا إلا أن نفرض كل الفروض ونحاول أن نتمشى مع جميع الاحتمالات .. حتى نتبين الحقيقة ونكشف عنه تلك الظلمات التى تغرقه .

- هب هذا الفرض صحيحا .. ماذا يمكن فعله ؟
ونزع توفيق منظاره وتشاغل بمسحه برهة .. ثم قال :
- من رأى أن أعرضه لصدمة عاطفية أخرى .
~ كيف ؟

- أفاجئه بك فى منظر يثيره .
وتصاعد الدم إلى وجه راجية .. وأطرقت برأسها .. وتمتمت قائلة :
- ولكن ...

— ١٩٧ —

— هذا مجرد عرض ... أنت حرة في قبوله أو رفضه ، فأنت قد تقدمت للمساعدة بمحض رغبتك .. وأنت كما أعتقد أكثر الناس حرصا على شفائه .. والمسألة لن يكون بها ما يضايقك ... إنها مجرد تمثيل .. ستقفين هنا مثلا في هذه الحجرة ومعك أى إنسان وقد تقاربتما في وضع غرامى يوهم الداخل أن بينكما صلة حب .. فإذا أقبل هو عليكما وأبصركما فى هذا الوضع ؟ .. فقد تثار غيرته وتلهب مشاعره وتوقظ عاطفته .. وقد تنفض تلك الانفعالات الحادة الأتربة المنهالة على ذاكرته وتبدد الغيوم الملبدة فى ذهنه .

وصمتت راجية وهى مازالت مطرقة برأسها .

وعاد توفيق يسأل :

— ما رأيك ؟

وبدا عليها التردد والحيرة ثم أجابت :

— كما تريد .. إني أثق بك وإني على استعداد لأن أفعل كل شىء من أجله .

— هذا حسن ، وأنا أعرف أنه طلب ثقيل ومهمة شاقة . وما كنت لأجرؤ على عرضها عليك لولا يقينى من سعة إدراكك إنها مجرد محاولة للعلاج والمسألة لن تستغرق أكثر من دقائق .

ودق توفيق الجرس ودخل الخادم فطلب منه أن يدعو الدكتور زكى ، وأقبل زكى وهو يقول :

— لقد طالقت القصة .. أرجو أن تكون قد استطعت الوصول إلى شىء .

— سنجرب أحد الحلول الذى عرضته على الآنسة راجية .

— ما هو ؟

وشرح له توفيق ما اتفقنا عليه ثم أردف قائلا :

— لننتفك على موعد .. تحضر فيه راجية ، ثم تأتي به أنت فى

— ١٩٨ —

أعقابها وتدخله في حجرتي هذه عندما أطلب منك . أظن المسألة ستتم بسهولة ، وسأقوم أنا بعمل الرجل الآخر — برغم أنى لا أجيدته — حتى تكون التجربة فى أضييق نطاق ... أليس هذا الأفضل ؟
وأشارت راجية برأسها علامة الموافقة .

وعاد توفيق يسألها :

— أى موعد يوافقك ؟

— أعتقد أنى أستطيع الحضور غدا فى نفس موعد اليوم ... ألا يناسبكما هذا ؟

— بالتأكيد ، سأكون فى الانتظار .

ونفضت راجية وهى تمد يدها مصافحة :

— إذا أستأذن . وإن شاء الله نلتقى فى الغد .

وقال زكى وهو يسير بجوارها إلى الخارج .

— أتريدين أن أوصلك ؟

— متشكرة جدا .. سأعود بعربة أجرة كما أتيت .. وأرجوك أن تطلب من الخادم أن يستدعى واحدة .

، وهبط كلاهما فى المصعد بعد أن ودعا توفيق ، وعادت هى إلى بيت عمتها .. وعاد هو إلى عيادته .

وفى اليوم التالى قبل العاشرة كانت راجية تدق جرس العيادة وقادها الخادم إلى حجرة توفيق .. وبعد أن تصافحا قالت راجية :

— أظنهما لم يأتيا بعد ؟!

ونظر توفيق إلى الساعة وقال :

— الساعة العاشرة تماما ... أعتقد أنهما سيصلان خلال ربع الساعة .

وكان اليوم حارا ذا ريح راکدة ، وأوراق الأشجار ثابتة على الأغصان لا تهتز ولا تتحرك ، والجو فى داخل الحجرة لا يكاد يحتمل .

- ١٩٩ -

وأخرجت راجية منديلها ، وأخذت تجفف قطرات عرق تصببت حول عنقها . وقال توفيق وهو يدير مروحة كهربية على مكتبه :
- أظن المروحة قد تلطف الحرارة بعض الشيء .. تفضلى على المقعد الآخر كى لا تتعرضى لتيارها .

وأبدلت راجية مقعدها .. وفى نفس اللحظة طرق الباب ودخل الدكتور زكى .

ولم تكذ تراه حتى همت من مقعدها وقد أصابها اضطراب شديد وسألته فى لهفة :

- هل أحضرته ؟!

- أجل .. إنه يجلس فى الشرفة.

- كيف حاله ؟.

- كما هو .

وسأله توفيق :

- والحقيقية ؟.

- مازال يحملها .

ونفض توفيق واتجه إلى أريكة فى مواجهة الباب وأشار لراجية قائلاً :

- تفضلى هنا .

ثم أردف موجهها الحديث إلى زكى :

- سنجلس هنا فى مواجهة الباب وسأمسك بيدها وأجعلها تستند برأسها إلى صدرى وسأعبت بأصابعى فى خصلة شعرها .

ثم سأل راجية .

- أهكذا كان يفعل ؟

وأطرقت راجية رأسها وقد بدا عليها شرود ووجوم .

وعاد يقول لزكى :

— ٢٠٠ —

— اذهب أنت الان وأحضره .

وخرج زكى إلى الشرفة حيث جلس إبراهيم وقد أخذ يتنقل بعينه بين النيل والنخيل ومنبسط الخضرة الممتد أمامه على مدى البصر ، وربت زكى كتفه قائلاً فى رفق :
— هيا بنا .

ولم يجب إبراهيم ..

إلى أين هذه المرة ؟ لم لا يسأل ؟ ماذا يضيره من السؤال ؟ ولكن ما فائدة السؤال .. وهو لا يعنى شيئاً مما يقال له ؟ ما فائدة السؤال عن شىء بذاته .. وهو لا يدري شيئاً عن أى شىء .

لا .. لا .. لا فائدة . المهم هو أن يطبق جيداً على هذه الحقيقة .. التى لا يدري لم يحرص عليها .

أجل .. ماذا بها ؟ ولماذا يتعلق بها كل هذا التعلق ؟ لا بد أن بها أشياء هامة .. وإلا لما أطبق عليها هكذا .. إن بها شيئاً خطيراً . أجل .. أجل .

وكان زكى قد وصل إلى باب الحجرة المغلق .. وطرقه طرقات خفيفة ثم دفعه بيده ، وأشار لإبراهيم أن يتفضل .
وتردد إبراهيم برهة .. لم لا يدخل صاحبه أولاً .. لقد تعود دائماً أن يتبعه .. ولكن زكى لم يترك له فرصة للتردد وعاد يقول :
— تفضل .. تفضل .

ليتفضل إذاً ... إنه لم يتعود المقاومة .

وعبر الباب ومضت لحظة صمت .. وهو يحدق أمامه ، وساد فى الحجرة سكوت مطبق .. كاد كل من فيها أن يكتم أنفاسه ... ووسط هذا السكون كان يعلو صوت واحد هو أن أزيز المروحة الكهربائية تلسف فى مكانها حتى تبلغ أقصى اليمين ثم تعود إلى أقصى اليسار .
واسترعى الرجل والمرأة الجالسان على الأريكة نظره لحظات قصار :

- ٢٠١ -

وما لبث أن تحول انتباهه فجأة إلى صوت الأزيز ولم يعد يحس في
الحجرة سواه .

وببطء وحذر أخذ بصره يتحول عن الكائنين المجهولين الجالسين
أمامه .. إلى الصوت المريب الذى يتردى فى الناحية الأخرى .

وفجأة صرخ صرخة رعب .

لقد وقع بصره على المروحة وأحس بأذرعها تتضخم وتتضخم ..
وتقترب منه حتى تطبق عليه وتطويه فى لفاتها الفظيعة ، وأحس
بالحجرة تدور حوله بسرعة .. ويصبح عاليها أسفلها وأسفلها عاليها ..
وكأن جسده يوشك أن يتحطم ورأسه أن ينفجر .

ومد ذراعيه محاولا اتقاء شبح المروحة المطبق عليه ... وسقطت
الحقيبة إلى الأرض وفتحت وبدت محتوياتها واضحة للعيان ..

ووجه زكى بصره بسرعة إلى ما ظهر من محتوياتها .. ثم تقدم
ليسند إبراهيم الذى أوْشك أن يتهاوى إلى الأرض وأجلسه على أحد
المقاعد .

وانهارت راحية على الأريكة وقد أصابها يأس قاتل ... ورعب
شديد .

كانت مفاجأة عجيبة لم يتوقعها أحد .

لقد كانت صرخته وانفعاله وانهيأه أمرا متوقعا .. ولكن توقعه كان
يجب أن يكون نتيجة المنظر المثير الذى أعد لمواجهته .

أما أن يكون ناتجا من رؤيته المروحة .. فهذا آخر ما كان يخطر
على بال أحد .

وكان توفيق أول من تمالك نفسه فنهض بسرعة .. ليلقى نظرة
فاحصة على محتويات الحقيبة .. عله يجد بها شيئا يلقي الضوء على
هذه المعميات .

وبسرعة فحص ما بها .. فزادت به الدهشة .

— ٢٠٢ —

ما هذه الأشياء الخطيرة التي يحرص عليها هذا المخلوق العجيب !
« إشارب » ، ونظارة شمس ، وكتاب يبدو أنه قصة كتب عليه
بالإنجليزية « حذار من الشفقة » .

أهذا كل ما بالحقيبة ؟! أهذا هو ما يحرص عليه ذلك الحرص
العجيب ؟. وما يخشى أن يراه أحد ؟!

وهمس توفيق لراحية وهو يتساءل في دهشة :

— أهذه الأشياء لك ؟!

وهزت راحية رأسها والبكاء يكاد يخنقها وأجابت :

— لا .

— وأحس توفيق أن راحية قد تحملت أكثر مما تستطيع ، وأن
تجاهل إبراهيم إياها قد سبب لها يأسا فظيعا .

وربت كتفها وقال هامسا برفق :

— أظنك تستطيعين أن تتفضلى بالعودة .. آسف جدا على ما سببته

لك ، ولكنى أعتقد أن تعينا لم يذهب سدى ، دعى الأمر لى ..
وسأبذل من أجله كل ما أستطيع من جهد .

وتمت راحية وهى تتجه فى انهيار نحو الباب :

— لست أظن أن هناك أملا .. لقد نظر إلىّ كأنه لم يرنى من قبل .

— لا تخشى شيئا ، إن الحالة ليست عسيرة كما تتصورين . بإذن

اللّه ستمكن من شفائه .. اذهبى أنت إلى البيت ، واستريحى ، وعندما
نحتاج إلى معونتك سأبلغ الدكتور زكى .

وخرجت راحية .. ووقف زكى ينظر إلى توفيق فى دهشة ويأس
وقال :

— ما كل هذا ؟! ما علة ما حدث ؟

— انتظر لحظة .

ثم دق الحرس وعندما أقبل الخادم قال له :

— ٢٠٣ —

— قل « لامتثال » أن تجهز الحقنة .

وانصرف الخادم .

وكان إبراهيم قد استقر في مقعده وتصبب العرق من جبينه وقد بدت عليه علامات الألم ، وراح في نوبته .

وأمسك زكى بالحقنية فوضعها بجواره .

ولم يكذب إبراهيم يحس بها حتى أطبق عليها ... وأخذت أنفاسه تتلاحق كأنه يعدو في سباق .

واتجه توفيق إلى دولا ب زجاجي في ركن الغرفة قد صفت به بعض العقاقير ، وأخرج منه زجاجة فوضعها على المكتب .

وسأله زكى :

— ما هذه ؟

— حقنة مخدرة .. تعطى في الوريد .. وتجعل المريض في شبه غيبوبة ، أعني أنه يكون مانسميه نصف نائم أو « دائخا » وتجعله يفصح بأشياء كثيرة كامنة في نفسه لا يستطيع الإفصاح عنها وهو في تمام وعيه .

وأقبلت الممرضة بالحقنة ... وطلب توفيق من زكى أن يساعده على نقل إبراهيم إلى الفراش الصغير حتى يستريح عليه تماما .

وانتقل إبراهيم إلى الفراش في استسلام المنهك الخائر القوى واستقر عليه في استكانة واسترخاء .

ودفع توفيق بالإبرة في ذراعه .. وبعد لحظات كان إبراهيم يقلب رأسه بمنه ويسرة ثم راح في شبه إغفاءة .

وجذب توفيق مقعدا وجلس بجواره وقال لزكى :

— قل للممرض ... لا يدع أحدا يدخل .

وعاد زكى بعد لحظة وجلس على مقعد بجوارهما .

وبدأ توفيق حديثه في صوت حافت موجه القول لإبراهيم :

— ٢٠٤ —

- كيف حالك الآن ؟ ! هناك ما يضايقك ؟
- وبعد فترة صمت أجاب إبراهيم بصوت خافت :
- لا .
- أبدا ؟ !
- أبدا !
- ولا المروحة ؟ !
- واضطرب إبراهيم فى مضجعه وبدا كأنه يعانى ألما شديدا ، وأمسك
- توفيق يده فربت فوقها برفق وقال :
- لا تخش شيئا .. ليس هناك أبدا ما يستدعى كل هذا الذعر ..
- أنت هنا فى أمان تام .
- ومد إبراهيم يديه وكأنه يدفع شبحا مخيفا :
- أبعدها .
- ما هى ؟
- هذه المروحة المخيفة .. أبعدها ... أبعدها .
- لقد أبعدها تماما .. لم يعد لها أثر .. وإن كنت لا أجد بها ما
- يستدعى كل هذا الذعر .. ماذا تخشى منها ؟
- إنها هى السبب .
- السبب فى ماذا ؟
- فى كل ما حدث .
- حدث لك ؟
- بل لها .
- من هى ؟
- ليلى .
- ليلى ! من تكون ليلى !

- ٢٠٥ -

- ليلي أختي .. ليلي الصغيرة الجميلة .. لقد كان هذا الشبح القاتم كالمارد ذى الأذرع الممتدة إلى عنان السماء هو السبب ؟
- أى شبح هذا الذى تعنيه ؟ وما صلته بالمروحة ؟
- إنها مروحة هواء ... مروحة ذات أذرع تديرها الريح لرفع المياه من باطن الأرض .
- وأين كانت هذه المروحة ؟
- فى الصحراء .
- وماذا فعلت بأختك ؟
- قتلتها .
- قتلتها ؟
- أجل قتلتها تماما .
- هذه حكاية عجيبة لا يعرفها أحد ؟
- لقد مضى عليها زمن طويل .
- أتذكرها جيدا ؟
- أجل كأنى أراها رأى العين .
- قصها علىّ .. قصها بحذافيرها وحاول ألا تنسى شيئا . وأخذ إبراهيم شهيقا طويلا وأخرجه زفيرا أطول ، وبدأ بصوته الخافت وعينه نصف المغمضتين يقص القصة العجيبة قائلا :
- كان ذلك منذ عشرات السنين وكنت لم أزل بعد طفلا فى التاسعة . وكانت أختي « ليلي » فى الخامسة من عمرها .. وكان بيننا ما بين كل طفلين من عراك دائم وتنازع مستمر على الدمى والألعاب ، وعلى الطعام والشراب ، وعلى كل تافهة مشتركة بيننا ، وكنت أشعر فى كل معركة بيننا أن أبى وأمى يخذلانى وينصرانها .. ويؤنبانى ويدللانها ، ولا أكاد أتشابه وإياها من أجل لعبة من اللعب حتى أجد أحدهما انتزعها منى وأعطاها لها صائحا فى وجهى :

— ٢٠٦ —

— عيب .. إنها أختك الصغيرة .

ويصبح الآخر مؤيدا :

— قلت لك مائة مرة لا تضايقها .. أنت كبير ويجب عليك أن تكون أعقل من هذا .

ثم يربتان كتفيها ويقبلانها .

وفى خلال هذه المعارك الصيبانية كنت أحس لها بالبغض وكانت كراهيتى لها تتزايد .. عندما أشعر أنها قد انتزعت منى حب والدى .. واستأثرت بتدليلهما وعطفهما . وعندما يشتد بى الغيظ أحيانا كنت أتمنى لو لم تولد .. فقد خيل إلى أنى كنت أسعد حالا قبل ولادتها .. وأن كل ما كنت أتمتع به من تدليل ودمى وألعاب قد تحول إليها . وكنا نقضى الصيف فى الإسكندرية عندما ذهب بنا أبى للنزهة ذات يوم فى مكان قرب العامرية يسمى كنجى مربوط .

وإنى أذكره جيدا كما أذكر الطريق إليه .. وقد تفرع من الطريق الصحراوى وانحدر بين الرمال التى تنبت بها الأزهار البرية .. وعلى جوانبه وقف الصبية يحملون طاقاتها الزاهية يعرضونها على المارة . وأذكر أن أول ما بدا لى فى المكان مراوح الهواء المتعالية فى الأفق القائمة على الآبار وسط المزارع المتناثرة وبجوار البيوت المتفرقة هنا وهناك .

وسارت بنا العربة وأنا أشير لليلى إلى المراوح كلما مرت بنا مروحة .. حتى وصلنا أخيرا .. إلى الاستراحة القائمة فى نهاية الطريق . وكانت الاستراحة أشبه بفندق صغير فى أسفله مقهى تحيط به الأشجار المتكاثفة .. تجرى خلالها قنوات المياه النابعة من الآبار ، وتترامى على مدى البصر حقول الشعير الخضراء تتناثر بها أشجار الزيتون .

— ٢٠٧ —

وجلس والدانا على منضدة فى الحديقة بين الأشجار ، وأخذت
أعدو وليلى تلهو مع بقية الصبية المنطلقين فى الحديقة يلعبون بالكرة أو
يركبون الحمير .

ونادى أبى الساقى فعدونا لننال نصيبنا من المرطبات وسألنا أبى عما
ترغب فطلبت « جلاس » وطلبت ليلى « كازوزة » وطلب أبرانا
« قهوة » .

وعدت وليلى نواصل اللعب ، والدتى تصيح بى :

— خذ بالك من أحتك يا إبراهيم .

وعندما عاد الساقى بالطلبات عدنا مرة أخرى ، ومددت يدى آخذ
« الجلاس » فصاحت ليلى أنها تريده ، ونظرت إليها فى ضيق وقلت
لها محذرا :

— لقد طلبت أنت « كازوزة » يا ليلى .. خذى زجاجةك يا حبيبتى .

— ولكنى أريد « جلاس » .

وأحسست بحرقى يزداد وخشيت أن تصر على عنادها فاحتفظت
« الجلاس » وأنا أقول لها :

— أنا الذى طلبت « الجلاس » .

وكان الساقى قد فتح الزجاجاة ، ولم يكن هناك سبيل إلى إعادتها .
وأخذت ليلى تصيح كعادتها فى عناد وإصرار :

— أريد الجلاس .

ووجدت أبى ينظر إلى ناهرا ويقول منذرا :

— أعطها الجلاس .. ولا تعاندها .

— ولكنى أنا الذى طلبته .

— لا بأس ... خذ أنت الكازوزة .. هذه المرة .

ونظرت إلى ليلى فى ضيق .. وصحت بها :

— لماذا لم تطلبى « الجلاس » .. ما دمت تريدينه .. لن أعطيك شيئا .

— ٢٠٨ —

واشتركت أمى فى المعركة مؤيدة ليلى وقالت :
 — إسمع كلام أبيلك وأعطها « الجلاس » .
 وكان الجلاس قد بدأ يسيح .. وأخذت ليلى تبكى . فصاح أبى :
 — أعطها إياه وألا كسرت رأسك .
 ودفعت بالكوب إليها ... وقد بلغ منى الغيظ مبلغه . وصحت بها :
 — حذى « إن شاء الله تموتى » .
 وهكذا كان الحال فى كل شىء .. كنت أستسلم فى النهاية ،
 مفرجا عن غيظى بدعوتى عليها أن تموت .
 لم أكن أكره ليلى ، ولكن أبوى بتدليلهما إياها أثارا فى نفسى
 البغضاء والكراهية .
 ولم نكد ننتهى مما فى أيدينا حتى كنت قد تناسيت الأمر برمته ...
 وأقبلت على ليلى أعدو وإياها لاهين ..
 ومر بنا أحد « الحمير » التى يؤجرها أصحابها للمتزهين فصحت
 بوالدتى أسألها أن تركبنى « حمارا » .
 وكانت تتشغل ببعض أعمال الإبرة فى يديها فأجابتنى ناهرة دون
 أن ترفع رأسها :
 — ألا تكف لحظة عن الطلبات !! اذهب وخذ بالك من أختك .
 — كل الأولاد يركبون الحمير .. لم لا أركب أنا ؟
 وكان الرجل قد اقترب منا ... فأخذت ألح عليها ولم تجد بدا من
 الموافقة تخلصا من الإلحاح فقالت للرجل :
 — دعه يركب .
 وهنا صاحت ليلى :
 — وأنا يا ماما ؟
 وأجابت أمى :
 — وأنت أيضا اركبى .

— ٢٠٩ —

وعدونا كلانا إلى « الحمار » . وصاحت ليلي :
— أنا أركب الأول .
وعادت المجادلة مرة أخرى فصحت بها :
— أنا الذى قلت الأول .. وسأركب الأول .
وفى هذا قضى الرجل صاحب « الحمار » الخلاف قبل أن يستفحل
فقد قال مهدئا :
— لا تتعاركا .. اركبا أنتما معا .
ورفعها أولا ثم رفعنى وراءها وسار بنا والدتى تصيح محذرة
التحذير الدائم :
— لا تبعدا كثيرا .. وحافظ على ليلي .
وعندما ابتعدنا عن أبويننا واختفينا عن نظريهما فى أول منعطف بين
الشجر قلت للرجل وأنا أضرب الحمار بساقى :
— دعه يجرى .
وبدأ « الحمار » فى العدو عندما صاحت ليلي مذعورة :
— يا ماما ..
وقلت لها مهدئا :
— لا تخافى يا ليلي إنى ممسك بك .
ولكنها استمرت فى الاستغاثة والصياح ، فاضطر الرجل إلى تهدئة
سير الحمار .
ووجدتنى اضغط على نواجدى فى غيظ وقلت لها :
— إذا أنزلى برهة .. ودعبنى أجرى .. ما دمت تخشين الجرى .
وأجابت فى عناد كعادتها :
— لا .. لن أنزل .
وكان شوقى إلى العدو « بالحمار » قد بلغ حدا لا يعادله إلا غيظى
من ليلي ، وحاولت أن أرجوها فى هدوء فقلت لها متوسلا :

— ٢١٠ —

— يا ليلي يا حبيبتى .. كونى لطيفة .. أنزلى برهة .. وسأجعلك
تركبين ثانية .

ولكنها تمادت فى عنادها .

ولم أجد بدا من خداعها والضحك عليها .. فقلت لها وأنا أشير إلى
مروحة هواء مركبة على يثر فى مزرعة ملاصقة للمقهى :

— انظرى ياليلي .. ألم تشاهدى هذه العروس التى تغمض وتفتح
عينها ؟

ولم يكن هناك أحب إليها من حديث العرائس فالتفتت إلى وسألت
فى لهفة :

— أين هى ؟

— هناك بجوار المروحة .

— إنى لا أرها .

— إنها فوق .

— وكيف أتوصل إليها ؟

— إذا ما صعدت على السلم .. أمكنك رؤيتها .

— إذا دعنى أنزل .. إنى أريد مشاهدتها .

وأحسست بفرحة الانتصار ... وفى غمضة عين كانت ليلي على
الأرض تعدو إلى الطاحونة ، وكنت أنا أعدو « بالحمار » .

ولفقت به لفة ثم عدت إلى حيث كنت ونظرت إلى أعلى .. ولشد
ما كانت دهشتى إذ وجدت ليلي مستمرة فى الصعود فوق الهيكل
الحديدى المرتفع وقد أوشكت أن تبلغ القمة .
وتملكنى عليها دعر شديد وصحت أناديها .

وعندما بلغت صيحتى وجدتها تلتفت إلىّ .. ولم يكذبصرها يقع
على الأرض فى أسفلها .. وتدرى العلو الشاهق الذى بلغت وتحس
تعلقها فى الهواء حتى أصابها اضطراب شديد ، وخارت قواها ، ودار

رأسها .. فصرخت صرخة فزع مدوية وأفلتت قدمها من حديد السلم
فهوت من أعلى .

وأغمضت عيني وسقطت من فوق الحمار واندفعت أعدو إليها .
وإني لأذكر منظرها وقنذاك وهى ملقاة على الأرض وقد تهشم
رأسها وسال الدم من فمها فأحس أن شيئاً فى جوفى يكاد يهبط إلى
أسفل .. وأن يدا تطبق على عنقى ، وكأنها تزهرق أنفاسى .

ومن العبث أن أذكر مبلغ ارتياعى وفجيعتى .. وإحساسى بالجرم ..
كنت أشعر فى قرارة نفسى أنى قتلتها .. ألم أدفعها إلى الطاحونة ؟
ألم أزين لها الصعود ؟ . ألم أصبح بها بعد ذلك وهى معلقة فى قمعتها ..
فجعلتها تنظر إلى وتهوى إلى الأرض ... وفوق ذلك كله .. ألم أكن
أحس ببعث لها عندما تتعارك ، وأتمنى فى كثير من الأحيان لو لم
تولد !! ألم أدع عليها منذ بضع دقائق قائلاً :

« إن شاء الله تموتى » .

كل هذا كان يملأ قلبى شعوراً بالذنب .

وأحسست فى تلك اللحظة بمبلغ حبى لها .. وتمنيت لو امكنتنى
استردادها ثانية .. وإعادتها لتلهو معى ، ومنعها من أن تذهب وتركنى
وحدى ... وتمنيت لو استطعت أن أفنديها بعمرى .. وأن أموت أنا
وتبقى هى .

ولكن كل هذا لم يجد شيئاً .. وماتت ليلى ... وحملها أبواى
اللذان روعتهما الصدمة وتركتهما مشدوهين مذهولين وذهبت أسير
وراءها خافض الرأس ذليلاً حزينا محسورا .

ذهبتا كلنا وبقيت المروحة ، كما هى ، باسطة ذراعيها إلى عنان
السماء كأنها ماردا مخيف .

الفصل الثانى عشر

نائه بين القبور

- وصمت إبراهيم وبدت على وجهه علامات الألم والإرهاق الشديد .
وهز توفيق رأسه فى دهشة . وانتظر برهة ثم قال فى صوت خافت :
— وماذا حدث بعد ذلك ؟ .
ولم يجب إبراهيم وأطلق من صدره زفرة ضيق :
وانتظر توفيق فترة أخرى ثم عاد يسأل :
— تذكر ... أهذا كل ما يخيفك من المروحة ؟ إنها حكاية قديمة
جدا .. ماذا أثارها فى ذاكرتك ؟ ما الذى أيقظها ثانية ؟ تذكر ..
وتلملص إبراهيم وقال فى شبه همس :
— أنا متعب جدا .
— كفى هذا .. إذاً .. لا داعى لأن ترهق نفسك .. استرح .
تم تلفت إلى زكى وقلب شفته السفلى ورفع كتفيه فى شىء من
الخذلان ثم أشار إليه برأسه .
ونفض الاثنان إلى ناحية المكتب بعيدا عن إبراهيم .
وقال توفيق :
— عجيبة !! يبدو أن المسألة تتعقد أكثر .
— ولكن كل ما قال لا صلة له بالموضوع .
— كيف ؟ .. أنه هو نفسه الموضوع .. إننى أعتقد جازما ... أن
هذه الحالة التى أصابته فى طفولته هى التى سببت له العقدة الأولى ..

— ٢١٣ —

إنها هي الداء الكامن في نفسه من قديم العمر .. ولكنني أعتقد أيضا أنه لا بد أن هناك ما أيقظها .. فقد كان ممكنا أن تبقى كامنة إلى ما شاء الله .. ولكن شيئا جديدا أثارها .

— وما هو ؟

— من يدري .

— ولم لا نسأله ؟

— لا .. لن يقول شيئا .. لقد استنفدت كل قواه .

— أتظن أنه يمكن أن يفصح عنها في مرة ثانية ؟

— الله وحده أعلم .. المسألة كما قلت لك معقدة جدا .

— أتقصد أنه ليس هناك أمل ؟

— لم أقل هذا .. ولكنها تحتاج إلى جهد كبير .. هناك أشياء كثيرة

مجهولة .. لا أظنه سيفصح عنها ... لا بد أن يكون قد وقع له من الأحداث في الفترة الأخيرة ما هيج كامن مشاعره . إن الفترة التي قضاهما في الإسكندرية يجب أن تبحث جيدا .

— وكيف يمكن بحثها ؟

وبدا التردد على توفيق وصمت برهة ثم أجاب :

— كنت أود أن نسافر به إلى الإسكندرية .. حيث مسرح الأحداث

نفسه .. إذ يخيل لي أن الوسائل هناك قد تكون أفضل ، ولكنني في هذه الفترة مشغول جدا .. لدى بعض المرضى الذين أتولى علاجهم .. ومن العسير على تركهم في هذه المرحلة من العلاج .. ولذا فلنأني أرى أن نفتصر على علاجه هنا .. وأن نحدد له ثلاث جلسات في الأسبوع ... والمسألة تحتاج إلى بعض الصبر والتؤدة .. وكل شيء يحل مع الزمن .

ولم يبد على زكي الاقتناع وقال في رجاء واستعطاف :

— أنا أعلم أني قد أثقلت عليك .. ولكنني لأحدثك كطبيب أو

كزميل .. بل أحدثك كأخ .. إن إبراهيم عزيز علىّ كنفسى .. وأرجو

ألا تعتبره مجرد مريض ، بل اعتبره أخا لك كما هو أخ لى . إن مسألته لا تحتل الصبر والتؤدة ما دامت أماننا وسيلة ... فلم لا نطرقها .. إن مرضاك يمكن الصبر عليهم بعض الوقت .
وبدا الحرج على وجه توفيق ؟ وأخذ ينقر بأصبعه على المكتب ثم قال أخيرا :

— أعدك بأن أحاول جهدى .. اترك لى فرصة حتى أرى إذا كنت أستطيع أن أدبر أمرى .
— إنى واثق أنك ستستطيع ، سأتصل بك فى الغد فى مثل هذا الوقت لأسمع موافقتك على السفر ولكى نحدد موعدا له .
— إن شاء الله سأبذل جهدى .

وكان إبراهيم قد بدأ يفتح عينيه ونهض من الفراش فى تناقل . وكان أول ما فعل أن مد يده فاخطف الحقيبة التى كانت مستقرة بجواره وأطبق عليها بذراعه ثم تلفت حوله فى دهشة .
وأخذ ينفذ عن رأسه ما يثقلها واستطاع أن يميز صاحبه فشعر بشيء من الطمأنينة .. كما يحس الأعمى عندما يتحسس عصاه .. ولم لا ؟! أليس هو العصا التى تقوده ؟! ألم يتعود أن يتبعه إلى حيث يذهب دون أن يسأله أو يعلم منه ما الغرض من كل هذا التنقل ؟!
واقترب منه صاحبه وبجواره الرجل الآخر الضئيل الحجم ذو العوينات السمكية .

وتأبط صاحبه ذراعه ومد الآخر يده لمصافحته .
إذا فهو سترك المكان .. أجل .. لا شك فى هذا ... ومد يدا للمصافحة وأخرى للتأبط واتجه خارج الحجرة وهو يرد على مودعه تتمته غير المفهومة .
وبعد الظهر عاد توفيق إلى عيادته ليستقبل مرضاه .. وذنه لم يستقر بعد على رأى .

إن به حقا رغبة أكيدة فى علاج إبراهيم .. فهو يقدره ويحبه ..
ويكره أن يضيع عبقرى مثله .. ولكنه أيضا لا يستطيع ترك مرضاه
والتنقل فى الإسكندرية ليستقصى أسباب العلة ... كأنه مخبر سرى ..
إن وأجبه كطبيب نفسانى لا يحتم عليه ذلك .. إن ذلك أكثر مما
يطلب منه كطبيب .

وجلس على مكتبه .. وطلب المريض الأول .
وفتح الباب ... ولم يدخل أحد المرضى بل دخلت راجية .
وبدت عليه الدهشة وسألها وهو يمسح منظاره محاولا إخفاء
دهشه :

— إنى أسفة جدا لإزعاجك وإضاعة وقتك .. ولكنى أرجوك أن
تعتبرنى أنا الأخرى إحدى مرضاك . لقد سألتنى فى أول الأمر
معاونتك ... ولقد بذلت كل ما أستطيع .. وأنا الآن أسألك معاونتى .
— ليس هناك قط ما يدعو لهذا الاعتذار .. إنى أحب معاونتك من
كل قلبى .. ماذا تريدن ؟

— لقد عرفت من الدكتور زكى كل ما حدث ... وسمعت منه
قصة ليلى والمروحة .. وعلمت أن هناك عقدة كامنة فى إبراهيم أثارتها
حوادث جديدة ، وأن العلاج قد يكون أتم لو سافرنا إلى الإسكندرية
وأنت معنا .. ثم علمت أنك متردد فى السفر .
— ليست المسألة مسألة تردد .. ولكنها ارتباط بواجبى نحو مرضاى
الآخرين .

— إنى أتوسل إليك يا دكتور .. لقد سمعت منى كل قصتى معه ..
سمعت منى ما لم أحسر على قوله لأحد .. لأنك بعثت فى نفسى الثقة
.. فأرجو ألا تتخلى عنى . أنقذه من أجلى .. إن حياتى معلقة به ، لا
تدع القدر يحطمنى .. ويبدد أمانى .

ولم تستطع أن تكبت دموعها .. فانسابت من عينيها وأخذت ترتجف أمام الطبيب .

ونهض الرجل الطيب الرقيق فربت كتفها فى حنو قائلاً :
— كفى .. كفى هذا .. لا تخشى شيئاً .. سأذهب معك ولن أتركه حتى أسلمه لك معافى بإذن الله . إنك فتاة تستحق أن يكافح الإنسان من أجلها .. كفى عن البكاء .. إنك — بإيمانك ووفائك — أقوى من أن تسيل لك عبرة .

وفى خلال يومين كان الجميع قد عادوا إلى السيوف أو إلى مسرح الأحداث .

وبدأت أولى محاولات توفيق مع إبراهيم .
طلب توفيق من راجية أن تحضر له المسجل .. وقبيل المغرب حملت « سيدة » الجهاز وهبطت راجية من حجرتها تتبعها إلى الخارج ولمحها الجد وقد جلس فى حجرة المكتب مع عبد الرحمن الذى انهمك فى بحث بعض الأوراق ، وصاح بها الجد متسائلاً :

— إلى أين يا راجية ؟
— سنحمل المسجل إلى بيت إبراهيم .
— ولمه ؟
— لقد طلبه الطبيب المعالج حتى يجرى به على إبراهيم بعض المحاولات .

— ولماذا لا ترسلينه مع سيدة ؟
— لقد طلب منى الدكتور الحضور .
— ولكن .. أتظنين من اللائق بعد ما حدث أن يراك الناس تترددين على بيته ؟

— ٢١٧ —

— لن يرانى أحد يا جدى .. وإنى غير ذاهبة للتسلية ، أو اللهو ، إنى أحاول أن أساعده فى محنته ، وأعتقد أن هذا واجب علىّ .

— تقصدين أنه كان واجبا عليك ؟

— وما زال

— ليس هناك ما يحتم عليك الذهاب إليه ... وليس هناك أبدا ما يبرر صلتك به بعد أن فككت خطيتكما .. وعقول الناس لا تفهم غير ذلك وألستهم لا ترحم أحدا .

— لا يهمنى الناس يا جدى .. أنى أفعل ما أراه صوابا ، وليقولوا ما يشاءون . إن إبراهيم مصاب وأنا أملك له بعض المعونة فليس من المعقول أن أمنعها عنه لأنى أخشى كلام الناس .. إنها مسألة إنسانية بحثة .. إن الإنسان يجب أن يقدم للمرضى كل ما يملك من معونة .. ولو لم يكن له بهم أدنى صلة .

وبدأ الجد يفقد هدوءه وقال فى حدة :

— لا تكونى عنيدة يا راجية .. ألم يكفك ما حدث ؟ لو سمعت نصيحتى من أول الأمر لما ..

ولم يكن عبد الرحمن قد نبس ببنت شفة ولكنه عندما وجد أن جده بدأ يثور وأنه يوشك أن يخوض فى حديث مثير لن ينتهى .. بدأ تدخله مقاطعا جده :

— دعها وشأنها يا جدى ... إن إبراهيم محطم منهار .. ويجب أن نقدم كلنا ما استطعنا من مساعدة .. إنه إنسان لم يسئ إلينا ولم يخطئ فى حقنا .. ولا يستطيع أحد أن يعرف الظروف المحيطة به .

— ولكن يا عبد الرحمن ... يجب أن تفهم راجبه .. أن الوضع ..

— إنها تفهم كل شيء .. راجية ليست صغيرة ... إنها إنسانة عاقلة ولقد قلت لها إن التجارب خير معلم لها ، فدعها وشأنها .. خذ هذا حساب السندات الأخيرة التي اشتريناها من شركة الحرير .
وأنتهى عبد الرحمن بهذا الحديث مع راجية وأفلتت راجية وراء سيدة إلى بيت إبراهيم .

وكان توفيق قد جلس فى الشرفة وفى الداخل جلس إبراهيم بحقيقته على إحدى الأرائك بجوار الدكتور زكى وقد بدت عليه السكينة والهدوء .
وأشار توفيق لسيدة بأن تضع المسجل فوق منضدة فى الشرفة .
وقال لراجية :

— أحضرت الشريط الذى سجل عليه حديثكما ؟

— أجل .. هذا هو .

ثم أخرجته من صندوق صغير للأشرطة .

— أرجوك إذا أن تبدئى بإذاعته .. دعى الصوت خفيفا حتى لا يصدمه .

— إن الشريط يبدأ باللحن الذى سجله أولا فهل أذيعه كله ؟

— أجل ... لا بد من إذاعته .. حتى يهين لنا الجو المطلوب ويمهد للحديث .

ووضعت راجية الشريط .. وبعد لحظة علا اللحن رقيقا خفيفا .

ووصل اللحن إلى مسامع إبراهيم .. وأخذ فى الانتباه واليقظة .. وأرهف أذنيه .. وأحس براحة لذيدة واللحن ينساب فى نفسه .

هذا لحن جميل .. إنه ليس غريبا على مسامعه .. إنه حبيب إليه .. وأراح رأسه على ظهر الأريكة وأغمض عينيه فى متعة .

وانتهى اللحن .. ومضت فترة وهو فى استرخاء لذيد ، حتى سمع فجأة صوتا يهتف :

— أين أنا ؟

وصوتنا آخر يجيب :

— بين ذراعى .

وتملكته رجفة من قمة رأسه إلى إخمص قدميه .

واستمر الحديث ، وازدرد ريقه وكأن فى حلقه غصة ، وتوترت أعصابه ... وتلاحقت أنفاسه .. وحاول أن يصم مسامعه عن الصوت المندفع إليه .. ولكنها زادت إرهافا وأخذت تلتقط الألفاظ المناسبة فى وضوح :

— راجية .. أتجبننى ؟ قولها لى فإنى أحب أن أسمعها من شفتيك .

وازداد توتر أعصابه وأحس بشيء يعتصر فى باطنه فيسبب له ألما شديدا .. وحاول مرة أخرى أن يبعد مسامعه عن الصوت .. ولكنه أزداد وضوحا :

— لم يعد لى غنى عنك لحظة واحدة .

ووجد نفسه يعدو لاهثا والصوت يلاحقه كأنه المطارق تنهاوى على رأسه :

— بغيرك ... لا أستطيع أن أعيش .. أبدا .. أبدا .

واستمرت المطارق تهوى عليه :

— أبدا .. أبدا .

وندت عنه صرخة مروعة وهو يصيح :

— كفى ... كفى .

وأسرعت راجية فأوقفت الجهاز .

واستغرق إبراهيم فى نوبته .. وتصيب العرق من جبينه وهو يعدو بين الرمال ... هاربا من شيء .. أوغاديا وراء مجهول .. وخيم عليه الضباب وتلاطمت حوله الأمواج .

وهز توفيق رأسه وقال :

— لا فائدة .. أعيدى الجهاز يا سيدة .

وأخفت راجية وجهها بين كفيها واهتز جسدها بالبكاء وأقبل عليها
توفيق مهدتا :

— لا داعى لهذا .. إنها مجرد محاولة .. أمامنا غيرها ، محاولات
أخرى كثيرة .

وتوالى المحاولات بعد ذلك .. وتوالى الإخفاق ... وازداد اليأس ،
وحاولت راجية جهدها .. أن تستعيد إلى نفسه ذكرياتهما معا ..
فصحبته إلى كل مكان كان لهما به ذكرى محببة .. قال عنها إنها
ستخلد في نفسه .. صحبته إلى الشاطئ .. وإلى المتنزه النائي بجوار
الحقول .. وإلى الحدائق ، وإلى معرض الرسم .

ولكن كل ذلك ذهب سدى .. كان يتحرك كأنه آلة صماء .. لا
وعى ولا فهم ولا إدراك .. لا شىء سوى الاستسلام المطلق والشرود
والذهول .. والإطباق على الحقيقة ذات المحتويات التافهة .

و ذات صباح جلس توفيق فى الحديقة وأقبل مدهولى يحمل الشاى .
وجرى حديث بينهما أشبه بالثرثرة .. « والدردشة » .

قال توفيق متلطفًا مع الرجل وهو يصب له الشاى :

— كيف الحال يا عم مدهولى ؟

— واللّه ردىء يا سيدى الدكتور .. كلما رأيت سيدى إبراهيم وهو
على حاله هذه أحسست أن سكينًا يمزق أحشائي .. سيدى إبراهيم
الرجل الطيب الأمير يحدث له هذا ؟ أمعقول أنه لا يعرفنى ؟ عشرة
هذه السنين الطوال ؟ ثم ينظر إلىّ وكأنه ينظر إلى خادم غريب .. ومن
غير سبب !!

— ليس هناك شىء من غير سبب يا مدهولى .. لا بد أن يكون هناك

سبب .

— ٢٢١ —

— واللّه يا سيدى من غير سبب .. لم يحدث له شىء أبدا .. ولا حاول أحد أن يزعجه أو يضايقه .. لقد كان « مبسوطا » أربعة وعشرين قيراطا ، وما أظننى رأيته فى حياتى أسعد مما رأيته هنا .
— أكان سعيدا طول المدة ؟

— أجل .. عدا الفترة التى رده فيها سيدى عبد الوهاب ولكن الأزمة ما لبثت أن انفجرت وأضحى كل شىء على ما يرام .. وظل يرتع هو وسيدتى راجية .. كأنهما طفلان صغيران يلهوان ... حتى بدأت تظهر عليه علامات ذهول وشروء .
— منذ متى لاحظت هذا ؟

— قبل إصابته بيوم أو يومين .. ولكنى لم ألق إليه بالا .. فإنى أعرف أنها فترات يغرق فيها فى ذهوله .. ويقول لى إن الوحى يهبط عليه .. وقد ظننت أنها نوبات وحى كما كان يقول لى ... ولم أدرك أنها بوادر كارثة ستحل بنا ، حتى وقعت الواقعة .. إنها يا سيدى « عين أصابته » .

— ومتى رأيته أول مرة على حاله هذه ؟

— فى الصباح .. وقد أقبل على شاحب الوجه زائغ البصر يضم الحقيبة تحت أبطه .

— وأين كانت الحقيبة ؟

— لا أعرف .

— ألم ترها من قبل ؟

— أبدا .. ولا أدرى عنها شيئا .. إنها لم تصل إلى يده إلا هذا الصباح لأننى عندما أعددت له الفراش فى الليلة السابقة لم يكن لها أثر .

— إذن من أين أتى بها ؟

— من يدري .

— ألم يزركم أحد ؟

— ٢٢٢ —

- مطلقا .
- أوافق أنت ؟
- لقد كنت آخر من نام فى الدار .. وأغلقت الباب بيدى هذه .
- إذا فكيف وصلت إليه ؟
- ربما قد أتى بها من الخارج .
- متى ؟. إذا كان قد نام وليس لها أثر ، فكيف يأتى بها من الخارج ؟
- فى الصباح وهو يستريح كعادته .. ربما وجدها فى الطريق أو على الشاطئ .
- أكان عائدا من الخارج عندما رأيته ؟
- أجل .
- أمن عادته الخروج كل صباح ؟
- تقريبا .. إنه دائما يستيقظ مبكرا ... ومنذ أن حضرنا إلى هنا ..
- تعود أن يرتدى القميص والبنطلون وحذاء خفيفا .. ويخرج للسير أو للسباحة ثم يعود بعد ذلك للإفطار .
- وماذا فعل فى هذا اليوم ؟
- خرج كعادته .
- أرايته عند الخروج ؟
- لا .. لقد خرج قبل أن أستيقظ .
- وهل كان يكر دائما فى الخروج كما بكر فى هذا الصباح ؟
- غالبا .. فأنا لا أراه إلا حين عودته ، وقد أعددت له الشاى والإفطار .
- ألدبك فكرة عما كان يفعله فى خروجه ؟
- لا شىء أكثر من المشى أو السباحة .
- فى أى جهة ؟

— ليست لديه جهة معلومة .. أحيانا يسير بين الحقول ، وأحيانا يتجه إلى الشاطئ وهو يحب السير الطويل .. لقد خرجت معه ذات مساء وسار بي حتى خارت قواي ولم تكذ تحتملنى قدمائى .

— وفي اليوم الذى حدثت فيه الإصابة .. هل تدرى إلى أين ذهب ؟
— والله لا أعرف بالضبط .. ولكنى أظن أنه منذ بضعة أيام قال لى من باب التفاخر : أتدرى إلى أين ذهبت اليوم يا مدبولى ؟ فلما أحبته بأنى لا أعرف . قال : حذر .. وظل يسألنى حتى قال لى أخيرا إنه ذهب إلى .. إلى ..

— إلى أين ؟

— إلى .. إلى .. لقد كنت أذكره .

— حاول أن تتذكر .

— ولكنى لست واثقا أنه كان هناك فى هذا اليوم .

— لا بأس .. ليس هذا مهما .. تذكر .

— إلى .. إلى .. اسم غريب .. كان اسم طير .. أجل ... أجل ..

تذكرت .. إلى العصافير .

— تقصد .. العصافرة ؟

— أجل بالضبط العصافرة .. لقد سار إلى هناك .

وفى تلك اللحظة أقبل الدكتور زكى وتناول مقعدا ، وجلس

بجوار توفيق وتساءل مدبولى :

— أحضر لك شاي يا سيدى ؟

— لا .. متشكر .

وحمل مدبولى أدوات الشاي وعاد إلى الدار .

وقال توفيق :

— كنت أتحدث مع مدبولى وعلمت منه أن إبراهيم كان يستريح

على الشاطئ صبيحة ذلك اليوم الذى أصيب فيه .

— ٢٢٤ —

- وماذا فى ذلك ؟
- لقد عاد ومعه الحقيرة وهو فى حالة الذهول التى أصابته .
- أتظن قد حدث له فى أثناء سيره ما يمكن أن يكون له علاقة بالحادثة ؟
- ولم لا ؟
- ولكن كيف يمكن أن تعرف ما حدث له ، والشاطئ طويل لا حدود له ؟
- لقد قال مدبولى إنه منذ بضعة أيام سار إلى العصابة .
- وماذا يفيدنا من ذلك ؟
- من يدرى .. على أية حال .. لست أرى ضررا من الوصول إلى هناك والسير على الشاطئ .. ألدبك مانع ؟
- أبدا .

وفى صباح اليوم التالى استيقظ الاثنان مبكرين وقاد زكى عربته وبجواره توفيق . وتحركت العربة من السيوف فعبرت تقاطع شارع أبى قير عند « الكوبرى » الواقف عنده عسكرى المرور ثم اتجهوا إلى فبكتوريا عابرين مزلقان السكة الحديدية ثم دار يمينا حول كلية فيكتوريا حتى وصلا إلى الشاطئ واتجهوا إلى سيدى بشر وتجاوزاه حتى بلغا أحد أكشاك السواحل ، وبدأ زكى يتمهل بالعربة حتى وقف وهو يقول :

- أظن هذه هى العصابة ؟
- وقرأ توفيق اللافتة :
- أجل هنا :
- ثم تلفت كل منهما حوله وقال زكى :
- لست أجد ما يسترعى الالتفات .
- دعنا نترك العربة ونجول قليلا .

وهبطا من العربة وكانت الريح شديدة تقذف بالموج متعاليا نحو الشاطئ فلا يلبث أن تتكسر حدته وينبسط فوق الرمال .
وكاد المكان يكون خاليا إلا من جندي الشاطئ بمنظره العتيق وحزامه ذى الطاسة النحاسية العريضة .

ولم يطل بهما السير حتى عادا إلى العربة وقال زكى فى يأس :
— لا فائدة .. ماذا يمكن أن نحد على الأمواج أو بين الرمال .
وركب توفيق بجواره فى صمت ، وهم زكى بأن يدير اتجاه العربة للعودة ولكن توفيق قال له :
— دعنا نسير قليلا ..

وسارت العربة فى اتجاه المنتزه .. وقال زكى وهو يهز رأسه فى حيرة :
— حكاية عجيبة !! لست أدري لها علة .. حتى الحقيقة التى كنا نظن من فرط حرصه عليها أن بها سرا .. اتضح أن لا بها .. ولا عليها ..
.. نظارة شمس و « أشارب » .

— ولكن ترى لمن تكون ؟
— ظننتها فى أول الأمر لراحية كما ظننت أنت ، ولكنها قالت إنها لم يسبق لها أن رأتها .

— يبدو لى أن فى المسألة .. امرأة أخرى .. وإلا فمن أين له بالحقيقة ؟
— ربما وجدها على الشاطئ .
— ربما ؟

واستغرق الاثنان فى صمت لم يلبث أن قطعه زكى بقوله :
— من ناحيتى أنا .. يخيل إلى فى كثير من الأحيان أن جد راحية .. قد يكون له دخل فى المسألة .. أنا أعرف إبراهيم جيدا .. أعرفه إنسانا فى منتهى الحساسية .. أتذكر ما قلته لك عن ضميره الحى المرهف .. الذى يأبى دائما إلا أن يثقل عليه ويظهره بمظهر المقصر الذى كان يمكنه أن يفعل خيرا مما فعل .. ويحمله وزر كل سيئة

(فديتك يا ليلي)

— ٢٢٦ —

تصيب من حوله ، ويجعله دائم القلق خشية أن يكون قد تسبب فى شقاء أحد أو خذلان أحد .. أتذكر هذا ؟

— أجل أذكره .

— يخيل لى أنه يحتمل جدا أن يكون فى أحد أحاديثه مع جد راجية .. قد فهم منه أنه قد أضاع مستقبلها .. وأنه حرّمها حياة أفضل ... ولذلك صمم أن يتركها .. ولم يحتمل التضحية فأصابته الصدمة التى أصابته .

— تعليل معقول .. ولكن ما دخل الحقيقة ؟ وما سبب حرصه العجيب عليها ؟

وهز زكى رأسه فى حيرة .. وعاد توفيق يتساءل :

— والمروحة .. ما سر هذا الخوف الفظيع منها ؟

— ألم تفسره أنت بحادث أخته ؟

— أجل .. ولكن هذه عقدة قديمة .. لا بد أن يكون قد أثارها شىء

جديد .. ما هو هذا الشىء .. الذى جعله ينهار تماما .. والذى بدد

خوفه القديم من المروحة ؟

وكانت العربة قد بلغت المندرة وأوشك زكى أن يدير العربة للعودة

عندما أمسك توفيق بيده فجأة وصاح به :

— قف .

وسأله زكى فى دهشة :

— لم ؟

— انظر !! ألا ترى ؟

— ماذا ؟

— هذه الطاحونة القديمة .

وعلى ربوة عالية كانت تستقر إحدى طواحين الهواء مواجهة الشاطئ وقد تعالى بناؤها الحجرى العتيق بأسطأ ذراعيه — كما قال إبراهيم — إلى السماء .. كأنها مارد مخيف .

وهبط توفيق من العربة قائلا :

— تعال .

— إلى أين ؟

— نرى هذه الطاحونة .. فقد يكون بها ما أزعج صاحبنا .

وهز زكى رأسه فى دهشة وهو يتبع توفيق وتمتم قائلا :

— لست أرى بها أى سبب للإزعاج .

وأخذوا يخوضان فى الرمال التى تناثرت فيها الحشائش البرية والصبار .. متجهين نحو الطاحونة وقد بدت حولها هياكل مقابر قديمة .. أحنى الزمن على قوائمها فتهاوت وتآكلت .

وبدأ المكان خربا موحشا والريح تنفذ خلال أذرع المروحة الخشبية التى بلى قماشها وتمزق .. فتصدر من خلاله صفيرا أشبه بالنواح .. حتى بدت الطاحونة العجوز أشبه بشكلى بين القبور . ووصلا إلى بابها بعد أن دارا حولها دورة قصيرة ووقف زكى أمام الباب المغلق متسائلا :

— أترى يسكنها أحد ؟

— دعنا نرى .

وطرق الباب بقبضة يده .. وتجاءبت فى الربوة الخالية صدى الطرقات . وبعد برهة صدر من وراء الباب صوت أجش يهتف متسائلا :

— من هناك ؟

— أنا .. افتح يا حاج .

— ماذا تريد ؟

— أريد مشاهدة الطاحونة .

وفتح الباب .. وهو يصير صريرا مزعجا .. ووقف وراءه عجور
مغضن الوجه أبيض الرأس ، واهن العظم .. قد كسا جسده صديري
وسروال فصفاض .. ونظر إلى الرحلين وقد بدت عليه الدهشة ، وأقرأه
الزائران السلام .. فأجاب الرجل مرحبا بصوته الأجلش :

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. أهلا وسهلا .. تفضلا .
ثم أفسح لهما الطريق وفتح الباب على مصراعيه .

— متأسفين يا حاج ..

وتوقف توفيق كأنه يستبين اسم الرجل ، فأجابه الحاج بقوله :

— محسوبك شلبي .

— متأسفين يا حاج شلبي .. لم نكن نقصد إزعاجك .. ولكن منظر

الطاحونة أغرانا بمشاهدتها .

وبدت على الرجل علامات الفخر .. وسره أن طاحونته ما زال بها
ما يغرى بالمشاهدة ... وقال في تواضع :

— تفضلا . تفضلا . ليس هناك أى إزعاج ، ولو أن الطاحونة .. قد

أتلفها البلى .. وعفى عليها الزمن ، كما عفى على صاحبها .

— ربنا يعطيك الصحة .

— ولا صحة ولا عافية .. نحن نقول يا لله حسن الختام ... أناخذ

زمننا وزمن غيرنا !

— البركة فيك يا حاج .

— الله يحفظكم .. تفضلا .. عدم المؤاخذه .. الطاحونة مظلمة ..

ولكن عينيكما ستعودان ظلمتها بعد لحظة .. وعندما نصعد إلى أعلى

سنجد نورا أكثر .

وكان توفيق يدير دفة المجاملة بمهارة فقال للرجل :

— نورك يكفى .

— الله ينور عليك .

ووقف الثلاثة فى قاع الطاحونة وقد بدا أشبه بساحة صغيرة مستديرة وضع فيها كل ما يملك الرجل من أثاث ... فراش خشبى ومشجب من المسامير وبعض صفائح وصرر ومواجير ، وألقى توفيق على ما حوله نظرة فاحصة ورفع رأسه إلى أعلى فوجد السلم الخشبى المتآكل يدور صاعدا إلى أعلى .

كان منظر الطاحونة عجيبا ، بعروقها الخشبية الغليظة المتقاطعة والتروس الكبيرة والرحى الضخمة .

وتساءل زكى فى دهشة :

— أهذه الطاحونة كانت تدور ؟

وابتسم العجوز :

— هذه الطاحونة التى تراها كالهيكال البالى ... كان لها ماض ..

إنها لم تكن تبطل أبدا . كنا نعمل بها ليل نهار .

— ومنذ متى وأنت هنا ؟

— منذ أن عرفت الحياة .. لقد ولدت بين حدرانها ، وقضيت عمري

فوق رحاها ، وسأمت فى باطنها .

— بعد عمر طويل إن شاء الله .

— طويل ١٩ أبعد كل هذا يبقى لنا عمر طويل ؟ لقد أخذنا أكثر من

كفايتنا .. يجب أن نتوقف عن الحياة .. كما توقفت الطاحونة ... لقد

أصابنا من البلى ما أصابها ... ولكنها كانت أسبق منا إلى الموت .

— ولكن كيف كانت تدار ؟

— نضع القمح فى مكانه أعلى الطاحونة .. سأريكم إياه عندما

نصعد .. فيهبط فى مجرى يصب فى وسط الرحى ، وعندما تفك

السيور يدفع الهواء المروحة فتتحرك التروس التى تدير الرحى فيطحن

القمح وينزل الدقيق فى أنابيب من القماش ، حيث نعبئه فى الصفائح .

— والآن .. ألا يمكن تشغيلها ١٩

— لا أظن .. لقد بليت السيور وكسرت المراوح وتمزق قماشها وتأكلت تروسها .. انتهت كما ينتهى كل شيء .. أبلاها الزمن الذى لا يرحم حتى الحجارة .. على أية حال لقد فعلت ما عليها .. أدت واجبها وأكثر من واجبها .. لقد أطعمت جيلا بأكمله .. ويكفيها كبرياء وفخرا أن تقف مصلوبة رافعة الهامة .. منتصبية القامة .. غيرها قد رقد فى باطن الأرض ، لا يستطيع أن يصلب عظمه أو يقيم عوده .
وكان توفيق ينصت إلى حديث العجوز وقد أخذت عيناه فى فحصه وفحص ما حوله .. وأخيرا قال متسائلا :

— أبقى هنا دائما يا حاج شلبى ؟

— وإلى أين أذهب إذا لم أبق هنا ١٩ إن هنا مأوى .

— ألا تخرج لترى الدنيا ١٩

— دنيا !!

وضحك الرجل فى سخرية ؟ ثم أردف وقد أطرق برأسه :

— ماذا أرى فى الدنيا أكثر مما أرى هنا .. عجلة تدور كما تدور المروحة ... واحدة تديرها ريح الزمن والأخرى تديرها ريح البحر ، واحدة تطحن بأيامها أبناء آدم والأخرى تطحن بحجارتها حبات قمح .. وفى النهاية .. يصبح هذا ترابا وهذا دقيقا .. ومن التراب ينمو القمح .. ومن الدقيق ينمو ابن آدم .. والعجلة تدور ، لا تشعر بهذا ولا بذلك ، والذى يذهب هذا ... ينبت ذاك .. لا فارق بين ابن آدم وحب القمح إلا الغرور .. يظن نفسه شيئا .. وهو حبة فى الرحى .
ونظر الرجلان إلى العجوز فى دهشة .. لشدة ما صدق فى كلمته .. حتى الطاحونة .. لها فلسفة .
وتقدم الرجل أمامهما صاعدا السلم الخشبي وهو يقول :

— تفضلا .. إلى أعلى .. أريكما الرحي والتروس وموضع القمع ..
احذرا جيدا وانتقيا موضع أقدامكما .. فالحشب يكاد يهوى .
وصعد الثلاثة الدرج المتآكل وهو يئن من كل قدم تطؤه .
وأخيرا توقف الرجل .

وتلفت توفيق حوله فوجد الطابق العلوى قد أحاطت به النوافذ
الضيقة وتوسطه حجران مستديران ثقيلان نفض عنهما إطار من الحديد
وبدا أنهما كأنهما يدوران بعمود ركب في وسطهما يديره ترس كبير من
أعلى . وبدأ الرجل يشرح كيف كانت تعمل الطاحونة ، وعندما أتم
شرحه اتجه توفيق إلى النافذة المطللة على البحر فصدمت وجهه ريح
رطبة شديدة ، وأبصر من خلال النافذة جزءا من الرمال والأعشاب
المحيطة بالطاحونة وتلاها جزء من الطريق ... ثم أخذ المنظر يتسع
شيئا فشيئا كلما تباعد وبدت له رمال الشاطئ خالية تنبسط عليها
الأمواج المتلاطمة حتى تنمحي .

واستطرد، توفيق في الحديث ساتلا الرجل :
— أتبقى هنا دائما ؟ لا تغادر الطاحونة أبدا ؟
— لا يخلو الأمر من شوط هنا وهناك .. جريا وراء القوت حتى لا
نموت جوعا .. والله لا ينسى عبده .

— ألا يزورك إنسان ؟

— أحيانا .

— ألم يزرك أحد قريبا ؟

— والله لا أتذكر .

ووجد الرجل أن وقفة الزائرین قد طالت فقال وهو يشير إلى أريكة
خشبية : .

— تفضلا .. اجلسا .. أم تفضلان الهبوط إلى الدور الأرضى حيث
الجلسة أكثر راحة ، وحتى أستطيع أن أصنع لكما فنجانا من الشاي ؟

— أكثر الله خيرك يا حاج .. لا داعى لأن تتعب نفسك ... إننا قد تناولنا الشاى قبل أن نأتى إليك .
وهبط الثلاثة السلم .

وعاد توفيق إلى استجواب الرجل :

— لم تقل لى يا حاج .. متى قدم إليك آخر زائر ؟
— والله يا ابنى .. لا أذكر .. أظن منذ شهرين .
— بعد هذا .. ألم يترك أحد ؟ تذكر جيدا !
— الذاكرة قد وهنت .. لم تعد تعى من أمسها شيئا .
— حاول أن تذكر .. ألم يترك أحد منذ أسبوع فى الصباح المبكر ؟
— فى الصباح المبكر !!

وصمت برهة ثم رفع حاجبيه وهتف :

— أجل ... أجل .. تذكرت ... ولكنه لم يكن زائرا ، إنه لم يحاول مشاهدة شيء .. إنه لم يكن مخلوقا طبيعيا ... أو على الأقل ... لم يكن فى حالة طبيعية .. كأن به شيئا .
— كيف ؟ .. وماذا دعاه إلى الدخول ؟

— لست أدرى .. لقد حدثت المسألة كلها فى دقائق معدودات .. طرق الباب طرقات عاجلة .. ولم ينتظر حتى أجيئه أو أذن له بالدخول بل اندفع بسرعة إلى الداخل وقد تلاحقت أنفاسه وتلفت حوله فى حيرة وعندما وقع بصره على السلم سألنى قائلا : أستطيع أن أصعد إلى أعلى بضع دقائق ... ثم اندفع صاعدا قبل أن أجيئه بشيء .. وتوجست منه خيفة وظننته هاربا من أحد وتبعته إلى أعلى لأسأله عما به ، وعما إذا كنت أستطيع أن أساعده فى شيء . وعندما وصلت إلى هنا وجدته قد وقف وراء هذه النافذة وأخذ يحملق منها كأنه يرقب شيئا على الشاطئ . وهممت بأن أستطلع منه ماذا يرقب .. وماذا يريد عندما انطلقت منه صرخة فزع مفاجئة كأنما قد أبصر ما روعه ، ثم اندفع يعدو إلى أسفل

— ٢٣٣ —

كالصاروخ وأنا فى أعقباه محاولا اللحاق به .. لأعرف منه شيئا أو
لأعينه على شيء ، ولكنه انطلق يعدو من الباب .
وصمت الرجل فترة .. يتمالك خلالها أنفاسه ، ولكن توفيق سألته
فى لهفة :

— وماذا أبصر من النافذة ؟

— وأنى لى أن أعرف .. لقد انطلق يعدو بين الرمال وتركنى حائرا
.. وعندما صعدت إلى النافذة لاستطلع ما رأى لم أجد شيئا ألبتة ..
كان الشاطئ خاليا كما تراه ... ولم أشك أنه مخول .. وقلت لله فى
خلقه شئون .

— ألم تر شيئا أبدا ؟

— أبدا .. أبدا .

· وضغط توفيق على نواجذه غيظا ودهشة وقال لزكى :

— عجباً !! ما كل هذه الطلاسم ؟! ما الذى دعاه إلى الدخول .. فى

مثل هذه العجالة ؟! وماذا رأى ؟

وسأله زكى وهو يهز رأسه فى حيرة :

— ولكن أوافق أنت أنه هو ؟

— أعتقد هذا .

ثم التفت إلى العجوز متسائلا :

— ما شكله يا حاج ؟

— شاب فى مثل سنك أسود الشعر أميل إلى السمرة ، يرتدى قميصا

وينظروننا .. طويل القامة عريض المنكبين .

وقال توفيق مؤكدا :

— إنه هو .. لاجدال فى ذلك .

ثم وجه السؤال إلى العجوز :

— أكان يمسك فى يده شيئا ؟

— ٢٣٤ —

- شيئا كماذا ؟
— حقيية مثلا .. !
— لا .. لا أظن .. لقد كانت يديه خاليتين .
وبدت على العجوز نظرات الحيرة والتشكك :
— ماذا فعل !؟ ولماذا تبحثون عنه ؟
— لا شيء .. لا شيء مطلقا .
— أنا على أية حال لم أر منه أكثر مما رويت .. لم أره قبل هذا
ولا بعد هذا .. المسألة كلها — كما قلت لكم — لم تستغرق سوى
بضع دقائق .. دخل مندفعًا وخرج مندفعًا دون أن أستطيع إبقائه ولا
مقاومته وأنا رجل عجوز أكاد أجر ساقى .. وليس لى به أى شأن .
وقال توفيق مطمئنا :
— لا تخش شيئا يا حاج ... إننا فقط نحاول الاستقصاء عما فعله
فى هذا الصباح .. ألا تذكر شيئا غير ما قلت ؟
— مطلقا .
وأطرق توفيق برأسه مفكرا ثم قال بعد فترة صمت :
— متشكرين جدا يا حاج ... لقد أتعبتك معنا .
— العفو .. أنا لم أتعب فى شيء .. كنت أود أن أقدم لكم فناجين
من الشاى .
— شاكرين فضلك .. السلام عليكم .
ومد توفيق يده وسلم على العجوز واضعا فى يده بضعة قروش .
وحاول الرجل التمتع ولكن توفيق ألح عليه :
— خذ يا حاج .. لقد أضعنا وقتك وأتعبتك .
وضحك الرجل :
— أما عن وقتى فهو ضائع ضائع ... وأما عن التعب فما أحسست
منه شيئا .. أكثر الله خيرك وزاد فضلك .

وغادر الرجلان الطاحونة وطافا حولها ثم عادا إلى الشاطئ مرة أخرى دون أن يجدا شيئا يسترعى الالتفات .. وأخيرا اتخذ كل منهما مكانه في العربة .

وقال زكى متسائلا وهو يدير العربة وقد وجد توفيقا مغرقا في التفكير :

— فيم تفكر ؟ أتعتقد أن ما رواه الرجل صحيح وأن الشخص الذى دخل عليه هو إبراهيم ؟

— أجل .. أرحح هذا .. لقد كنت واثقا عندما وقع بصرى على الطاحونة أنها لا بد ستوصلنا إلى شيء .. أنى أعتقد تمام الاعتقاد أن هذه الطاحونة أو شيئا حولها .. هو الذى أثار الجذوة الكامنة فى نفسه منذ حادثة مروحة الهواء .. إن هذه الطاحونة بها حل العقدة الأخيرة .. إنها لا بد أن توصلنا إلى شيء .. فلو أعرف ماذا وقع عليه بصره من النافذة .. ما هذا الذى أفزعته ، وجعله يعدو كالصاروخ ... إنه قطعاً لم يره بوجه المصادفة لأن صعوده إلى الطاحونة ، واتجاهه إلى النافذة يعنى .. أنه يعرف أن هناك ما يرقبه .. ترى ما هو ؟ لا بد أن نعرف .

— ولكن كيف ؟

— كيف ...! إنى سأغامر بالتجربة الأخيرة .. وإذا نجحت فسيكون فيها شفاؤه ، سأحاول أن أواجهه بالطاحونة .

وأخذت العربة تنساب فى الطريق مخلفة وراءها الشبح الطويل القائم على الربوة تصفر الريح فى أجنحته وتحيط به الشواهد .. كالطلل البالى ، أو كالنائحة بين القبور .

الفصل الثالث عشر

ليلى الثانية

فى صبيحة اليوم التالى كانت العربـة تعدو مرة أخرى منسابه فى طريق الكورنيش متجهة إلى المنـدرة .

كان زكى يجلس أمام عجلة القيادة وبجواره إبراهيم مطبقا بذراعه على الحقيبة وفى المقعد الخلفى جلس توفيق يرقبه .
كان إبراهيم يجلس فى حذر وهو يتساءل أسفلته الحائرة التى لا تتجاوز شفتيه .

لماذا خرج به صاحبه فى هذه الساعة المبكرة ؟.. لقد قال إنه سيذهب به فى نزهة على الشاطئ .

ولكن من قال إنه يريد أن ينزله !! لقد كان يفضل لو أنه تركه مستريحا آمنا فى حجرته .. ولكنه مع ذلك لم يملك سوى الموافقة والاستسلام .

إن هذه أفضل كثيرا من الاستفسار أو المعارضة .
وكانت العربـة تحتاز الشارع الموصل بين شارع أبو قير والكورنيش ، ولم تكـد تعبر شريط الترام حتى أخذ الطريق فى الانحدار ، رويدا رويدا ، وبدا البحر بأواجه المتكسرة وهديره الجياش .

وأحس إبراهيم برعدة فى جسده .. وتلاحقت أنفاسه .
أف لهذه الزرقة المترامية .. والعباب المخيف ، لشـد ما يحس أنه يكرهها ويخشـاها .

ماذا حدا بصاحبه أن يأتى به إلى هذا المكان المروع ؟

- ٢٣٧ -

ولفت العربية يمنة .. وانسابت فى طريق الشاطئ .. وقد ثبت إبراهيم عينيه على الأمواج المتلاحقة .

وبعد !!؟ أما لهذا البحر الزاخر من نهاية ١؟ إنه يحس منه بما يشبه الغثيان .. إنه يكرهه ... ويخشى هذه الرمال الناعمة التى تكاد تبتلع السائر عليها .

وأحس بأنه يكاد يغيب فى أحلامه المفزعة ، ويوشك أن يعدو هاربا من الأصوات المروعة التى تلاحقه ، أو التى تستغيث به . ووقفت العربية .

حمدا لله .. لقد انتهت الرحلة البغيضة .

ولكن لم يقفان هكذا على الشاطئ ؟ .. أخبرهما أنه يكره البحر ويخشاه !!

ولكن إذا سألاه .. لمه ؟ فماذا يقول ..

أجل .. لماذا يخشاه !! إنه ليس طفلا .

وهبط صاحبه من العربية .. وبدأ له أنه لا بد له من الهبوط كذلك . إلى أين ؟

وأثناء الجواب من صاحبه وهو يفتح له باب العربية ويسأله :

- أتحب أن تنزه قليلا على الشاطئ ؟

وعادت الرعدة تسرى فى بدنه .. وكان بصره مثبتا فى المياه الزرقاء الصاخبة الموج وكأنه لا يستطيع انتزاعه منها .

نزهة على الشاطئ ؟ وفى هذا المكان ؟

لا .. لا .. هذه المرة .. لن يستسلم أبدا .. سيقاوم مقاومة عنيفة ..

لن يتركهم يأخذوه إلى هذه الرمال الفظيعة والأمواج المخيفة .. لا .. لا ..

ووجد نفسه يهتف بحدة وهو يهز رأسه :

- لا .. لا .. أنى أكره البحر .. أكرهه .. لا تأخذونى إليه . وربت

الرجل الآخر كتفه محاولا تهدئته .. وقال فى رفق :

- لا تخف .. لن يأخذك أحد إليه .. دعنا نهبط لنتنزه فى الناحية الأخرى .. ما دمت تكره البحر .

أجل .. هذا أفضل .. أفضل كثيرا .. ومد قدمه فأخرجها من باب العربة وأسندها على الرصيف ثم أحنى رأسه وغادر العربة وكنزه الثمين ما زال تحت إبطه .

ووقف على الرصيف وتنفس الصعداء وهو يدير ظهره للبحر وقد أحس بشيء من الهدوء والراحة .. ولكنه لم يكد يرفع بصره .. ويرى ما أمامه حتى بدت عليه أقصى آيات الرعب والذعر .

هذا المارد المخيف يوشك أن ينقض عليه .. أجل .. أجل .. إنه يبدو مروعا .. بضخامته وارتفاعه وفضاعة منظره ، وهذه المخالب المخيفة المرتفعة التى توشك أن تطبق على أنفاسه وتمزق جسده أربا أربا .

وهذا النواح المخيف .. الذى لا ينفك يصدر من جوفه كأنه نواح الضحايا الذين افترسهم .

لا .. لا .. أبعدوه .. إنه لا يحتمل .. الغوث .. النجدة .. الرحمة .

وأمسك الرجلان به من ذراعيه وهو يوشك أن يتهاولى إلى الأرض .

وأخذوا يسيران به تجاه الطاحونة وهويحاول التملص .. بكل ما يملك من قوى خائفة .. وجسد منهك وأعصاب محطمة .

ووصلوا إلى الباب فطرقه زكى بقبضته ، ولكن توفيق لم ينتظر حتى يفتح العجوز بل دفعه بقدمه فانفتح وانفتح الثلاثة إلى الداخل ، وإبراهيم قد تصبب منه العرق بغزارة وعلى وجهه شحوب مخيف .

وصاح توفيق بالرجل العجوز فى عجلة :

- يا حاج .. سنصعد بعد إذنك إلى أعلى .. لا تؤاخذنا فى هذا الإزعاج ، ولكن المسألة يتوقف عليها شفاء مريض .

وصعد الرجلان السلم الضيق المتآكل وهما يكادان بحملان

— ٢٣٩ —

إبراهيم .. الذى تناقلت أقدامه وأحس كأنه يجير بهما أكياسا من الرمال .
هذا المكان مخيف .. مخيف جدا .. إنه يحس كأن به شبحا يطبق
على عنقه ويخمد أنفاسه .

أما من غيث !! أما من منجد !
وأخيرا وصلا إلى الطابق العلوى .. ومد توفيق يده فجذب صندوقا
وضعه بجوار النافذة المطلة على الشاطئ . ثم تعاون مع زكى على وضع
إبراهيم فوقه .

وأحس إبراهيم بريح رطبة تلفح وجهه واستنشق منها شهيقا ملأ به
صدره وشعر ببعض الانتعاش .. وخف عنه ذلك الحمل الذى كان يجثم
فوق صدره ويطبق على أنفاسه وأخذت الأشباح التى تكاثرت عليه
تتباعد رويدا رويدا .

وأدار وجهه إلى النافذة .. وألقى ببصره على ما وراءها .
وفجأة ندت عنه صرخة عنيفة تجاوزت صداها جدران الطاحونة ثم
وثب من مكانه وثبة عنيفة وهم بالاندفاع هابطا إلى أسفل .. ولكن
توفيق كان أسرع منه حركة فحال بينه وبين الهبوط وتعاون مع زكى
على إعادته إلى مكانه .

وحاول إبراهيم التخلص وهو يصيح :
— لا بد لى من اللحاق بها .. لا بد أن أحدثها قبل أن تذهب .
وأخذ ينظر حوله فى ذهول ودهشة :
أجل .. أجل .. لا بد أن ينطلق فى إثرها قبل أن تتحرك العربة .
ولكن أين العربة ؟ وأين هى ؟

أم تراه فى أحد أحلامه المزعجة !
أجل .. لا شك فى هذا .. ولكن من هؤلاء ؟ ومن أحضرهم فى
حلمه !.. لعلهما صاحباه .
ولكن ماله بهما .. إنها هى التى يهيم أمرها .. يجب أن يعدو إليها .

— ٢٤٠ —

وهمّ مرة أخرى بالنهوض ، ولكن توفيق كان يمسك بذراعه جيدا .
وعاد يحدق من النافذة .. فى الأمواج المتلاطمة .. والرمال
المنبسطة ، وأحس كأن رأسه يوشك أن ينفجر ، ووضع يده عليه وأخذ
يضغط جبينه عله يوقف ذلك الانفجار ، الذى خلط كل شيء ، برأسه
وجعل كل المراثيات تتشابك وتتداخل كأنه واقع فى دوامة .. أو كأن
المروحة قد أطبقت عليه بذراعيها وأخذت تدور به .
وأخيرا بدأت الحركة تخف ، والدوامة تهدأ ، والمروحة تتوقف ..
رويدا .. رويدا .. بدأ ينجلى كل شيء .

إنه هنا .. فى نفس المكان الذى كان به آخر مرة .. هذه هى
الطاحونة المشثومة بعروقها البالية ، وتروسها المتأكلة ، ورحاها
المحطمة ، ومنظرها الكيب الموحش .. وهذا هو نفس المنظر الذى
أبصره من النافذة .. الأعشاب الشائكة ، والقبور المهدمة والطريق ،
والرمال ، والأمواج المتلاطمة .

وهذا هو زكى .. ماذا أحضره إلى هنا ؟ بل ماذا جاء به هو نفسه
إلى الطاحونة ثانية ؟ إنه لا يذكر كيف أتى .. ولا يذكر أيضا هذا
الرجل الجالس بجواره ذى العوينات الذى يرتب ساقه برفق ويقول له
مترفقا :

— كيف الحال الآن ؟

كيف الحال ؟ .. إنه يشعر بانهياء شديد .. أعصاب محطمة
وأعضاء مهدمة ، وقوى خائرة ، ورأس مجهود متعب .

ولكنه لم يملك إلا أن يقول فى ضعف شديد :

— الحمد لله .

وسأله الرجل :

— ماذا أخافك من النافذة ؟ من الذى كنت تريد اللحاق بها ؟

- ٢٤١ -

وتذكر ما أخافه من النافذة .. وأصابته قشعريرة شديدة . وأخفى عينيه براحته وقال :

- لا فائدة .. لا فائدة هناك .. لقد انتهى كل شيء .. لقد ذهبت بلا عودة .

- من هي ؟!

وأجاب إبراهيم فى شبه همس :

- ليلي .

- من تكون ليلي ؟ ليلي أختك ؟

ورفع إبراهيم حاجبيه فى دهشة شديدة ثم قال فى حزن :

- من أدراك بليلى أختى ! إنها ذهبت منذ زمن طويل .

- إذن من تقصد بليلى ؟

- ليلي الثانية .. ليلي المسكينة .

ثم أطلق زفرة حارة وعاد يخفى وجهه بكفه ، وقال توفيق مهدئا :

- لا داعى لهذا .. قص على ما حدث ... أتذكره جيدا ؟

- أذكره بالطبع .. ولكن لماذا تريد أن تعرف ؟.

وأجاب زكى :

- يريد أن يعرف من أجلك .. إنه الدكتور توفيق الذى يتولى

علاجك بعد أن أصبت بالصدمة التى أصبت بها .. قص عليه يا إبراهيم

كل شيء وثق به .

وتنهذ إبراهيم .. وشرد ببصره من النافذة وأخذ يقص القصة فى

صوت خفيض متهدج :

« كنت أسير على الشاطئ ، كعادتى كل صباح ، وطال بى السير

وأنا أبصر المكان من حولى خاليا ، والشاطئ على طوله لا يكاد يطرقه

أحد سوى ، وكنت أشعر أن هذه الزرقة الجياشة والصفرة المترامية قد

باتت كلها ملكا لى وأنى أتزده فى أملاكى الخاصة .

وبهذا الأحساس العجيب والنشاط الذى يملأ جسدى والقوة التى تتدفق فيه .. أخذت أقطع الطريق فى نشوة والوقت ربيع ونسيم البحر يملأ جوانحي والشمس ما زالت مختفية وراء المشرق تحاول جاهدة البروغ من وراء البيوت المتناثرة على الشاطئ .

وفجأة .. ووسط هذا الفراغ الطويل العريض وجدت من بشاركنى فى أملاكى الخاصة .. ووجدتنى أتوقف على حاجز الشاطئ لأرقب هذا المخلوق العجيب الجالس وحده فى هذا الخلاء .

وأخذت أحملق فى عجب شديد ، والسكون قد ران من حولى إلا من حفيف الموج المنبسط على الرمال ، الموجة تلو الموجة . ووجدت بصرى قد لصق بها لا يبغى عنها حولا كأى بها شيئا عجيبا .. لست أدرى ماكنه .. يشدنى إليها .

قد تكون وحدتها فى ذلك الفراغ العريض والوقت المبكر . أو تكون رقتها البادية من هيلكها النحيل ووجهها الدقيق .. أو يكون .. أكثر من هذا وذاك .. ذلك الشبه العجيب الذى وجدته بينها وبين مخلوقة عزيزة على فقدتها وهى طفلة منذ أمد بعيد .

ووقفت أتأملها دون أن تشعر وقد جلست على الشاطئ تتشاغل بإبرتين طويلتين فى يدها ولقافة من الصوف على حجرها .. وقد ارتدت ثوبا بدا فضفاضا حول جسدها النحيل ولفت حول رأسها « إيشارب » من الحرير .

وعلى حين غرة .. أطار هبة من ريح البحر « الإيشارب » الذى يلف رأسها .. وشعرها الذهبى ، وانطلق المنديل يعدو والريح تطارده فوق الرمال ، وبغير إرادة منى ووجدتنى أقفز الحاجز وأعدو فى الرمال ، أسابق الريح وراء المنديل المنطلق .

— ٢٤٣ —

وأخيرا أمسكت به واستدردت عائدا ليقع بصرى عليها تنظر فى ابتسامة .. دهشة من هذا المخلوق الذى انبعث من باطن الأرض ليحضر لها المنديل .

ووقفت أمامها أمد يدي بالمنديل فتناولته وهى تتمتم فى استحياء :
— متشكرة جدا .

— العفو .

وانعقد لسانى فلم يسعنى بأكثر من هذا .. وحاولت أن أطيل الحديث فقد كانت بى رغبة خفية فى الحديث إليها ، ولكن حياءها الطبيعى .. وحيائى الطارئ ، جعل الموقف ينتهى عند هذا الحد ... ووجدتنى برغى أشير إليها برأسى ثم أنصرف عائدا إلى الطريق .

وفى تلك الليلة ... وجدت صورتها تعاودنى مرة أو مرتين .. برأسها الجميل المطرق فى استحياء .. ويديها متشاغلتن بالإبرتين الطويلتين .. وفى كل مرة تطوف صورتها فى ذهنى تلاحقها صورة أخرى ، باهتة حائلة ، كاد الزمن يطمس معالمها ويخفى قسماتها .. هى صورة ليلى الصغيرة .

وفى اليوم التالى .. كنت أقف وقفة الأمس .. وأنا أرنو إليها ببصرى دون أن أحرؤ على التقدم إليها .. أو مبادأتها بالحديث .

ومرة ثانية .. وجدت الريح قد كفتنى متونة التمنى والتطلع . وبهبة منها .. منحتنى فرصة أخرى .. كان على ألا أتركها تغلت .

لم يكن المنديل هذه المرة هو الذى أطارته الريح .. بل كانت ورقة من كتاب انهمكت فى قراءته .. وسواء عندى أكان المنديل .. أم ورقة .. اندفعت مرة أخرى أسابق الريح فى مطاردة الصيد الثمين .. وسرعان ما أطبقت على الورقة الهاربة لأعيدها إلى قواعدها المستقرة على حجر الساحرة .

— ٢٤٤ —

ووقفت أمد يدي بالورقة . وابتسمت هي وقد تملكها استحياء
أشد .. وأجابتنى بصوت هامس :

— متشكرة جدا .

وبرغم أنه كان يجب على أن أحذر رد البارحة الذى يختم
الحديث فقد وجدتنى أتورط فيه قائلاً فى ارتباك :

— العفو يا أفندم .

وكاد الحديث ينقطع والصمت يخيم بحيث لا أجد لى مفراً من
الانصراف . ولكنها .. كانت أسرع منى وأقدر على وصل ما انقطع
فقالت متممة :

— متأسفة جدا .. إنى أتعبتك مرة أخرى .. واضطرتك إلى الجرى .

ثم أردفت قائلة وقد علت وجهها ابتسامة حلوة :

— ولكن ما حيلتى ؟! تأبى الرياح إلا المعاكسة عند مجيئك .

ووجدت باب الحديث قد فتح ، والكلفة قد أزيلت ، والمزاح
مستطاعاً ، فقلت ضاحكاً :

— ليس لى إلا أن أشكر فضلها .. لأنها منحتنى فرصة طيبة .

— إذأ فأنتما على اتفاق ؟

— أنا والرياح ؟! يا ليت .

— يا ليت ماذا ؟! أيهمك أن تتفق مع الرياح ؟

— ومن الذى لا يهमे هذا ؟! ألا يكون الإنسان مع الرياح أفضل من

أن يكون ضدها .. على الأقل يضمن ألا تأتى بما لا تشتهى السفن !

وزادت ابتسامتها وقالت فى جدل :

— وماذا تشتهى السفن ؟.

— أمنيات كثيرة .

— مثل .

- ٢٤٥ -

- أنظن أول ما تشتهييه ، هو أن تجلس قليلا ، أغنى ترسو على الشاطئ برهة .

- وماذا يمنعها ؟

- تخشى أن تعصف بها الرياح وتطردها شر طردة .

- لو كانت عاقلة .. لرست برهة ثم سارت قبل أن تعصف بها الرياح .

وضحكت .. واعتبرت قولها إذنا بالجلوس برهة .. وهبطت إلى الرمال بجوارها .. وأخذت أتحدث معها متطلعا إليها فى نوع من الشغف .

وتحدثنا حديثا عابرا .. عن البحر والهواء ، وأشياء أخرى تافهة لا أذكرها حتى بدأت أحس منها قلقا .. وتذكرت نصيحتها .. فنهضت واقفا ومددت يدي أصافحها قائلا :

- لقد آن للسفن أن تسير .. فإن الريح توشك أن تهب .

وعلت ضحككتها وهى تشد على يدي قائلة :

- إنها سفن مطيعه طيبة .. مع السلامة .

وعدت إلى الدار وبى نشوة .. ولكنها نشوة غير خالصة .. بل يشوبها كثير من قلق وخشية .. قلق مبعثه وخزات متتابعة من الضمير .. وخشية منشؤها الإحساس بأن التوازن يكاد أن يضيع والاستقرار يوشك أن يذهب .

وألحت صورتها على أكثر من الليلة السابقة ، وكانت هذه المرة تلاحق صورتها صورة ليلي الصغيرة ، وصورة ثلاثة تلاحق الصورتين .. هى صورة راجية .

لقد بدأ النضال .. وبدأت الموازنة .. وكان على أن أستوضح النفس ما تخفى من أمرها ، وأسألها ما مرادها ؟

— ٢٤٦ —

ورحت أؤكد لنفسى أنى أحب راجية .. أحبها أكثر مما أحب أى شىء فى هذه الحياة .. بل أكثر من الحياة نفسها ، وأن أرض حبنا أثبت من أن تهزها هزة يسيرة طارئة ، وأن شجرته أصلب من أن تعصف بها نسمة خفيفة عابرة .

ورحت أوقف وخز الضمير بجزمى أن المسألة لا تستدعى كل هذا القلق .. وأن من الغباء أن أخشى على راجية من لقاء عابر لفتاة لا أعرف شيئا عنها .. حتى اسمها .

وذهبت إلى راجية ... لأؤكد لنفسى وفائى لها .. وتناجينا تلك الليلة بأعذب المناجاة وأرق الحديث .

وفى الصباح التالى .. وبغير إرادة ولا تفكير ، كنت أجلس على الرمال أمام الساحرة الرقيقة الشقراء .. بلا انتظار معونة من الريح ، أو إذن منها .

وفى هذه المرة .. لم أشعر بجهد فى خلق الحديث ... لقد زالت الكلفة .. وأقبل كل منا على صاحبه إقبال صديق حميم .

ولم أستطع أن أمنع رجفة سرت فى أوصالى عندما علمت منها أن اسمها ليلى .. ولم أستطع أن أمنع نفسى كذلك من استعادة صورة ليلى الصغيرة .. هاوية من عل .. مسجاة على الرمال .

وسرعان ما طردت الشبح البائد والصورة الغابرة وأقبلت على ليلى أقول مازحا :

- أتستطيع السفن أن ترسو على الشاطئ كل صباح ؟
- الشاطئ ممتد ، وحرية الرسو مكفولة .
- أقصد .. أن ترسو على هذه الميناء ذاتها ؟
- هذه الميناء ذاتها ؟ ولمه ؟
- لأنها أكثر ملاءمة .
- إذا كان الأمر كذلك فلا بأس من رسوها .. ولكن لفترة قصيرة .

— ٢٤٧ —

- وإذا أطالت ؟
- تأتى الرياح بما لا تشتهي السفن .. وتطردها شر طردة .
- لا .. لا .. لا داعى لذلك .. إنها سترحل بمجرد أن تحس من
الرياح أول هبة .
- اتفقنا إذا ؟
- أجل .
- وهكذا اتفقنا على لقاء دائم يستمر حتى أرى منها قلعا فأرحل .
- ووجدت فى يدها كتابا سميكا فسألتها :
- أهذا هو كتاب الأمس الذى أطارته الريح ؟
- أحل إن الكتاب كبير والغلاف رقيق ولذلك يتفكك ورقه
بسهولة .
- أأستعد إذا للعدو ؟
- لا .. اطمئن .. إنى أمسك به جيدا .
- ما موضوعه ؟
- إنه قصة طويلة .
- أعجبتك ؟
- لم أتمها بعد .. ولكنى كنت منذ لحظة أقرا فى قطعة لطيفة
أعجبتنى .
- عن أى شىء ؟
- إنها حديث على لسان بطلة القصة .. تصف أول شعور لها
بالحب .
- أأستطيع سماعها ؟
- ومدت يدها إلى الكتاب وقد فتحته على صفحة معينة وأشارت
بأصبعها قائلة :
- هنا .. أول هذه الصفحة .. خذ اقرا .

— ٢٤٨ —

— ولم لا تقرئين أنت ؟! أنى أحب أن أسمعها منك .
وعلا وجهها احمرار وأصابعها ارتباك وقالت متلعثمة :
— أنا .. أقرؤها .. أنا ؟
— أحل .. ولم لا ؟! ألا تعرفين القراءة ؟
— أعرفها .. ولكن لا أظننى أجيد المطالعة .. لئنى أخطئ دائما فى التشكيل .

— وأنا لا أفهم فيه .
— إذا كان الأمر كذلك .. فسأقرأ لك .
وأمسكت بالكتاب .. وما زال بوجهها حمرة الخجل ، ووجدتها تبلى شفيتها بطرف لسانها ثم تبدأ القراءة :
« وأحسست وأنا أأحدق فى الأفق بحثين إلى شىء مجهول . وبدا لى كأنى شىء ناقص .. ما زال له بقية .. هنا أو هناك ، وإنى أتلهف على بقيتى .. وخيل إلى أنها تحوم حولى .. أو أحوم حولها .. وأنها تتوق إلىّ كما أتوق إليها .. وأن كلا منا سيظل يلهث فى الحياة ويخبط حتى نلتقى فنصبح شيئا تاما كاملا .. قائما بذاته » .
وصمتت فترة .. وخيل إلىّ أنى أسمع صوت أنفاسها المتلاحقة .
ورفعت عينيها عن الكتاب فالتفت بعينى وسألت قائلة :
— ما رأيك ؟

— مذهش .
— أتود أن أكمل ؟
— بالطبع .
وعادت تتم القراءة فى صوتها الرقيق المتهدج :
« ولم أحاول أن أحدد لنفسى أى شكل خلقت بقيتى ، وعلى أية صورة كونت ، ولا حاولت أن أقرب بها من الحقيقة فأجسدها على هيئة معينة ، وألبسها لمخلوق بالذات فقد كنت أجن عن ذلك . كنت

— ٢٤٩ —

أفضل أن أبقى هائمة وأن أقول لنفسي إن هذه أوهام وأحلام ، على أن أعترف لها بأني — ببساطة — أسعى إلى الحب .. وأن هذه البقية التي أتوق إليها .. إنسان حى كائن .. أشعر به يقترب من محيط حياتي ويطرق باب قلبي » .

وصمت مرة أخرى .. وسقط الكتاب على حجرها وهى تشرد ببصرها بعيدا فيما وراء الأفق والبحر الرجراج .

وبدأت أتأملها وقد رق منى الحس وأرهف الشعور وأخذت أرقب طاقتي أنفها الدقيقتين تنفرجان برقة والهواء يندفع إليهما وصدرها يعلو ويهبط .. وأحسست برغبة جارفة فى أن أضمها إلى .

وتمالكت نفسي .. وقلت أخرجها من صمتها وأوقفها من سباتها :
— وبعد ؟

وانتفضت انتفاضة خفية وقالت لى متسائلة :

— وبعد ماذا ؟

— وبعد ما خشيت أن تعترفى بأنك تشعرين به ويقترب من محيط

حياتك ويطرق باب قلبك ؟

— من هو ؟

— المجهول المنتظر .

— يطرق قلبي أنا ؟

— قلب من إذا ؟ .

— بطلة القصة .. إنها هى التى تقول .. ولست أنا .

— بطلة القصة ؟ .. أجل .. أجل ..

وصمت برهة وعدت أقول وأنا أبتسم معتذرا :

— لست أدري ما الذى جعلنى أتوهم أنك تتحدثين عن نفسك ..

وأنك أنت بطلة القصة .. على أية حال .. إن الحديث يمكن أن ينطبق

على أكثر من واحدة .. ألم تشعرى أحيانا وأنت تقرئين بعض الكتب أن الكاتب يكاد يعبر عن إحساسك أنت وكأنه يعبر عن كل ما فى قلبك ؟
- قد يحدث ذلك .. ولكن فى هذه الحالة ذاتها .. لا أظن .

- ولم ؟ .. أترين السبب لأن المجهول المنتظر قد طرق الباب ودخل ؟ .. أعنى أنه لم يعد منتظرا ولا مجهولا ؟
- أيضا .. لا .

- غير معقول .

- ولماذا ؟

- لأن القلب المرهف - العاير بالإحساسات كالحديقة الغناء العامرة بالأزهار والرياحين لا يمكن أن تظل مغلقة دون أن يطرق بابها أحد ليمتع بما فيها .
- وإذا كان الباب مغلقا فمن أين للطارق أن يعرف أنها عامرة بالأزهار ؟

- هبات النسيم تحمل إليه العبير .

- وإذا كانت الحديقة بعيدة .. ونائية .. لا يقربها طارق ولا يغشاها عابر .. والنسيم الذى يمر بها لا يمر بغيرها .. أو هو يفقد العبير على بعد الشقة وطول الرحيل .. إذا كانت الحديقة بريّة تعودت الوحشة والوحدة والعزلة ، واكتفت بصادح الطير .. وهاتف الورق الذى يهتف فى جوانحها .. ويصدح بين أغصانها .. أليس من الخير أن تكفى نفسها مثونة التمنى والانتظار ؟!

وبدأ لى من حديثها مرارة كثيرة .. وأحسست أن جوانحها تنطوى على شيء .

وأطرقت فى حيرة لأدري ماذا أقول .. وما لبثت أن رفعت إليها بصرى قائلا :

- ولكن الحديقة لا تبدو أنها كما تقولين .

- ٢٥١ -

وتساءلت فى لهفة :

- كيف ؟

- أعنى أنى أكاد أبصر أزهارها المتفتحة وأشم عيبرها العطر الفواح .

وقالت فى صوت ذائب :

- من هى ؟

وتملكنى الاضطراب وقلت فى لهجة متلعثمة :

- هى .. أقصد .. أقصد .. الحديقة البرية .

وضحكت فى جذل وقالت :

- إنها خيالات وأوهام .. أنت لاتدرى عنها شيئا .. إنها ما زالت

عنك بعيدة نائية .

- بل أعرف عنها الكثير .

- ماذا تعرف عنها ؟

- أعرف عنها .. بريتها واستيحاشها .. وعزلتها .. وأحس فى

باطنها اكتئابا وحزنا وظلمة لست أدرى كنهها ولا مبعثها .. وإن

كانت بنفسى لهفة على إزالتها .. وعلى أضواء تلك الظلمات التى

تكتنف أرجاءها ، وتبديد السحب المعتمة التى تخيم فى أنحائها .

- وما ذنبك أنت تجهد نفسك فى المستوحش النائي ؟

- ليس أقرب إلى قلبي من نائيتها .. ولا أعمر من مستوحشها .. ولا

أينع وأزهر من بريتها .. إني أحس بشيء بشدنى إليها .

وهمست فى لهجة تكاد من الوجد تذوب :

- حقا تقول ؟

- والذى نفسى بيده .. ما أقول ألا أقلّ الحق .

ومددت يدي فأمسكت بيدها . ووقع نظرها على الساعة فى يدها

الممتدة فسحبته بسرعة وقالت فى قلق شديد :

— ٢٥٢ —

— لقد سرقنا الوقت .. أرجوك أن تتفضل .. لقد تحدثنا أكثر من اللازم .

وأصابني من قولها عجب شديد ، ولم أدر هناك ما يوجب هذا القلق المفاجئ .. ولا التعجل في صرفي عنها وهي في ذروة شعورها .
وقلت لها أتساءل في دهشة :

— ولكن .. ماذا يدعو إلى مثل هذه العجلة ؟

وقالت وقد ازداد بها القلق :

— أرجوك .. لقد اتفقنا من أول الأمر على أن تنصرف عندما أطلب منك ذلك .

وبرغم لهفتي إلى مزيد من صحبتها لم أرغب أن أسبب لها ضيقا أو قلقا .. ونهضت توا ومددت يدي مصافحا وانصرفت قائلا :

— هنا .. غدا !؟

وهزت رأسها قائلة :

— أجل .

وعدت إلى البيت وبنفسي خشية أكثر وقلق أشد .. كنت برغم كل ما حدث لا أكاد أعود إلى البيت حتى أشعر بمدى حبي لراجية .. وكانت كلما ازدادت نشوتي من الناحية الأخرى ازداد بي القلق وازدادت الخشية وازداد التصميم على إنهاء العلاقة الطارئة .. وأن أقي من شرها .. علاقتي الأصيلة الباقية براجية .. حبيبة الروح .. ومنية النفس .. ولكنني كنت أشبه بمتعاطي المخدر الذي لا يكاد يفيق حتى يقرع ضميره الندم ، ويحس بمدى تورطه وخطئه وانحرافه عن الطريق السوي .. ووجوب إقلاعه عن عادته الشائنة فلماذا ما حان موعد تعاطيه .. أقبل عليه بلا تفكير ولا إرادة .

وكان ما بيننا قد أضحي موعدا .. لا لقاء عابرا ولا وليد صدفة .

- ٢٥٣ -

و كنت إذا ما حان الموعد أسير إلى الشاطئ .. كمد من الخمر ..
يقصد الحان .. تحركه قدماءه .. بلا وعى ولا حول ولا قوة .
وهكذا أضحى لقاء الشاطئ من ضروريات حياتي .. وأحس كل منا
أنه يندفع نحو الآخر بسرعة الصاروخ .

كان يشدني إليها حزن يفيض بنفسها من ينبوع لا أدرك كنهه ولا
علته .. وكانت بنفسى لهفة على أن أمسح بيدي جبينها وأتحسس
شعرها وأزيل أكداس الحزن الراسبة في أعماق نفسها .. وكان أكثر ما
يمتدنى .. أنى أصبحت على ذلك قديرا .. وأنى بت أحمل إليها
بلقائى فرحة و متعة .. وأن سحب الحزن أخذت تتبدد .. وبريق عينيها
قد لمع بعد خبو .. وأضاء بعد ظلمة .

لقد تغير ما بنفسها عدا شىء واحد .. كان يملؤنى ضيقا وقلقا
وحيرة .. وهو إصرارها العجيب على أن أنصرف فى الموعد المحدد .
وعلى ألا أعرف عنها شيئا .

وبدأ الشك يساورنى ، والريب تلح على نفسى .. وأحسست بنوع
من الغيرة الغامضة .. من مجهول يقطع على لقائى .. ويجعل منى
مسألة تتسلى بها إلى حين عودته .

و ذات صباح أقبلت عليها وقد حملت فى جيبى جهاز إذاعة صغيرا
فى مثل حجم الكف .. وجلست أمامها متسائلا وأنا أمسك الصندوق
الصغير بين كفى :

— ماذا تظنين هذا ؟

— عليه سجنائر ؟

— لا .

— علبة شيكولاتة ؟

— لا .. ليس شيئا يؤكل ولا يشرب .

وفكرت برهة ثم قالت ضاحكة :

— ٢٥٤ —

- علبة زينة ؟
- ولا هذا أيضا .
- قل أنت .. لقد غلب حمارى .
- أغمضى عينيك .
- وكيف أراها إذا ؟
- قلت لك أغمضى عينيك .
- ها قد أغمضت .
- وعندما أغمضت عينيها بدأت أدير الجهاز .. وكنت أعلم أن بعض
ألحاني تذاع فى هذا الصباح .. وعندما علا اللحن فتحت عينيها
وتساءلت فى دهشة :
- ما هذا ؟
- راديو .
- راديو بهذا الحجم ؟
- ما رأيك فيه ؟
- وتناولت الجهاز وأخذت تفحصه قائلة :
- مدهش !
- ثم أدارت المفتاح مغلقة الجهاز .
- وقلت متسائلا :
- لماذا أقفلته ؟
- دعنا نتحدث .. الوقت أضيق من أن يشغلنا فيه عن أنفسينا
- ثالث .. حدثني عن نفسك .
- نفسى أنا .. لست أجد فيها ما يستحق الحديث .. حدثيني أنت
- عن نفسك .. اكشفى الغطاء عن شخصيتك المغلقة المحاطة بالأسوار
- .. النائبة فى عزلتها الموحشة .. دعينا نتشارك فى الوحدة والظلمة .

— ٢٥٥ —

وأطرقت برأسها وخيمت على وجهها سحابة هم وأجابت فى صوت خفيض :

— لا داعى لهذا .. دع الصدر مطبقا على ما فيه .. والنفس منطوية على خباياها .. دع عنك نفسى .. وقل لى عن نفسك .. من أنت ؟ وماذا تعمل ؟ وكيف تعيش ؟
— من أنا ؟ أنا .. أنا ..

وعبث أصبعى بمفتاح الراديو فعاد ينبعث منه اللحن وقلت وأنا أنصت إليه :

— أنا .. أنا .. هذا .

— أنا اللحن .. واللحن أنا .. هذا قطعة منى .

— أتعنى أنك موسيقار ؟

— أجل !

— عجبا ! لم تكن لدى أقل فكرة .. وهل هذا لحنك ؟

وأخذت تنصت مرهقة سمعها .

وأشرت برأسى ... نعم .

وانفرجت أساريرها وبدا عليها طرب شديد . وعندما انتهى اللحن سألتها .

— أأعجبك ؟

— جدا .

— ولكنه لم يعجبك فى أول الأمر .

— أجل .. لأنى لم آبه له .. كلحن مجهول .. وفضلت عليه الحديث

إليك .. لأنه أحب إلى نفسى من أى لحن .. فلما علمت أنه لحنك ..

أطربنى كشيء صادر عنك ، أو كما قلت أنت « كقطعة منك » .

أعلمت السبب فى تغيير رأى ؟ إنه أنت .

- ٢٥٦ -

- وأحسست بنشوة .. وأنا أشعر أول مرة .. أن شخصى المجرد قد . بات صاحب فضل على شخصى العبرى .
- وعادت الشقراء الرقيقة تتساءل :
- وماذا تفعل الآن ؟
- أضع مجموعة ألحان لأوبرا جديدة .. لا أكاد أفرغ منها لحظة واحدة .. وعندما أتعب من التلحين .. ألجأ إلى القراءة .
- أقرأ كثيراً ؟
- قدر ما أستطيع .
- وماذا تقرأ الآن ؟
- آخر ما قرأت .. رواية لكاتب نمسوى ... اسمه ستيفن زفيج .
- لا أذكر أنى قرأت له من قبل .. ما اسمها ؟
- « حذار من الشفقة » .
- أعجبتك ؟
- جداً .
- ما موضوعها ؟
- إنها مأساة عاطفية تتلخص فى أن أحد الأثرياء يعيش فى قصره الريفى مع ابنته المقعدة المصابة بشلل الأطفال والتى يئس الأطباء من علاجها ، وفى نفس البلدة تهبط كتيبة من الفرسان ويتعرف أحد ضباطها بالفتاة المقعدة فى إحدى الحفلات ، ويتدرد الضابط على القصر بعد ذاك لتمضية وقت طيب فى البلدة التى يسودها الملل ، ويشجعه الأب الثرى الذى أحس من وجوده سعادة لابنته ، فتعلق به الفتاة ، وتزداد العلاقة بينهما حتى يجد نفسه قد تورط فى خطبتها بدافع الشفقة ، ثم يتبين أنه لا يكن لها أية عاطفة من الحب ، وأنه سيدمر حياته بأن يقيد نفسه إلى الفتاة المشلولة مدى عمره .. وينتهى به الأمر بأن يغادر البلدة هاجرا الفتاة .. ويوخزهُ الندم بعد هذا فيصمم على

— ٢٥٧ —

العودة إليها .. ولكن عند عودته يجد الفتاة قد ألقت بنفسها من فوق
هاوية تطل عليها إحدى شرفات القصر بالزحف بعربتها ذات العجل ،
منتهرة فرصة وحدتها وقضت على نفسها .

و كنت أقص القصه فى غير اكتراث وأنا أعبت بسلسلة المفاتيح تارة
وبالراديو تارة أخرى . وعندما انتهيت منها ورفعت بصرى إليها فراعنى
شحوب شديد فى وجهها ووجدتها قد أغمضت عينيها كأنها تعاني ألما
شديدا .. ولم أملك نفسى من الصباح مرتاعا وأمسكت بيدها أجسها
ضاغطا وقلت لها فى فزع :
— ليلي .. ماذا بك ؟

وحاولت جهدها أن تماسك ، وضغطت على يدى بكل ما
استطاعت من قوى خائفة .. كأنما تخشى أن تنهاوى وباليه الأخرى
أسندت رأسها ومسحت جبينها .. وبدا لى أنها على وشك الإغماء .
وعدت أسألها مضطربا :

— ماذا بك ؟! بم تشعرين ؟!

وأجابت فى صوت خافت :

— لا شىء . لقد أصابنى غشيان ، ولكنى الآن أحسن .

— أسبق لك أن أصبت به من قبل ؟

— أجل .. أحيانا .

— ولكن يجب أن تعالجي نفسك جيدا !!

وأجابت وهى تحاول جاهدة أن تستعيد حالتها وتسترجع قواها :

— إنها مسألة عارضة هينة .. سرعان ما تزول .. لا تقلق نفسك من

أجلى .

وعلت شفيتها ابتسامة باهتة ورفعت عينيها إلى الأفق البعيد حيث
تلاصقت السحب بالأمواج .. وأخذت شهيقا طويلا .. ورويدا رويدا

(فديتك يا ليلي)

— ٢٥٨ —

بدأت تستعيد قواها .. أو هكذا خيل إلىّ وكنت أنظر إليها فى إشفاق صامت .. وقد شرد ذهنها بعيدا .

وحاولت أن أقطع الصمت لأستعيدها من شرودها فقلت معلقا على حديثي الأول :

— قصة لطيفة .. وإن كانت خاتمتها قاسية .. ألا ترين ذلك ؟
— أجل .

وكان ردها مقتضبا .. وأوشكت سحب أن تخيم مرة أخرى ..
ولكنى عدت أدفع الحديث دفعا :

— ولكن ما رأيك فى البطلة ؟
— من حيث ؟

— إقدامها على الحب أولا ، ثم إقدامها على الانتحار ثانيا ؟
وكنت أقول الحديث لمجرد الحديث .. وكانت تجيب لمجرد الإجابة .. وبدا الجو حولنا فاترا راكدا .. أنا لا أكاد أجد ما أقول .. وهى لا تجيب أكثر من إجابة مقتضبة لا تتفق بسبب للحديث .. ثم تعود إلى شرودها وذ هولها .

وعادت تجيب إجابتها المقتضية بقولها متسائلة :
— ما رأيك أنت ؟

ووجدت أنها زاهدة فى الحديث وأنها تلقى على عبقه .. فاسترسلت فيه مبديا رأى .. مجرد ترثرة لا أكثر ولا أقل فلا إخالنى كنت مهتما بالبطلة إلى هذا الحد .. حد انتقاد حالتها وتحليل نفسييتها .. وماذا فعلت .. وماذا كان يجب أن تفعل .
قلت مثرثرا :

— كل خطأ يرتكبه الإنسان فى هذه الحياة .. لا بد أن يتحمل عواقبه .. وكل متعة يحاول أن يأخذها الإنسان أكثر من حقه .. لا بد أن يردها عذابا وألما ... ولقد أخطأت الفتاة فى أول الأمر .. بأنها

تطلعت إلى أكثر من حقها .. فكان عليها أن تتحمل بعد ذلك نتيجة خطيئتها .. إما عاجلا .. أو آجلا ... إما بصدمة سريعة .. أو بعذاب بطيء . ولقد اختارت الطريق الأقصر والأسهل . فقضت على نفسها وتخلصت من كل ما أصابها .. وما يمكن أن يصيبها من آلام .. ولو لم تختَر هذه النهاية العاجلة .. لكان عليها أن تواجه مصيرا مريرا وحياة مضنية .. مليئة بالحرمان واليأس والآلام . حتى على أفضل الفروض .. لو أن صاحبها قد أقدم على زواجها .. فلا أظن حياتها يمكن أن تكون أسعد من حياة الحرمان .. إن دافع الشفقة لا يستمر طويلا .. وستجد نفسها عبئا ثقيلا على زوجها ... وهو إنسان له حق الحياة .. وحق المتعة .. فلما أن يكون وفيها لها فتفسد عليه حياته .. ولما أن يهجرها فتفسد حياتها هي .. إن لآمال الإنسان ومطامعه في هذه الحياة حدودا يجب ألا تتجاوزها .. حتى تكون محتملة التحقيق ولا يكون اليأس المحتم مصيرها ومنتهأها .

لست أدري إلى متى كنت أنوى الاسترسال في ثرثرتي محاولا أن أبعث في نفسها بعض التسلية وانتشلها من هذا الصمت الثقيل والشروذ البغيض .. حتى وجدتها قد نظرت إلى الساعة وانتفضت فجأة كأنما قد أيقظتها من سباتها هزة عنيفة وقالت لي في عجلة وقلق :

— أرجوك .. تفضل .. بسرعة .. أرجوك .

وكرهت طريقته في صرفي .. وعادت الشكوك تلح على نفسي .. والغيرة تنهش قلبي .. ولكن لم أملك سوى النهوض والانصراف .. كما أرادت .

ولكني .. في الواقع لم أنصرف .. فقد بيت في نفسي أمرا .. صممت به أن أكشف خبيثة أمرها .. وأعرف الحقيقة ، وأقضى على الوسائس والشكوك .

تظاهرت بالانصراف واندفعت أحدث الخطأ في طريق العودة ،
ولكنى بدل أن أستمر في طريقي عبرت الطريق إلى الرصيف الآخر ..
ثم دلفت .. إلى الداخل متواريا بين البيوت المتناثرة أخوض بين الرمال
والأعشاب والحجارة .. محاولا أن أنتقي لى موضعاً للمراقبة أتوارى
فيه وأرقب منه .

وبدت أمامى الطاحونة .. بهيكلها الضخم ونوافذها العالية فاندفعت
إليها وطرقت الباب ثم دفعته فى عجلة وعدوت إلى أعلى فوق السلم
الخشبى .

وفى لحظات قصار كنت أجلس وراء النافذة وقد بدا الشاطئ أمام
عينى بوضوح .. وأبصرتها من بعيد جالسة فى مكانها تتلفت حولها فى
قلق .

وأخذت أرقب .. وقد تلاحقت أنفاسى .. وأرهفت حواسى ..
فلم أكد أشعر بشيء أو أرى شيئاً .. سوى شبحها الجالس على
الشاطئ .

ولم يطل بى الأمر حتى وجدت سيارة تنساب فى الطريق ثم تهدئ
من سرعتها وتقف قبالتها .

وعصفت بى الغيرة .. وملأنى الغضب .. وقد توقعت أن يهبط منها
الغريم المجهول الذى كنت مسلاتها فى غيبته ، والتي كانت تأبى إلا أن
تصرفنى بسرعة كلما أزف ميعاده .

ولكنى رأيت السائق قد هبط من العربة .. ومعه رجل أسود يرتدى
جلباباً أبيض ... كأنه خادم .. وتقدم الاثنان نحوها .. وأخذنا يقتربان
حتى وصلا إليها .

وكنت أرقبهما فى شيء من الدهشة وقد بدأ الغضب يهدأ والغيرة
تتلاشى .

وفجأة حدث ما وقف له شعر رأسى .. حدث آخر ما كنت أتوقعه .. لقد مد الاثنان ذراعيهما وحملا الفتاة بمقعدها فى صمت وأنجها إلى العربة ، وهنا فقط أدركت أن الفتاة مقعدة ، وأن بها شلل أطفال ، وأدركت كل ما قصدته بالروضة البرية الموحشة المهجورة ، وعرفت مبعث سحب الظلمات التى تحيط بها واليأس الجاثم عليها ، وتبينت سبب أصرارها على أن أنصرف فى كل مرة حتى لا أكتشف مصابها فأهجرها ، وأحرمها ذلك الإحساس الفياض الذى أغرقها به .

وتذكرت قصة الفتاة المشلولة التى قصصتها عليها .. وتذكرت ثررتى البغيضة التى علقت بها على الفتاة وأحسست أن مطارق تهوى على رأسى .. وخناجر تمزق أحشائى ، واندفعت فى جنون أهبط السلم أربعاً فى أربع ... ومرقت من الباب كالسهم المارق ، وعدوت أنخبط بين الرمال والحجارة وشواهد القبور .

وعندما وصلت إلى الطريق وجدت العربة تتحرك .. وصحت أستوقفها صارخاً .. والتفتت هى فى دهشة من وراء الزجاج الخلفى للعربة وندت عنها صرخة مكبوتة وبدا عليها الارتباك .

ولكنها لم توقف العربة .. بل أخذت سرعتها تتزايد وهيكلها يتباعد ، وعدوت ألثت وراءها لأنبيها أنى أحبها أكثر مما أحب أى إنسان فى هذه الحياة .. وأن أسألها الزواج ... أسألها عن رغبة ولهفة وحب عميق .. لا عن عطف طارئ أو شفقة عابرة .

عدوت لأؤكد أن لها الحق فى أن تأمل فى كل شىء ، وأمحو من ذهنها السخافات التى صدمتها بها بثررتى الحقائق .. عن الأمل المحدود .. وعن الطريق السهل للتخلص من الآلام ..

ولكنى توقفت أخيراً وقفة اليأس ... والعربة تنهب الأرض مسابقة الريح وأنا ألثت مبهور الأنفاس .

ونظرت حولى فى يأس .. فلم أبصر غير الأمواج الصاخبة والبحر
 الهادر المتلاطم ، والطاحونة الخربة تقف كالشبح المخيف باسطة
 ذراعها إلى السماء والريح تصفر من حولها وتئن وتغول وترن .
 وعدت إلى البيت ذاهاً مرتاعاً .. لا تفارق ذهنى صورة الوجه
 الأشقر الدقيق تكسوه لمحة الحزن واليأس ، وقد حملته الأيدي إلى
 العربة كالطائر المهيبض .

كنت أشعر بمدى الطعنة القاتلة التى وجهتها إلى الطائر الحزين
 البائس المقصوص الجناح .. وأنا الذى كنت أتلهف إلى أن أربأ صدعه
 وأجبر كسره وأشفى قرحه وألم جرحه .

وعاودتنى صورة طير آخر صغير .. هوى من حالى بعد أن أصابته
 رميتى .. وخيل إلى أنى أوشك أن أصيب الآخر بمثل رميته ..
 وأحسست أن رأسى يوشك أن ينفجر وبأنى لو لم أفعل شيئاً .. لأنقذ
 به الضحية .. فإنى سأجن لا محالة .

وكنت على استعداد لأن أفعل من أجل ليلى المسكينة كل شيء ..
 كنت على استعداد لأن أفنديها بروحى ، وبأعز ما أملك ولكن التضحية
 بروحى لم تكن تغنى عنها شيئاً ولذلك لم يبق أمامى .. إلا أعز ما
 أملك .. أعنى راجية .

كان ذلك هو السبيل الوحيد .. والعلاج الحاسم الناجع السريع ..
 كان على أن أفنديها بأى ثمن .. ولو كان ذلك الثمن راجية .. بكل
 ما بيننا من موثيق وعهود ، وكل ما يجمعنا من سعادة وهناء .

كل ذلك هان على نفسى فى سبيل شيء واحد .. هو افتداء ليلى
 وإنقاذها .. ولم تكن المسألة بالعمل السهل ، ولا كان الإقدام على
 تنفيذها بالأمر الهين .. كنت أعلم أى صدمة سأصدم بها راجية وأى
 فجيرة وخذلان أليم سأسببه لها .. ولكنى كنت أعلم أيضاً أن ذلك
 الثمن الضخم .. يرخص إذا ما قيس بالحياة التى سأفنديها به .

وفى نفس اليوم أقدمت على تنفيذ ما عقدت العزم عليه .. وبذهن شارد وخطا متشاقة .. ذهبت إلى راجية .. وأنهيت الأمر .. وقد صممت الأذن عن كل رجاء .. ووأدت فى قلبى كل إحساس بالحنين وقتلت فى نفسى كل شعور بالتخاذل أو التراجع .

وعدت إلى الدار وأنا أشعر — برغم ما سببته من فجعية لراجية ولنفسى — أنى قد أزحست عنى جزءا من العبء الذى يثقل كاهلى وينقض ظهرى .. وكان على أن أزيح الجزء الثانى بأن أذهب إلى ليلى وأنبئها .. أنى مصمم على زواجها .. وأنى لا أحس لها بأى رثاء ولا شفقة ، بل أحبها .. بكل ما فيها .. أحبها كما هى ... ولا أريد عنها بديلا .

ولم أكن أعرف كيف أصل إليها .. وكان على أن أنتظر ليلتى .. حتى يصبح الإصباح فأذهب إليها حيث تعودت أن ألقاها .. وأنبئها بكل ما أريد .

ولا أظننى فى حاجة لأن أقول أن النوم قد استعصى علىّ ولم يقرب جفنى .. وأنى ظللت طول الليل أتقلب على الفراش مفتوح العينين .. وأن الصور الثلاثة كانت تتواتر على ناظرى الواحدة بعد الأخرى .. صورة ليلى المشلولة البائسة ، وصورة راجية الباكية المستعطفة ، وصورة ليلى الصغيرة الهاوية من عل .. تهتف بى .. إياك أن تفعل بليلى العزيزة ما فعلت بى .

وقبيل الفجر ... أثقل الجهد جفنى فرحت فى غفوة ، ورأيت فيما يرى النائم أنى أسير وراجية على ربوة عالية تشرف على البحر ، وعلى حافة الربوة أبصرت فتاة تحمل طفلة تشبهها وقد أخذت تدللها وتقبلها ثم أحسست كأن ريحا عاتية تهب من الساطع والتفت ورائى . فإذا بمروحة ضخمة تدور بسرعة هائلة وقد اندفع منها الهواء بشدة

مروعة .. ورأيت كل ما حولي يتطاير وقد أخذت الريح المنبعثة من المروحة تقذف بالحجارة والرمال كأنها الحمم تخرج من فوهة بركان .
وسمعت صرخات استغاثة صادرة من حافة الربوة ونظرت فإذا بالفتاة والطفلة توشكان أن تقعا فى الهاوية وقد تعلقتا ببعض الأعشاب تهتز تحت أيديهما .

واندفعت لإنقاذهما عندما أبصرت بصخرة كبيرة توشك أن تهوى على راجية ورأيتهما تتعلق بى متوسلة ألا أتركها . وأخذت الصخور تنهوى والرياح تشتد والموج يعلو وأحسست أن يدي راجية قد أفلتتا منى وأنى اندفعت أعدو وسط ضباب كثيف لا أسمع فيه سوى الصرخات التى تتصاعد من كل فج .. وأنى أصبح بصوت مبحوح لا يكاد يسمع : « ليلى .. ليلى » .

وفتحت عيني .. وأنا أصبح بليلى .. ورأيت ضوء الصبح قد تسلل من النافذة .. فنهضت فى عجلة وارتديت ثيابي واندفعت إلى الطريق .
حششت الخطأ تارة وانطلقت أعدو تارة .. حتى وصلت مكروب الصدر مبهور الأنفاس وأشرفت على الشاطئ ... دون أن يلوح هيكلا لناطرى . وأخذت أقرب .. أقرب .. وكلمما ازدادت اقترابا ، زاد بى الخوف واليأس .. ولكن الأمل لم ينقطع .. كان بنفسى خيط واه من رجاء .. كنت أقول .. ربما وجدتها وراء هذه الصخرة ، أو تلك .. أو ربما لم تأت بعد .

ووقفت أخيرا فى الطريق قبالة المكان الذى تعودت أن تجلس فيه ثم قفزت فوق السور المنخفض واندفعت أخوض فى الرمال وما زال بى بعض الأمل .

وفجأة وجدتنى توقفت .. وأحسست بعينى تثبتان على الرمال وتكادان من فرط الحملة تخرجان من محجريهما .
فقد أبصرت مالا أحرؤ على ذكره .

- ٢٦٥ -

أبصرت حقيبتها وقد بدا منها طرف « الإيتسارب » والنظارة
السوداء .. وبجوارها استقر على الرمال ... كتاب كتب على ظاهره
« حذار من الشفقة » .

ثم أبصرت آثار زحف على الرمال تمتد حتى حافة البحر ..
وبعيني المأخوذ المبهوت عدت أدقق البصر فى الكتاب وتذكرت
الطريقة التى انتحرت بها الفتاة المقعدة الزاحفة بعربتها على الصخرة إلى
الهاوية .

وخيل إلى أن ليلى المسكينة تهمس بى قائلة وهى تزحف على
الرمال إلى البحر : « حذار من الشفقة » .

وانطلقت منى صرخة مجنون .. وتشنجت يداى وأنا أود أن أطبق
بهما على شئ ، وعدوت نحو البحر أصبح بها والريح تبدد صرخاتى
« ليس ما بى شفقة .. أنه حب .. حب .. حب » .

الخاتمة

وعاد إبراهيم يكرر كلمة « إنه حب .. حب » ... وشرد ببصره من النافذة وبدأ عليه الإعياء التام .
وران الصمت برهة .. ثم مد نوفيق يده وأخذ يربت ساق إبراهيم برفق وقال له فى صوت هادئ النبرات ملئ بالثقة والإيمان وهو يهز رأسه هزات خفيفة .

— لا .. يا إبراهيم .. لا .. إنه لم يكن حبا فى آيه لحظة من اللحظات ... لقد كان شفقة .. ولا شىء أكثر من شفقة .. ألم تقل أنت بنفسك إن أول ما جذبك إليها إحساس بالشبه بينها وبين أختك الصغرى !! لقد كان هذا هو ما دفع إليها أول الأمر .. ثم أخذت اللهفة تتزايد لإحساسك بحزنها .. وآسها ، ولرغبتك الجارفة فى مساعدتها وتبديد ظلمات اليأس من حولها .. يدفعك إلى ذلك شعور خفى بالرغبة فى التكفير عن جرم قديم ما زالت بقاياها راکدة فى ذهنك .. كامنة فى باطنك .. وكنت كلما زاد إحساسك بحزنها وميلها نحوك وحاجتها إليك .. زدت تعلقا بها .. ورغبة فى مساعدتها .

كنت ترى فيها أختك ليلي .. وكأن من العسير عليك أن تتخلى عنها بعد أن أطمأنت إليك ووجدت فيك ملجأها وملاذها .

وبلا قصد منك .. وعلى غير إرادة .. تورطت فى الحديث عن الفتاة المشلولة وأبديت رأيك فى انتحارها .. ووجدت أنك قد رميت سهمك الطائش عزيزا آخر .. كان بودك لو كفرت لغوئه ونجدته عن إصابتك للعزيز الأول .. واندفعت فى جنون تبحث عن وسيلة للإنقاذ وصممت على أن تفتديها بكل شىء .. بنفسك وسعادتك وحبك

ومستقبلك .. فأقدمت على فسخ خطبتك راجية .. حتى تستعيد حريتك .. وتكرس حياتك لأسعاد ليلي .. مكفرا بذلك عن جرميك .. نحو الاثنين .

هذا هو ما أردته أنت .. ولكن القدر أراد شيئا آخر .. ونحن يا أخى لا نستطيع فى حياتنا أن نسيطر على إرادة القدر .. ولا نملك إلا أن نودى واجبنا فى حدود قدرتنا .. ثم نخضع لما يفرضه علينا القدر صاغرين . وأنت مخلوق شديد الحساسية .. مفرط يقظة الضمير .. يثقل عليك كل إحساس بشقاء غيرك .. وتوهم أنك قادر على إزالة هذا الشقاء وأن تركه تقصير .

أنت فى كل ما فعلت .. لا لوم عليك ولا تشرىب .. لقد فعلت أقصى ما تستطيع .. لإزالة شقاء غيرك .. ولكن كما قلت لك لأتملك التصرف فى مصائر البشر .. فليس هناك ما يدعو لأن تشقى نفسك بأخطاء القدر .. إن واجبك الأول هو إزالة شقاء نفسك ... والتماسك والتجلد والمقاومة .. وأن تزيل بذلك شقاء مخلوقة أخرى .. هى راجية التى كانت الضحية الحقة فى كل ما حدث .. راجية التى قلت عنها إن حبك لها هو الأصيل الدائم الباقي .. إنها تستحق أن تكافح من أجلها مرضك وأن تستعيد قواك .. لكى تسعد حياتها .

وصمت توفيق .. وهمس إبراهيم وقد أسند رأسه بكفه وبدأ كأنما يوشك أن يتهاوى إلى الأرض :

— راجية .. راجية .. أين راجية ؟

وكان هذا آخر ما فاه به ... فقد انهارت قواه ... وراح فى إغماء ، وأسنده زكى على صدره وهو يمس جبينه قائلا :

— إن حرارته مرتفعة .. يبدو أنه محموم .

ونقل إبراهيم إلى داره ورقد على الفراش يرزح تحت عبء الحمى . وكان أول ما فعله توفيق بعد عودتهم أن أنبأ راجية بما حدث .

— ٢٦٨ —

وتملكها الدهشة وهي تنصت للقصة يقصها عليها توفيق .. ثم أخبرها
فى النهاية بأنه قد أصيب بحمى وأن زكى سيتولى علاجه وأنهم قد
أرسلوا فى طلب ممرضة للسهر عليه .

وهمست راجية وهي تكفكف عبرات انسابت من عينيها :

— لا داعى للممرضة .. سأتولى أنا السهر عليه .

وكانت سيدة تقف إلى جوارها فقالت معترضة :

— ولكن .. ماذا يقول جدك .. عندما يعود ؟

وأجابت راجية :

— لن يقول شيئا . لقد سبق أن قلت له إنه ليس هناك من يستطيع أن

يمنعنى من أداء واجبى .. إنى لن أترك إبراهيم لحظة واحدة .. إن

جدى يعرف أنى لا أذهب إليه للهلز أو للعبث بل لأؤدى واجبى فى

إنفاذه .. وهو لا شك يكره أن أتخطى عنه فى شدته وأتركه فى محنته .

ومرت الليالى ثقيلة بطيئة .. وإبراهيم مغرق فى غيبوبته وراجية

ترقبه بمقلة أرقها الحزن وأضناها البكاء والسهر .

ولم تكن تكف عن التمتمة بالفاتحة وبما تحفظه من الآيات وعن

دعوة الله فى توسل أن يبله من مرضه .. فى رجاء وأمل ... وقد أخذت

تسائل نفسها :

— ترى ماذا سيقول عندما يعود إلى وعيه ؟

أتراه سيرفها أم سينكرها ؟

ولكن بأى حق تبقى إلى جانبه .. وقد قطع هوكل ما بينهما ؟

ولكن ألم يكن ذلك لسبب ؟ ألم يكن معذورا ؟

أجل .. ولكن ذلك لا يمنع أن القطيعة ما زالت قائمة .. وأنها

بوجودها ستفرض عليه نفسها .

إن خير ما تفعله هو أن تتركه بمجرد أن يدنو من الشفاء . ولكن

هبه لم يسأل عنها !!

— ٢٦٩ —

أبعد كل هذا .. تفقده مرة أخرى !؟
ولكنها لن تفقده .. إنها ستعود إلى سابق أحلامها به وأوهامها
فيه ... ستعود إلى القناعة بمشاركة الآلاف في ألقانه .. بسماعه من
بعيد .

أجل .. إن هذا هو خير عزاء لها.
ليت الله ينعم عليه بالشفاء .. وليفعل بها ما يفعل .
وقبيل الفجر .. أفاق راجية من غفوة أملت بها .. وفتحت عينيها
في خشية وهي تنفض عنها النوم .. وتطرد من ذهنها بقايا حلم بغيض
طاف في غفوتها .
ثم نهضت متسللة على أطراف أصابعها .. واقتربت من إبراهيم
تطمئن عليه وتنصت إلى أنفاسه وترقب صدره يعلو ويهبط في هدوء
وتطلب من الله اللطف والرحمة .

وفجأة أبصرت جفنيه يرتجفان ثم يفتحان ببطء وبعينيه تحمقان في
سقف الحجرة بلا وعى ولا إدراك .
وكتمت أنفاسها وهي ترقبه في خوف شديد .
أترأه سيعود إلى سابق حالته من الذهول والشرود والتجاهل
والإنكار ؟

اللهم لطفك ورحمتك .
وتحركت مقلته يمنة ويسرة .. لتقعا على محياها المتلهف المشدوه
.. وشع منهما بريق معرفة وإدراك وانفرجت أساريره وارتسمت على
شفثيه بسمه خفيفة وانحنى عليه برفق وهمست به في صوت ذائب :

— إبراهيم !

وأجابها هامسا : راجية .
ولم تستطع أن تمنع عبراتها الصامتة من الانسياب .
وأمسك إبراهيم بيدها وضغط عليها قربها من فمه :

— ٢٧٠ —

- لا تبكى يا راجية ... إنى بخير .
- أجل بخير .. وستكون دائما بخير .
- وأخذ يتحسس يدها فى حنو وشغف .. وأحس بأن الخاتم قد نزع
- من أصبعها فسألها فى شىء من الدهشة :
- أين الخاتم ياراجية ؟ أين خاتم الخطبة ؟
- وأجابت راجية فى لهجة متلهفة : أتريدنى أن ألبسه ؟
- طبعاً . أعيديه إالى أصبعك ، ولا تنزعيه أبداً .. سيبقى قى
- يدك ، ما بقيت لى أنفاس تتردد ، أنت الروح . وأنت ..
- صه ... لا تتعب نفسك بالحديث .
- دعينى أنبتك بكل شىء .. دعينى أعتذر .
- لا تقل شيئاً ولا تعتذر عن شىء .. ليس هناك أبداً ما يدعو إالى
- الاعتذار ، ولو كان ، لكنت أسبق إالى الغفران .
- ولكن أريد أن أقول ..
- أنا أعرف ما ستقول .. إنى أسمعك .. دون أن تقوله .. انتظر
- لحظة حتى أريك .
- وغابت راجية عن الحجرة برهة ثم عادت إليه .. وبعد لحظة .. علا
- صوت المسجل من الخارج يهتف :
- أين أنا ؟
- بين ذراعى .
- واستمرت المناجاة .. عذبة حنونا .. وقد أخذ الاثنان ينصتان إليها
- فى نشوة .. والشمس ترسل أشعتها من خلال النافذة .. والنسيم الرطب
- يحمل إليهما عطر الورود .
- وأشرقت المناجاة على النهاية ... والصوت يقول :
- لم يعد لى غنى عنك لحظة واحدة .. أشعر كأنى لا أستطيع
- تنفس الهواء إلا إذا كان ممزوجاً بأنفاسك .

— ٢٧١ —

ومد إبراهيم ذراعيه وقرب من أذنها أنفه وأحس من أنفاسها نشوة
عجيبة وعاد الصوت يهتف فى رقة :

— إن حياتى مستمدة منك .. أنت أحد عناصر الحياة لدى بل أنت
عنصرها الأول .. بغيرك لا أستطيع الحياة .. لا أستطيعها أبدا .. أبدا .

وصمت الصوت وهمست راجية :

— أتريد أن تقول أكثر من هذا ؟

وأطبق إبراهيم على شفتيها وهو يهمس : لنبدأ من جديد .

وهمست راجية : أين أنا ؟

— بين ذراعى .

— ليتنى أبقى بين ذراعىك دائما .. ليتنى لا أفتح العين حتى يبقى
الحلم إلى آخر العمر .

— أنت لست حلما ، إنك الواقع .. إنك الأصل ، وغيرك ظلال
وأوهام وأضغاث أحلام .

— لا يا إبراهيم .. غيرى باقى فى قرارة نفسك .. إنك تحبه وأنا
أيضا أحبه .. أنك لن تنسى ليلى أختك ولا ليلى الثانية ، ولن أنساها
أنا .. فهما انعكاس لنفسك المرفقة الطيبة .. وصدى لضميرك الحى
الخير .. لن ننساها أبدا .. وعندما ننجب ابنتنا الأولى سنسميها
« ليلى » .. حتى تكون أمنيئتنا الدائمة وهدفنا المشترك وحتى نقول لها
كلانا « فديتك يا ليلى » .

رقم الإيداع : ٥٠٩٠ / ٨٧

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي الفحالة

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - النجاة

الثلث : ٦٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه